جائزة ابن بطوطة لأدب اليوميات 2019



خيري الذهبي

من دمشق إلى حيفا

300 يوم في إسرائيل

من اليوميات:

... «تبادلنا نظرات الفزع، فالعدو قد وصل إلى كناكر إذن، وماذا عن النجدات العربية؟ وماذا عن جيش العراق الذي أرسله إلينا صدام حسين إذن؟ وارتفعت أصوات شجارنا، فالبعض سعيد بنشرة الأخبار المطمئنة، والحرب كرّ وفرّ، والبعض كان مذعوراً.. في بيت جنّ؟ أوصلوا إذن إلى بيت جن وكناكر؟» ...

... «على الدرج الصاعد إلى الطيارة تذكرت لعنة الكولونيل نهاري الإغريقية: نحن لن نعاقبك هنا في إسرائيل، ولكنهم حكامك ورؤساؤك من سيحاكمونك ويعاقبونك بالنيابة عنا. ستعاني الكثير إن ظللت معادياً للإسرائيليين، ليس من إسرائيل، بل من حكامك في سوريا.» ...





منشورات المتوسط

من دمشق إلى حيفا

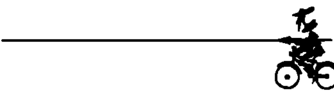
المؤلف: خيري الذهبي / عنوان الكتاب: من دمشق إلى حيفا - ٣٠٠ يوم في إسرائيل
الطبعة الأولى: ٢٠١٩.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-31-4

سلسلة يشرف عليها المركز العربي للأدب الجغرافي
تصدر بالتعاون بين:



دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص.ب: 44480/ الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 0097126447474/ فاكس: 0097126449797 / alrihla@gmail.com



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

جائزة ابن بطوطة لأدب اليوميات 2019



خيري الذهبي

من دمشق إلى حيفا

300 يوم في إسرائيل

تحقيق: فارس الذّهبيّ

الملازم أول خيري الذهبي ١٩٧٢



استهلال

هذه سلسلة جديدة من أدب اليوميات تأتي بعد مرور عقد ونصف العقد على تأسيس جائزة ابن بطوطة، التي شكلت تحدّياً لإمكانات الكتّاب العرب وميولهم الأدبية، وحافزا لكتابة أدب اليوميات، إن في فضاء السفر أو في فضاء الآخر حيث تقيم، اليوم، نخبة من الكاتبات والكتاب العرب المهاجرين عن أوطانيهم والمنفيين منها بفعل الاستبداد والقمع والحروب وضياع الحريات.

وقد حضت هذه الجائزة، الأولى من نوعها في الثقافة العربية، الكتاب العرب الجدد على اسئناف مغامرة الكتابة في هذا اللون الأدبي الذي كان قد شهد ضموراً واختفاء على مدار عقود، فأنعشت الرغبة في مقاربته، وراحت اليوميات تخرج إلى النور، إن من خلال منشورات "المركز العربي للأدب الجغرافي-ارتياد الآفاق" أو من خلال منصات وناشرين هنا وهناك في دنيا العرب.

هي سلسلة نوسع معها من مساحة التفاعل مع أدب اليوميات استقبالاً ونشراً، بما يتعدى النصوص الفائزة بالجائزة إلى ما هو أبعد وأوسع، نباشر نشرها بالتعاون مع "دار المتوسط-ميلانو" بوصفها مشروعاً جديداً ولد في المغترب الأدبي العربي، ويعبر في كثير من منشوراته عن نزوع أصيل إلى الكتابة الحرة والتفكير الحر، ويشترك مع "مشروع ارتياد الآفاق" خصوصاً في بحثه عن سبل جديدة ومبتكرة في بناء جسور ثقافية بين ضفتي المتوسط،

وهو ما يمكّن من خدمة فكرة انفتاح الثقافة العربية على العالم وثقافاته، والتعريف بأفضل ما تنتجه قرائح الأجيال الجديدة من الكتاب العرب الذين لا يعتبرون أنفسهم قارة منعزلة، ولا يرون حاضراً لثقافتهم من دون التفاعل الحي مع الثقافات الأخرى خصوصاً في هذه البحيرة العظيمة، ولا يرون مستقبلاً زاهراً لها ما لم تكن نتاجاتهم الأدبية والفكرية وتطلعاتهم الثقافية جزءاً أساسياً من تطلعات الثقافات الكبرى في البحر المتوسط.

***

شكل أدب اليوميات عماد مشروع "ارتياد الآفاق" الذي يعتبر، اليوم، مشروعاً فريداً من نوعه في الثقافة العربية، لكونه اعتبر أن أدب السفر والتواصل مع الآخر هو الاختبار الأهم والدليل الأسطع على انفتاح ثقافة على ثقافات أخرى. ولطالما نظرنا إلى سطور يوميات الرحالة والمقيمين في المنافي وديار الاغتراب بوصفها مدونات تشكل وثائق أدبية وتاريخية معا، وهي لوحات فنية مدهشة تكشف عن مشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة، وخواطر وانطباعات ترصد المرئيات، وغالباً ما تثري القراء بحدس شاعري وابتكار فني وجمال في التعبير، عبر خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة فيأتي بالممتع والمدهش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة وزوايا لم تستكشف، ولا يمكن استكشافها إلا بالأدب، وقد استنفذ التسجيل والتصوير المباشر غايتهما، وولد في العصور الحديثة ادب يوميات يجعل من أصحابه شعراء وفنانين أكثر منهم مدوني وقائع. اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة الناس والمدن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير عبر نصوص حية عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان.

***

نبهنا مراراً خلال سنوات عملنا في هذا اللون الأدبي إلى أن أحد أهداف ما حققنا ونشرناه من كتب اليوميات والرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق السفر والإقامة في ظهراني الآخر، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الكتاب، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب اليوميات، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها.

محمد أحمد السويدي

الملازم أول خيري الذهبي مع زوجته سميرة في الحسكة



هذه اليوميات

هذه يوميات فريدة من نوعها، كتبت استنادا إلى قصاصات وأوراق وضعها مؤلفها في محاولة لاستعادة زمن بات اليوم جزءاً من ماض لا يريد أن يمضي. إنه زمن استيلاء حزب قومي تشبع بالأفكار الاشتراكية المشبعة بنزعة قومية لم ينقصها شيء حتى تحولت إلى واحدة من أسوأ فاشيات العالم وأكثرها دموية. إنه الماضي البعثي المقيم إلى اليوم، حتى ولو على شكل حطام للقيم والأفكار والناس. وعلى رغم الصوت المفرد لكاتب هذه اليوميات، والذي يبدو باستمرار صوتاً مفرداً وأعزل، إلا أنه يعبر في الوقت نفسه عن الآلام والمآسي والمساخر التي رافقت حياة السوريين منذ أن تحركت دبابات البعث لتسيطر على دمشق عاصمة المشرق العربي، وتقحم البلاد في بلاء مريع.

نلاحظ من خلال هذه اليوميات، التي يدور جزء منها في الأرض السورية، والجزء الآخر في فلسطين المحتلة، وفي فضاء عسكري عموماً، كيف يمكن للفرد أن يفقد صوته، ولا يعود له أي قيمة شخصية في ظل تحولات كابوسية قادت السوريين من دولة الاستقلال الوليدة والحلم بنموذج برلماني يستحقه مجتمع مدني متحضر، إلى دولة القطيع التي تهيمن عليها أجهزة الأمن السري وتقودها عصبة مافيوية ورأس مريض بفكرة السيطرة الأقلوية على أكثرية مغدورة ومحطمة.

تتكشف لنا من خلال هذه اليوميات جذور المسألة، التي مكنت

مجموعة صغيرة من العسكريين من تبديل عقيدة الجيش الوطني السوري ليلعب، بدلا من دوره في حماية البلاد، دور الأداة الطيعة الغاشمة والعمياء في قمع الشعب وحراسة نظام فاشي على الطريقة اللاتينية. وتكشف هذه اليوميات عن أن لا غرض من وراء الصورة الوطنية الزائفة التي روجت للجيش في ظل حكم آل الأسد سوى حراسة نظام تحول من زمرة عسكرية فاسدة إلى طغمة عائلية حاكمة أكثر فساداً وهمجية تدير مزرعة خاصة بها اسمها "سوريا الأسد"، يسكنها قطيع مرعوب على مدار نصف قرن، ويخيم عليها صمت القبور.

يوميات خريج جامعي دمشقي يقوده قدره الشخصي إلى الإقامة في أنحاء مختلفة من سوريا، وينتهي به المطاف ضابط ارتباط مع القوة الدولية على خط الهدنة مع إسرائيل في منطقة الجولان المحتل، وأسيراً لدى الجيش الإسرائيلي لـ٣٠٠ يوم.

نال عنها صاحبها الكاتب الروائي المرموق خيري الذهبي جائزة ابن بطوطة لأدب اليوميات.

جائزة ابن بطوطة

العودة

كان منظراً باعثاً على الكآبة ما استفتحتْني بهِ دمشق بعد الثورة البعثية "قبيل هزيمة الخامس من حزيران"، فقد كانت اللّافتات جميعها تحمل جملة واحدة: خسئ العدوّ حين اعتقد أن سورية قد هُزمت حين سرقوا "الجولان" منها، ناسياً أن حُلْمه الكبير في هزيمة الثورة لم يتحقّق، "فثورة البعث "باقية، وإلى الأبد".

كانت شرفة المستقبلين والمودِّعين عالية، ولكني استطعتُ تمييز ملاءة أُمّي السوداء المغطّية على وجهها الجميل بين المستقبلين، فقد حافظتْ - ولو لتعرفني إليها من وراء الحجاب - على خصلة الياسمين العراتلي "تُبرزها من وراء الحجاب"، كانت المرَّة الأولى منذ وفاة زوجها، ما زلتُ أدعوه بزوجها بدلاً من أبي "تتشكّل بالياسمين لاستقبال ابنها، كما عرفتُها قبل سنوات وسنوات".

لم أكن شديد الوثوق، وإن تحرّكتْ كفِّي في نصف تلويحة ربّما لم ترها، فلم تُلوِّح لي بالرّدّ، ولم تكن واثقة، فلم تكشف عن وجهها الجميل فرحة بعودتي إلى أرض الوطن. على طريق دمشق، كانت تمسك بكفِّي بقوّة، كانت أحياناً تحيلها إلى اعتصار يقوم مقام اللغة التي لا تحبّ الحديث بها عن مكنونات القلب، فمكنونات القلب أثمن من ابتذالها بالثرثرة اليومية.

كنتُ أعرف أن حديثنا عادةً كان قليلاً، ولكني كنتُ أعرف بأنها كانت

تُعوِّض عن قلّة الكلام بالقبلات، والاعتصارات، ولمسات الجسد. كان البيت (بيتنا) كما تركتُهُ قبل سنوات الغربة خرباً في بعض أجزائه التي أخفتْها عن عينَيْها، وعن أعين الفضوليّيْن بـ "شرشف" علّقتْهُ بحبال تخفي الخرائب التي لا تستطيع ترميمها، وقد فشل المرحوم نفسه في ترميمها لكثرة التكاليف.

اقتربتُ من البحرة، وكانت جافّة بالكامل، وكأنها لم تعرف الغرق والفيضان خارجاً لسنوات، قالت تشرح قبح البحرة الجافّة وأشناتها العالقة بالجدران والنافورة الواقفة كشاهدة على قبر: كان الخيار إمّا بملئها من ماء الفيجة، وثمن ماء الفيجة بعد حسم الاشتراك كبير، أو تركها للجفاف تنتظر، وقد اخترتُ الجفاف، ووافقتُها على أن الجفاف في بيت ليس فيه أولاد يسبحون تخبّطاً في الماء، وفي بيت ليس فيه زنابق شامية في حاجة إلى العيش في البحرة غارقة في ماء دائم، في بيت لم يعد فيه أسماك متسلّلة من النهر بعد تلويث النهر، وتحويله إلى ساقية للتّلوّث المنزلي، فالتجفيف أفضل.

كان غداء مترفاً، لا عادة لي به في مصر، ولا عادة لي به، بدخلي المحدود من الترجمة للسفارات الشرقية البخيلة عموماً، والكتابات الصحفية المتناثرة، تأمّلتُ السفرة التي أضافت إليها على غير العادة الشّاكريّة باللبن ولحم الموزات، والكبّة اللّبنيّة، واليبرق في غير أوانه وبقية المأدبة الدّمشقيّة الشهيرة، أدركتُ أنها أنفقت على هذه المائدة مصروف أسبوع، شعرتُ بالخيبة والحسّ بالخسارة التي ستشعر بهما لو أنها اضطرّت إلى رمي ما زاد عن قدرتها على الأكل، لو لم أصل اليوم بالطائرة.

شعرتُ منذ أن أيقظتْني صباحاً بحركاتها المكتومة، فهي لا تريد إيقاظي المبكّر، بأنّ عليّ تنفيذ ما وعدتُ به نفسي من البحث عن عمل منذ اليوم

الأوّل لي في دمشق، فالبيت في حاجة إلى دخل آخر غير ما تركه الوالد بعد مرضه الطويل من كُتُب، كانت تبيعها بالتقسيط الطويل، فقد كانت كما قالت لي على سباق مع الزمن خوفاً من نفاد الكُتُب نادرة القيمة المعنوية والمادّيّة، فلقد كان ما احتفظ به حتّى ما قبل موته هي المخطوطات، والكُتُب العربية الكلاسيكية المطبوعة على الحجر في بولاق، والتي لنُدرتها صارت بقيمة المخطوطات، وكانت تخاف أن يسبقها الإفلاس: فتبيع كل ما تركه قبل أن يتكفّل عزرائيل بإراحتها من هذا السباق الظالم.

بعد إفطار سريع، كنتُ قبله قد لبستُ ثياب الخروج استعداداً للتّفرّج على البلد وما تغيّر فيها بعد غياب خمس سنوات، والبحث عن عمل هنا لو أمكن.

قبّلتْني، ربّما للمرَّة الأولى في حياتها، فعلقت قبلتها في الذاكرة حتّى (وصولي إلى عتليت في فلسطين لاحقاً)، قبّلتْني متنشّقة رائحتي بعمق، وكأنما تختزن رائحتي قبل الغياب الطويل، وخرجتُ أفكّر: أتراها النبوءة؟ أمْ الشوق بعد غياب السنوات ما بين أوربا ومصر؟

كانت دمشق في أواخر السّتّينيّات كما رأيتُها لم تتغيّر، ما عدا الحفر الواسعة عمداً والمقوّاة بأنابيب مجاري واسعة من الإسمنت في الشوارع استعداداً لحرب العصابات ضدّ إسرائيل، ولكن بعض هذه الحُفر الواسعة فضّل الناس استخدامها مكبّاً للزبالة، بدلاً من تركها مهجورة، رموا فيها فضلات منازلهم، فإسرائيل لم تهاجم دمشق، والمحتلّ لم يحاولِ حرب الحارات مع السّوريّين.

كان شارع القنوات ساكناً، وكأن الناس لم يستيقظوا بعد، وكان الأطفال محبوسين في مدارسهم، فأنتَ لاتسمع إلا أصواتهم الرفيعة تهدّد

الاستعمار، وتشتمه، وتهدِّد الإمبريالية بأن الشعب سيستيقظ، وصلاح الدين سيستيقظ، وسيأخذ بثأره من العدوّ الذي لم يصفوه بالصهيوني.

خرجتُ من شارع القنوات، لأجدني في باب الجابية، حيث ساقتْني قدماي، حيث فضّلتُ استكمال السَّيْر حتّى الشارع المستقيم.

دلفتُ إلى شارع الملك فيصل تاركاً خلفي الحارات والأسواق المغطّاة، والتي انسللتُ إليها من الشارع المستقيم "السوق الطويل"، والغريب أن المدينة لم تتغيّر خلال سنوات خمس، اتّجهتُ باتّجاه القصاع. كنتُ أمشي لا قاصداً هدفاً ولا مُتجرِّئاً على طلب العمل ممّنْ لا أعرفهم، لم أشعر بأني مضطرّ إلى بذل ماء الوجه قبل الأوان حتّى لقيتُهُ.

كان صديقاً من زمان ما قبل السفر إلى مصر، ومنها إلى فرنسا، تأمّل كل منّا الآخر في تفحّص وتقرب وأخيراً مدَّ كفَّاً، فسلَّم: ألستَ خيري؟

وابتسمتُ ابتسامة عريضة: لعلّك الأستاذ عبد الوهاب. وهجم يعانقني عناق الصديق عثر على صديق قديم، كان قد ظنّ أنه لن يراه من بعد، قال: أنتَ في الشام؟ قلتُ: نعم بالشام. كنتُ أحسّ بالحسرة في سؤاله عن ذلك الذي كسر القيود وخرج، قادني في حنان مليء بالأسئلة إلى ما عرفتُ أنه مقهى، وقال: نشرب شاياً، وتحدِّثني عن مغامراتكَ التي طالت، وقبل أن نجلس، فاجأني بالسؤال: هل تخرّجتَ؟ واضطررتُ إلى الاعتراف بالخيبات التي قابلتُها في مصر، ثمّ في فرنسا، وهتف: فرنسا؟ هل وصلتَ إلى فرنسا، ورجعتَ إلى سوريا الكئيبة؟ أنا لم أُصدِّق حين أخبروني أنكَ سافرت إلى فرنسا.. ظننتُهم يبالغون!

ولاحظ انقباضي المفاجِئ، فقال بعد أن طلب كأسي شاي: لا تؤاخذني، ولكنكَ برجوعك إلى هنا، وأشار إلى من حوله، ورشف رشفة

شاي طويلة، أنبأتْني بأن الشاي ليس ساخناً جدَّاً، فرفعتُ الكأس في حذر، وشربتُ، استغلّ فرصة تذوُّقي للشاي، ليُكمِل: خيّبتنا، الشّلّة كلها. وضع كأس الشاي على الطاولة من رخام كان أبيض متّسخ الخدوش، وتابع: يجب أن أسمع منكَ، أمّا عن الشّلّة، فهذه حكايتنا، حكاية جيل الخيبة، "وتذكّرتُ الكتاب الذي أصدره أستاذ الفلسفة في الصّفّ الحادي عشر في مدرستنا الثّانويَّة، وتذكّرتُ كيف عرضه علينا في فخر، وإن لم يطلب إلينا اقتناءه، وإصراري على شرائه أمام أُمّي، والتي أصمتَتْني في قسوة حين سمعتُ الباب الخارجي ينفتح، وعرفتُ أن الأب قد عاد، واشتريتُ الكتاب من نقود سرّبتْها أُمّي لي دون أن يعرف الأب بشرائي للكتاب، وحين قرأتُ الكتاب جعلني أصمِّم على السفر مصالحاً الوالد في عدم سفري إلى (دار الكفر)، "فرنسا "بسفري إلى مصر، أليست مصر بلداً مسلماً؟".

لم يهتمّ صديق الحارة عبد الوهاب للثرثرات التي قلتُها وأنا أحدِّثه قبل سفري عن حُلْم جيلي في دراسة الإخراج السينمائي، وأكملتُ: أخيراً حصلتُ على جواز السفر.

"تجاهلتُ بكاء أُمّي التي تخلّت عن كبريائها، وقالت: رح تسافر، وتتخلّى عنّي وعن أخوَيْكَ الصغيرَيْن؟ نحن لم نُصدِّق أن يكبر خيري، ويصبح أهلاً للمسؤلية عن البيت، ثمّ حاولت استعطافي: أبوك عجوز، وقد خسر كل شيء، لم يبقَ له إلا أنتَ ومكتبته، المكتبة التي ليس هناك مَنْ يهتمّ بشراء كُتُبها الصفراء التي تكرهها الحكومة، ويكرهها جيل مدارس الحكومة الذين يحبّون الكُتُب البيضاء، ويكرهون الصفراء كما يسمّونها ".

مللتُ من الثرثرة، والإجابة عن سؤال كيف قضيتُ السنوات الخمسة الماضية، فوقفتُ مشيراً إلى وجوب العودة إلى البيت، ولمّا كان البيتان متجاورَيْن في حَيّ القنوات تقريباً صحبني على طريق العودة، كان ممّا قاله

متعجِّلاً، يحاول اللحاق بي في سرعة السَّيْر في حارات، تذكّرتُها ساقاي المحترفتان: هل هناك عمل ينتظركَ في البلد؟

توقّفتُ ملتفتاً إليه بكُلّي، ومتشجِّعاً بسؤاله، وقلتُ: كنتُ أتمنّى أن تسأل هذا السؤال منذ بداية جلستنا. الجواب، يا عزيزي: لا، وإن كنتَ تعرف عملاً مناسباً لي، فدُلَّني عليه. وكانت نظرة النصر في عينَيْه حين قال: مدرسة المنصور في حاجة إلى مُدرِّس لغة عربية لساعات إضافية، أي دون مرور بالمسابقات وشروطها، وربّما لعام دراسي. ولو استمعتَ إلى نصيحتي، فعليكَ الالتحاق بكُلّيّة التربية، فتحصل على دبلوم في التربية والتعليم، ويُهوّن هذا عليكَ التّقدّم إلى مسابقة المُدرِّسين في نهاية العام، وستتخرّج تحمل الدبلوم، هدأ تساؤلي، فقد كنتُ مُهتمّاً بالوالدة المنتظرة وبأخوَيّ اللَّذَيْن لم أرهما بعد، فهما يؤدّيان الخدمة العسكرية، والكل ينتظر الشاطر حسن الذي سيحلّ مشاكل التّرمّل في بيت، لم يعرف العوز قبل وفاة الوالد.

كان عبد الوهاب ابناً لحلّاق الحارة، والذي كان أبي يصرّ على حلاقتنا جميعاً لديه، كان رجلاً متقِناً لمهنته، وصديقاً لأبي، والأهمّ أنه كان مُهاوِداً في أجره، وبينما كان عبد الوهاب يثرثر فرحاً بأنه استطاع اكتشاف الفارس الذي كانوا جميعاً يحسدونه أن استطاع الخروج من حفرة الحارة المنغلقة على نفسها تجترّ الأمجاد القديمة، والتي هرَّأها مرور الأيّام.

عند دخولنا جادَّة القنوات، تنحنح عبد الوهاب، وقال: هل تحبّ أن نزور الوالد؟ فقد كان الوالد كثيراً ما يفتخر بأن الحارة قد خرّجتْ عظيماً سافر إلى مصر، وفجأة غيّر مسار الحديث: أنا أجبر نفسي، فترفض أنكَ قد تخلّيتَ عن مصر بعد أن صرتَ في حضنها، ومضيتَ إلى فرنسا!

كان السؤال صادِماً ومفاجِئاً، فما كنتُ أعرف أنهم يعرفون تفاصيل حياتي في الغربة، ويعرفون حتّى عن سفري إلى فرنسا بعد فعلة مدير المعهد حسن فهمي.

حاولتُ التّهرّب من الإجابة بقولي: يجب أن نزور دكّان الوالد، فله عليّ.

ولكنه قاطعني: كان تذكّرُكَ دائماً مبعثاً لذكر عدنان، ثمّ، أضاف: الله يرحمه. وكان في مقاطعته غير الحزينة هذه أن أيقظ عدنان رفيق الولدنة والمدرسة الابتدائية والفلقات القاسية من الشيخ بهجت الذي كان كل شيء في المدرسة إلا في التعليم، فقد كان المكلّف بمعرفة مَنْ تأخّر عن المدرسة، ومَنْ جاء في الوقت المناسب، وكان مسؤولاً عن تفقّد الغائبين والمتأخّرين عن الحاضرين منتظمين، فقد كان يصرخ بصوته الأجشّ بأسماء الطّلّاب، ويا ويل مَنْ لم يكن موجوداً زمن التّفقّد، فقد كان الشيخ بهجت، والذي لم يكن شيخاً، وإنما اعتدْنا على تسميته بهذا الاسم، كان له بالمرصاد مع عصاه من خشب الزان الشهيرة بالانتظار، كان يحلو له نَقْع أكفِّ الأطفال بالماء البارد في البحرة حتّى تتجعّد جلودهم، ثمّ يبدأ جولة العقوبات قبل الدخول إلى الصفوف وتحصيل العلم، وكان عدنان واحداً من المعاقبين الدائمين، ورغم أني كنتُ أشبهه في كثرة الضربات على يَدَيّ المتجعّدتَيْن من الماء البارد إلا أنه كان الأعلى صراخاً وإسعاداً لبهجت.

أبو عدنان كان قد أوصى بهجت عند إلحاقه بالمدرسة بقوله (اربط الجدي بالشجرة وانفض الغبار عن الجِلْد، واللحم لكَ، ولنا الجِلْد والعَظْم)، ولم يخيّب بهجت طلب الأب، فلقد جعل من عدنان الدرس المريع لبقية الأولاد، وكان من الممكن الاستمرار في هذه العقوبات غير المنطقية رغم وصولنا إلى الصّفّ الرابع، لولا أن تأخّر عدنان عن المدرسة يوماً أكثر من نصف ساعة، (وهذا ما عرفه من عابر سأله عن الساعة، فقال له في ودّ

أبوي: التاسعة إلا ربعاً، تأخّرتَ عن المدرسة، وقد ظنّ نفسه يحثّه على الدخول السريع إلى المدرسة إلا ان عدنان تحوّل بوجهته عن المدرسة فجأة، وانطلق عادياً إلى شارع الملك فيصل)، وهنا تختلف الروايات، فمنها ما يقول إنه حاول التّعلّق بترام دوماً، فتزحلق، وسقط تحت الدواليب الحادّة كشفرة، فمزّقتْهُ قبل أن يستطيع السائق إيقاف الترام، والبعض يقول: كان يحاول عبور شارع الملك فيصل هارباً من المدرسة وعقوباتها، ليصل إلى الجهة المظلّلة من الشارع إلا أن الترام سبقه وهَرَسَهُ، والبعض قال: المهمّ حملوا بقايا الطفل إلى أبو عدنان بعد أن تعرّف بعضهم إلى المدرسة التي دلّتْهم على البيت من دفتر الوظائف، ومضى بعض المعلّمين والتلاميذ معهم إلى دكّان أبيه الذي استقبل ابنه الحبيب ممزّقاً إلى قِطَع، فرمتْها شفرات الترام الحديدية.

استقبلنا أبو عدنان الذي عرفني مباشرة ببكاء مختزن على عدنان رفيقي الذي لم ينسَه بعد هذه السنين كلها.

وبعد ارتباك منّا في كيفية التهوين عليه في الذكرى أو مشاركته البكاء هدأ، وغسل وجهه، ثمّ جفّفه في عناية، وظهر أمامي جليّاً وجهه الذي جعّده الحزن ومرور السنين عليه، وقال يحاول المزاح: وأخيراً، هل حصلتَ على شهادة (الحكوك)؟ وكان عليّ أن أفهم أنه يقصد شهادة الحقوق أمل السّوريّيْن في الوصول إلى العلم والوظيفة المريحة، وكان على عبد الوهاب أن يشرح له أن شهادة الحكوك تلك لم تعد ذات جدوى في أيّام العسكر، وأن الشهادة المرغوبة اليوم "وخاصّة لمَنْ يريد الحصول على بيت" وهو واحد من الجمعيات السكنية هي شهادة اللغة العربية المطلوبة بشدّة في السعودية، وفي معظم البلدان العربية حديثة الاستقلال، شربْنا الشاي، وهنّأني بسلامة العودة، ومضيْنا أنا وعبد الوهاب.

في البيت، حيث كان لدينا طعام كثير ممّا أعدّتْهُ أُمّي لاستقبالي، تغدّيْنا، ورفضتْ مؤاكَلَتَنا رغم رجائي الشديد، وإحراج عبد الوهاب الذي لم يعتدْ مجالسة النساء من خارج العائلة على الطعام.

أخيراً عرض عبد الوهاب عليّ الطريقة المناسبة، فقال: تتقدّم غداً إلى كُلّيّة التربية، وأنتَ من جهتي مقبول، أضاف ممازِحاً، ثمّ أكمل: ثمّ تتقدّم إلى مديرية التربية بطلب تدريس ساعات إضافية "وكانت هذه الصفة المناسبة للمُدرِّس غير النّظاميّ الذي يتقاضى أجره حسب ساعات التدريس الفعلية"، ونصبح زملاء في المهنة، فعليّ في العام القادم، أي بعد التّخرّج في كُلّيّة التربية الرحيل إلى محافظة أخرى للمساهمة في مَحو الأُمّيّة عن شعبنا الكريم، قالها في تهكّم. وسيكون عليكَ المساهمة في مَحو أُمّيّة الشعب العظيم. قالها ضاحكاً.

البحث عن عمل في دمشق

في اليوم التالي تماماً، كنتُ على باب مديرية التربية في مكان ما بين ساحة المرجة وشارع محطّة الحجاز، فأنا لا أستطيع لطول الأمد تحديد مكانه الآن، وكان انتظار، وكان تزاحم، فقد كانت البطالة كما بدت لي قد أمسكت بخناق السّوريّيْن في أواخر السّتّينيّات، وكدتُ أنصرف آسفاً لولا رؤية عينَي أُمّي الخائبَتَيْن تُحدِّقان بي في عتب ممرور، فانتظرتُ دوري، وكان من الذكريات المضحكة أن الآذن فتح الباب، ودعا الآنسة كرمنتينا للدخول، وانطلقت القهقهات والضحكات، ما أحرج الفتاة، فقالت في كبرياء وهي تدفعه داخلة إلى حيث المفتّش الممتحن: اسمي، يا جاهل "كليمنتين"، وليس كرمنتينا، ابتعدْ عن الباب.

ودخلتْ، وما تزال البسمات المخفّفة من التّوتّر عالقة على شفاه المنتظرين.

وجاء دوري، فدخلتُ، وكنتُ على استعداد لفعل أيّ شيء في سبيل الحصول على العمل الذي لا أعرف حسن القيام به، وكان المفتّشان، وأحدهما رجل جليل، عرفتُ اسمه من اللوحة الموضوعة على مكتبه، ولن أحدِّث عن اسمه الآن، ولكنْ، ممّا أذكره عنه، وكان مفاجِئاً لكل مَنْ عرفوه أنه بعد سنوات قليلة سينتحر بشفرة حلاقة، يقطع بها أوداجه احتجاجاً على شجار عائلي، لم يستطع حسمه.

المهمّ أني استعرضتُ أمامه معارفي في الأدب الكلاسيكي العربي وبعضاً من الفرنسي، وتحدّثتُ بصفة خاصّة عن العلاقة بين الصاحب بن عبّاد والتوحيدي، وقال شريك الرجل الجليل في الاختبار: عظيم عظيم يمكنكَ القيام الآن، وأنتَ ستكون كنزاً لطلّابكَ، أتمنّى أن أقرأ اسمكَ في الصحف الأدبية قريباً. حيَّيتُهُما شاكراً، وخرجتُ منتفخ الصدر، فلقد عرفتُ بنجاحي بعد الاختبار مباشرة.

بعد أسبوع، وكان العام الدراسي قد افتُتح قبل الإعلان عن الناجحين في اختبار مُدرِّسي المستقبل، قرأتُ اسمي بين المختارين لتعليم الطّلّاب للسنة القادمة، كما قرأتُ اسمي منتدباً إلى مدرسة المنصور في باب توما.

كنت قد نسيتُ تقريباً خارطة دمشق، ولكني كنتُ أعرف ساحة باب توما بشكل عامّ، وهكذا ركبتُ الباص إلى هناك، حيث سألت عدّة مرات أشخاصاً مختلفين، نفوا معرفة مدرسة بهذا الاسم، إلى أن دلّني أحدهم على المدرسة العازارية المُؤمّمة، "وقالها في أسف، أو هذا ما شعرتُ به" كان صاحب محلّ السجائر الذي عرف المدرسة طالباً فيها قبل عقود، أي قبل أن تضربه سيَّارة، فتحيله إلى بائع سجائر، قالها ضاحكاً ضحكاً يخفي مرارة، ثمّ تابع: ولذا فأنا أعرف تفاصيلها جيِّداً جدَّاً.

وكاد يسرد عليّ تاريخه فيها منذ كان اسمها العازارية، وكان هو طالباً فيها، واستأذنتُ معتذراً، فأنا لا أرغب في التّأخّر عن المدرسة وطريقها في يومي الأوّل.

مدرسة المنصور

كانت مدرسة المنصور حسب اللّافتة المعلّقة على الباب من أبنية القرن التاسع عشر، أي مَبنية من الحجر، فلم يكن البلوك أو الإسمنت قد

اختُرِعا بعد، ودخلتُ في دهليز شبه عتم، ثمّ خرجتُ إلى الباحة، حيث وجدتُ التلاميذ مجتمعين، ومدير المدرسة يخطب فيهم بلغة عامّيّة، تتظاهر بالفصحنة.

كان لقائي الأوّل بهذا المدير بائساً، فلقد استمعتُ مع الطّلّاب إلى خطابه المرتجل، وكانت ثرثرة مختلطة بتهديدات البعث لمَنْ لايسمع ويطيع.

أصممتُ أُذُني عن "خطابه البليغ"، وشردتُ أفكّر فيما فعلتْهُ الأقدار بي منذ ركبتُ الطائرة المصرية عائداً إلى دمشق، ورأيتُ الطوابير تنفرط ماضية إلى الصفوف، ووجدتُ أن عليّ التّقدّ م بأوراق تعييني إليه قبل أن يَتيهَ في مكان ما، سلّمتُ عليه، فأجابني دون اكتراث، واستكمل مسيره، ولكنْ، كان عليّ قبل مباشرة عملي أن أُبلغه بوجودي، وهكذا لحقتُ به إلى غرفة الإدارة، ولمّا تناول الورقة من يَدي دون اكتراث، ولم يدعني إلى الجلوس، شعرتُ بالاستياء، وجلستُ.

قرأ الورقة، والتفتَ إلى حيث كنتُ واقفاً، فلمّا لم يجدني استاء، فالتفتَ إلى مَنْ حوله، وقال بصوت خشن: "وينه الأستاذ فلان؟"

واكتشفتُ بسهولة أنني لم أكن المَعني بالسؤال، وتابع: شو زمط؟ وحتّى اليوم لم أسمع بتلك الكلمة العامّيّة المغرقة في الحاراتية، وردّ القريب من الباب: ربّما مضى إلى الحمّام. وردّ المدير: خير، شبو مسهول؟

كان رجلاً عامِّيًّاً تماماً، ولم أدرك في ذلك الحين كيف كانوا يختارون المديرين؟ هل يختارونهم حسب الكفاءة؟ أم لأولويات أخرى؟ وكان علي انتظار بضع سنوات حتّى أدرك أن عضوية حزب البعث هي الغالبة، وأن اختيار أغلب البعثيّيْن للمناصب القيادية يُوجِب عليهم أن يكونوا من

كتّاب التقارير بزملائهم، ومن أعضاء الحزب الموثوقين، وهذا ما سأعرفه في الأيّام، والسنوات القادمة.

في الباحة، وقبل دخولي إلى الصّفّ للمرَّة الأولى، رأيتُ أن أستنصحه، فاقتربتُ منه مبتسماً في أدب، وقلتُ له: إنها المرَّة الأولى أدخل صفّاً مدرسيّاً كمعلّم، فبمَ تنصحني؟

وأجابني بطريقته السوقية: شو دخلني فيك؟ أنا اللي حطّيتك؟ أنت معك ليسانس وبتعرف شو تعمل، واستدار عنّي تاركي لخيبتي وشعوري بالخديعة أن سألتُهُ، وسأسأل عنه بعد انقضاء اليوم الدراسي صديقي عبد الوهاب، ليقول: يا للحظّ! ألم يكن حظّكَ إلا أن يكون مديركَ مخبراً؟! لقد صعد هذا الرجل على حطام كثير من أصدقائه وزملائه، وهو لن يرفض أيّة مكافأة من الحزب، ولو كان ثمنها التضحية بأخيه ابن أُمّه وأبيه.

كان هذا هو بداية اليوم الأوّل في مهنة التعليم التي سأظلّ أكرهها حتّى أنتقل إلى مهنة أخرى، فلم أُخلَق معلّماً، ولا أحبّ التعليم.

كان الصّفّ مُشكَّلاً من أكثرية مسيحية تبعاً لأصول المدرسة والجوار قبل تأميم المدرسة، والبعض كان من أثرياء المسلمين الذين اعتاد أهلهم على المدارس التبشيرية وجودة التعليم فيها، ولم يعرفوا أو لم يتأكّدوا من التأميم وعقابيله، وفي نهاية الحصّة الأولى التي استخدمتُ فيها حكاياتي التي سَلَّتْهُم، فلم يكونوا قد حصلوا على كُتُبهم بعد، وأخيراً رنّ الجرس معلناً انتهاء الحصّة، وبينما كنتُ أخرج من الدرس التّعارفيّ لحق بي بضعة صبية، وكانوا يجرّون وراءهم طفلاً صغيراً شديد الرعب وشديد البياض. كان له عينان وديعتان، وقال أطولهم: أستاذ، أستاذ، هذا الولد "يهودي".

كانت المرَّة الأولى أتعرّف فيها على طفل "يهودي"، وكان اسمه إبراهيم.

فلم يفتح الله عليّ إلا بسؤاله عن اسمه، وليقول مُثقَلاً بالخوف والحِسّ بالذنب: اسمي إبراهيم.

في الحصّة التالية، استيقظ فيّ المناضل دفاعاً عن العدالة، فألقيتُ خطاباً، ذكّرني بخطب أستاذي المرحوم حفظي في المدرسة الثّانويَّة، وكان أوّل ما قلتُ: الدين لله، يا أبنائي، والوطن للجميع، وكانت مقولة قد أُعجبتُ فيها في فرنسا، وأخذتُ في الحديث عن عدم التّعرّض لأديان الآخرين، فهم مَن اختار آباؤهم لهم هذا الدين، أوذاك، وآباؤهم لم يكونوا مَن اختاروا هذا الدين وهجروا غيره، بل كان آباؤهم وأجدادهم قد اختاروا هذه الرؤية ديناً حتّى أصبح الدين الجديد هوية لهم، فلا تحاولوا الإساءة إلى اليهودية، أو إلى أيّ مذهب آخر مختلف عن مذهبكم في المسيحية، أو الإسلام، فالمقولة السّوريّة تصدق علينا اليوم "كل مين على دينه الله بيعينه". وحين يكون المتديّن بدين لا يعجبنا، فعلينا تذكُّر أن ديننا لا يعجبه أيضاً، وحتّى لا ينقسم البلد إلى أحياء متصارعة على مصداقية هذا الدين أو ذاك، فعلينا احترام معتقدات الآخرين وفرض احترامهم لمعتقداتنا بدل السخرية من معتقداتهم، أو معتقداتنا.

وكانت صداقة بيني وبين إبراهيم قد بزغتْ، فأنا أحميه من اعتداءات الصِّبْيَة المسيحيّيْن الذين كانوا يكرهون "إن سمح لهم" كل مَنْ لا ينتمي إلى كنيستهم ورؤية كَهَنَتِهِم التي لايفهمونها رغم دروس الديانة التي كانت تفصل بين المنتسبين إلى هذا المذهب أو ذاك.

انقضى العام الدراسي بين تدريس في ثانوية القدّيس فنسان، أو المنصور كما أَحَبّ المؤمّمون تسميتها، وبين حماية إبراهيم الذي صار همّي إبعاد الصِّبْيَة الذين كانوا يتحرّشون به طيلة الوقت، وأذكر منهم صبيَّيْن (جورج ووديع)، فيسارع إلى الاحتماء بي، وبين كُلّيّة التربية التي كان طلّاب اللغة العربية فيها من المتعصّبين ضدّ خرّيجي مصر.

فَطَلَبَة كُلّيّة اللغة العربية يرونهم أدنى منهم علماً وتعلّماً، كان الكثيرون منهم من تلامذة مُدرِّس في كُلّيّة الآداب متشدّد بالدين حريصاً على منع اختلاط الشّبّان بالشّابّات، وكان يُدعى الدكتور سعيد، فهذا الاختلاط مناف للدين والشرف، وكان مُتعصِّباً لِلُّغة العربية ونحوها وفصاحتها ضدّ كل الذين كانوا محدثي الهجرة إلى بلد عربي، والإقامة فيه، ويخافون من أنهم أضاعوا عمرهم في إتقان لغة، يهجرها أبناؤها إلى اللغات الحَيّة الأخرى، وكان تلاميذه متشدّدين في رفض كل جديد بينهم، فلمّا دخلتُ كُلّيّة التربية، وجدتُ رفضاً من المتشدّدين منهم، فأردتُ تبيان أن اللغة ليست كل شيء، فهناك الأدب والفلسفة والأبحاث العلمية.

كان أستاذ علم التربية قد طلب ممّنْ يستطيع الترجمة ترجمة فصل من كتاب كان يعدّه للتدريس في الأعوام القادمة، فوجد منهم رفضاً صامتاً للموضوع بأكمله، فتطوّعتُ للترجمة مقابل عشر علامات مكافأة، وقد اضطرّ إلى الإعلان عن هذه المكافأة تشجيعاً للمترجم، وزيادة في المعرفة، فالكتاب القادم للأستاذ كان عن المُربّين المبكّرين في الحضارة، وقد أعطاني كتاب "حياة وإسهامات المربي اللّاتينيّ كوينتيليان"، ثمّ كلّفني بإلقاء الفصل المترجم كمحاضرة، الأمر الذي هيّج طلّاب الدكتور سعيد، فأخذوا في التّحرّش بي، والسخرية من نوطاتي، ولمّا أنشأ بعض الطّلّاب جريدة حائط، وضعتُ فيها مقالاً لي هاج المتحمّسون لمُدرِّسهم، ولم أكترث لهياجهم وكتابة واحد منهم في صفحة جريدة الحائط نفسها يسخر ممّا أكتب، ويتهكّم على ادّعاءاتي الاستعراضية على الرغم أني "متخرّج في الجامعة المصرية"، إلخ، وتجاهلتُ الأمر غير عارف أن بعض المُدرِّسين في الكُلّيّة متشدّد وضدّ كل المجدّدين أو الكافرين بوحدانية اللغة العربية وقدسيتها وتفرّدها عن بقية اللغات.

في تلك السنة، عرفتُ بالرؤية فقط أحد الطّلّاب، وكان ملتحياً عملاقاً، وسيماً بلحيته الصهباء ونظراته المحتقرة إلى كل مَنْ حوله، فلمّا أعلن مُدرِّس - جديد التعيين في الكُلّيّة - أنه سيستضيف دكتوراً معروفاً في الجامعة، ليُلقي محاضرة لدينا، أبديتُ حماساً لقدوم هذا الأستاذ، فقد كنتُ أعرفه عبر كتابته وأبحاثه التّاريخيّة، فلمّا ألقى محاضرته وهي عن الحركات الفلّاحية في سوريا العثمانية، قام الكثير من المتشدّدين بمقاطعته، والخروج من القاعة احتجاجاً على المحاضر والمحاضرة، ولمّا قمتُ بالدفاع عن المحاضر، تنطّح العملاق الوسيم إلى الرّدّ عليّ بقلّة احترام، فانصرفتُ عنه غير مبال بتعليقاته، فانصرف المحاضر مُشيَّعاً بالمُدرِّس الذي استضافه، وبالمعجبين بالمحاضرة، كنتُ أنزل الدرج بعيداً عن التّجمّع المُودِّع حين تقدّم العملاق، واصطدم بي عامداً بكَتِفِه متوقّعاً اعتراضي، ليكون شجاراً بين اثنَيْن، فتجاهلتُهُ، وأكملتُ الطريق خارجاً من الكُلّيّة، لحق بي، يُعيد التّحرّش، فسلّمتُ عليه عادّاً إيّاه زميلاً، وحدّثتُهُ عن المحاضرة، وأعتقد أنه خجل من سلوكي معه، فانصرف عن ولدنته.

انقضى العام الدراسي، وعُيّنتُ في نهاية الصيف مُدرِّساً في الحسكة، حيث أطلقت أُمّي للمرَّة الأولى زغرودة فرح، رغم أنها لم تعرف الحسكة من قبل، ولا تعرف حتّى موقعها، كان زملاء كُلّيّة التربية الجدد يبدون أسفهم عند معرفة المحافظة التي اختيرت لي، فقد كان الكثيرون يعدّونها (المنفى)، وكان أبشع التعليقات هي ما سمعتُهُ من مُدلّلي الحزب، وبعد فترة سألتُ زميلاً في التعليم في الحسكة، وكان من مدينة العملاق الأصهب نفسها، فأخبرني ساخراً أنه قد حلق لحيته، وانضمّ إلى حزب البعث، قالها ساخراً متعجّباً من انقلابات الزمان.

بعد عدّة سنوات، وكنتُ أتحدّث في استرخاء إلى صديق في المقهى

عن مدينته التي غادرها سعيداً بالتّخلّص من التّشدّد المبالغ فيه من أهل مدينته، فذكرتُ العملاق الأصهب سابق الذِّكْر، فنظر إليّ غير مصدِّق أن أتذكّر مثل هذا الـ "كائن" كما وصفه. فأخبرتُهُ عن آخر ما وصلني عنه، فأردف مضيفاً عمّا قلتُ: إنه بعد أن انضمّ إلى حزب البعث مهاجماً كل متعصّب للدين، صعد المنبر ذات مرَّة في يوم الجمعة، وسبّ النّبيّ والدين الإسلامي، فهاج المصلّون ليضربوه، ما اضطرّ رجال الأمن الموجودين في المسجد إلى القبض عليه، وحمله إلى سجن النّظّارة، ثمّ أُحيل إلى المحكمة التي حكمت عليه بالسجن للإساءة إلى الدين، فقام في اليوم الثالث للحكم عليه بالانتحار، فحمدتُ الله أني لم أشتبك مع متهوِّر مثل هذا الرجل.

بعد عدّة سنوات، كنتُ فيها عضواً في هيئة تحرير إحدى المجلّات الثّقافيّة التي تصدرعن اتّحاد الكتّاب العرب، وكنتُ أجول في معرض لمنشوراته، لأُفاجأ بأن الاتّحاد نشر ديوان شِعْر للعملاق الأصهب مع مقدّمة إضافية عن الشاعر الكبير الذي لم أكن أعرف أنه شاعر حتّى طالعتُ له الديوان المشايخي.

الحسكة

كانت نتيجة المسابقة مُخيّبة تماماً لأُمّي، فبعد فرحها الأوّليّ، استوعبتْ فكرة سفري من جديد، ولكنْ، هذه المرَّة إلى الحسكة.

حيث إنها كانت تنتظر أن نعيش معاً، فيكفي فراقنا منذ الثَّانويَّة ورحيلي إلى مصر، وتركها وحيدة، وهي متعلّقة بي حدّ الجنون، ولكني كنتُ أُحدّثها عن وجوب البحث عن مستقبلي، وأنني لن أبقى مُدرِّس ساعات، لن يعرف متى يصطاده زميل كاره، أو تقرير معاد، فيحرمه حتّى من تدريس الساعات، وتكرّرت الزيارات والتهوينات حتّى تخلّت عن رغبتها في الاحتفاظ بي إلى جانبها، وانشغلتْ عنّي- برغم اعتراضاتي الكثيرة - في اختيار قطرميزات المونة للإفطار، وفيما بعد ستحاول، ولكنها ستُجابه بالرفض الحادّ منّي لمحاولتها أن أحمل معي إلى الحسكة الفراش الذي كنتُ أنام عليه قبل الرحيل إلى مصر، وصمتَتْ على كراهية لهذا الرفض لِلَمسة الأمومية التي كانت تنتظر القيام بها منذ سافرتُ مُخبِراً إيّاها أن الطائرات لا تحمل الأشياء الكبيرة والثقيلة كالفراش والألحفة، وصمتَتْ على رفض لهذا القانون الظالم.

وفي المساء، ونحن نتعشّى وحيدَيْن، تسرّبتْ منها الاعترافات أخيراً، كانت تتمنّى لو بقيتُ في دمشق، وظللتُ إلى جوارها، فتموت مرتاحة إلى حضن ابنها الذي غامر ودار في العالم، ورجع إليها، لتعيش أحلى أيّامها، كما كانت تقول.

واحتضنتْني في لهفة، وهي ترتجف، حاولتُ تجاهل ضعفها، وحين رأيتُ دموعها تتساقط على ظاهر كفِّي، انبثقت الدموع من عينَيّ أيضاً، كانت تبكي بصمت، فهي أكثر كبرياء من البكاء أمام إنسان ما، فما بالكَ بابنها؟! فابنها هو مَنْ كانت تبوح له بما لم تبحْ به لأحد منذ زمن طويل.

كانت أُمّي التي لم أعرفها من قبل صبيّة صغيرة مرهفة الحسّ وضعيفة، لم تكن أبداً تلك الأمُّ لستّة أطفال، القوية أمام زوج غارق في أفكاره، نظرتُ إليها نظرة متفحّصة حينما بدأتْ مصارحتي بهواجسها ومخاوفها التي كانت تعايشها في أثناء غيابي عن البيت.

اعترفتْ بخوفها من الوحدة ليلاً، كانت تخاف من صوت القطط تموّء في الباحة، وتجعر تطلب الأُنثى، وترتعب من صوت ارتطام عصفور سقط عن شجرة التين العملاقة على الأرض، فتظنّه لصّاً ما، ومن صفير الريح خلال شقوق المندلون، وكان هذا اسم النافذة المزدوجة السطوح، فهي تحفظ فيها البصل والثوم، ليتمّ جفافهما، وأضافت أنها لم تخلد مطمئنّة إلى النوم إلا حينما عدتُ إلى البيت: فهل ستُفارقني وتتركُني ثانية للوحدة والخوف؟

في الليلة التي سبقت السفر جاءت سميرة وأُمّها لوداعي، وبَكَتَا للفراق القادم على غير انتظار، وأكلَتَا مربىّ الباذنجان من مخزون أُمّي، وقالت أُمّها تخاطب أُمّي: ما شا الله عليكِ، ولمّا نظرت لها سميرة مستغربة التعليق، فأضافت الأمُّ: صنعة مربىّ الباذنجان قد ماتت في البلد، واذا بحماتكَ "كان الخطاب لسميرة" ما تزال ماهرة في كل شيء حتّى في صناعة مربىّ الباذنجان. سأحرص على زيارتكِ، لأستعيد معرفتي بصنع هذا المربىّ، وضحكت سميرة ساخرة في مزاح: إذاً، ستضطرّين كثيراً لاستقبالها.

في الصّباح، انسللتُ لا أريد إيقاظها، بل أردتُ رحيلاً دون دموع، ولكنها كانت تنتظرني عند البحرة الجافّة، حيث جهّزتُ صينية الإفطار الحافلة، وقالت: صباح الخير، مفكّر حالك شاطر، وتهرب من فطوري ومنّي؟ قالتْها مختنقة بدموعها.

الطريق من حلب إلى الحسكة

في الباص الذي حملني إلى حلب حتّى الطريق إلى الحسكة، أخذتُ أرى أُمّي بوشاحها الأبيض وعينَيْها المحمرَّتَيْن بالبكاء دون صوت، فاندفعت الذكريات، وهي تسلية المسافر.

فقبل بضع سنوات، حاربتُ، وأغضبتُ الأب وأصدقاء الأب الذين جعلهم يتدخّلون لإقناعي بالتسجيل في كُلّيّة الشريعة "وهي ما يُفضِّل" أو كُلّيّة الآداب "فرع اللغة العربية" في جامعة دمشق على الأقلّ، ولكني صمّمتُ على رغبتي، وغادرتُ سوريا سعياً وراء تعلّم الإخراج السينمائي في مصر. وفي القاهرة، تقدّمتُ إلى مسابقة لاختيار الأكفاء لدراسة السينما بشكل عامّ منتوياً الرغبة في الإخراج السينمائي قبل كل شيء، ونجحتُ في الاختبار التّمهيديّ برتبة متقدّمة، وانضممتُ إلى الدراسة لأكثر من ستّة شهور مع طلّاب من السودان وفلسطين ولبنان، ومَنْ لا أذكرهم، ولكن مدير معهد السينما أو المهندس "حسن فهمي" وهو مَن اشتهر بأنه والد الفنّانة الراقصة التّعبيريّة "فريدة فهمي" جمعَنا نحن العرب، أي من غير المصريّيْن بعد شهور من بدء العام الدّراسيّ، وطلب منّا مغادرة المعهد، فالمعهد يعتذر عن قبول "الشّرقيّيْن"، وللمرَّة الأولى، أسمع هذا التعبير المنكر للعرب، والعربية، ويتناسى الاتّحاد في جمهورية الوحدة التي دامت لفترة كانت الأزهى عند مُحبّي الوحدة المُسمّين بالنّاصريّيْن في تاريخ سوريا، كان علينا المغادرة والتّخلّي عن حُلْم دراسة السينما.

كان عليّ التفكير في طريقة لإنقاذ ماء وجهي أمام أهلي ومعارفي في سوريا، فأن تعود بالخيبة كان أمراً صعباً، وأكبر من قدرتي على مواجهة الناس، وبعد أرقٍ لأيّام، وبعد تفكير معمَّق، قرّرتُ الرحيل إلى باريس، حيث سألتحق بالـ "ايديك" معهد دراسة السينما، وكان عليّ التفكير في طريقة للعيش والعمل، وأخيراً، وبعناد عرفتُهُ وأعرفه عنّي، قرّرتُ العمل، ولو في أشقّ المهن التي لا تنسجم مع مخرج المستقبل الذي أردتُ أن أكون، والدراسة ككل ناجحي العالم.

في باريس، كان عليّ انتظار الوقت المناسب للتّقدّم إلى معهد السينما الأوّل في العالم خارج البلاد العربية، فعملتُ، كما توقّعتُ، في غسيل الصحون في مطعم، وفي إيصال طلبات الفنّانات والمشغولين من غير الفنّانين إليهم، دون حرج، وفي انتظار بدء العام الدراسي، حيث سأتقدّم، وأنجح، وأبدأ طريق النجاح في الإخراج السّينمائيّ.

في باريس، التقيتُ بـ "ذسبينا" البنت اليونانية التي كانت تعيش حُلْمها في السفر إلى حيث لا مكان، بل كان السفر ورؤية العالم هو الحُلْم، وليس الوصول، السفر دون خطّة مُسبَّقة، بل الاستسلام للطُّرُقات، تقودها إلى قدر ما. وبعد عدّة جلسات في مقاهي رصيف، وفي مطاعم شعبية، نتخيَّر فيها ساندويشَيْن، نأكلهما متعجِّلَيْن، فعيون الكارسون تطاردنا، وتتعجّل انصرافنا، بينما كنّا لاهين بوهيميّيْن، لا يهمّنا الوقت ولا المكان، بل كنّا مشغولَيْن ببعضنا وبلحظتنا التي نعيشها الآن. كانت باريس مدينة الشباب الحالم، والحرّيّة المنطلقة، والفنّ المتدفّق حتّى السماء. باريس كانت مدينة العالم التي جمعتْنا وعلّمتْنا السعادة رغم عدم وجود نقود تكفي لدفع إيجار الغرفة، فقرّرْنا الإقامة معاً.

أقمْنا لشهرين معاً، عرفتُ فيها باريس التي ما كان لي معرفتها، وأنا

أغسل الصحون، أو أُوصِل الطلبات إلى المشترين المُدلَّلين الذين لم يكونوا راغبين في النزول إلى شوارع باريس الجميلة المكتظّة، تلك الشوارع كانت ملكنا أنا وذسبينا، ملكنا نزرعها جيئة وذهاباً، نردّد أشعار بودلير ومالارميه، ونتشاجر على معاني أفلام جان لوك غودار وفيلليني، ونناقش آخر كتابات جان بول سارتر.

كان الربيع، وكانت روائح الصيف قادمة حين قرّرت "ذسبينا" المغادرة لاستكمال استكشافها للعالم، وجمعتْ أشياءها القليلة جدًّاً في حقيبة ظهر لمتابعة التّشرّد، وعند الباب قالت بصوت مرتعش، فقد كانت تخاف من رفضي: هل تحبّ مشاركتي إلى رحلة الضياع؟

لم أكن في حاجة إلى أكثر من هذه الدعوة حتّى ألحق بها متخلّياً عن حُلْم الإخراج السّينمائيّ في فرنسا الذي اكتشفتُ استحالته والجمع بين العمل الشّاقّ والدراسة، إن قبلوا بي طالباً.

بعد رحلة حُلْمِيَّة، تسكّعْنا فيها ما بين باريس ونابولي وروما وبيريوس في اليونان قرّرت"ذسبينا" فجأة الرحيل إلى مصر، حيث تقيم خالتها، وكان أن عدتُ معها ثانية إلى مصر، وحتّى أجعل للإقامة هناك مبرّراً أمام نفسي، فقد تقدّمتُ إلى جامعة القاهرة التي قَبلتْ بي طالباً في قسم الأدب العربي، وفي العام التالي، كان عليّ أن أودّعها، فالفتاة البوهيمية الشقراء قرّرت إكمال حُلْمها في السفر وعدم الاستقرار في مكان ثابت، سألتْني إن كنتُ أودّ مرافقتها مُجدّداً في السفر؟ فقلتُ لها متوجِّساً، وكنتُ استرطبتُ الإقامة في القاهرة بعد طول تنقّلات عبثية، فأجابتْني: إلى أستراليا.

حينها أدركتُ أن انفصالنا بات محتوماً، وأن لا قدرة لي على متابعة

الترحال بين مُدُن العالم، وقارّاته، فهنالك مَنْ ينتظر منّي العودة إلى دمشق، العودة ناجحاً ظافراً بشهادة ما تعيل أسرتي.

الطريق إلى الحسكة، والكيلو ٤٧

كانت الاستراحة على الطريق إلى الحسكة شيئاً بعيداً عن كل خيال، فلم تكن مبنية من الإسمنت، أو من الطين، بل من أغصان الشجر اليابسة مع أغصانها الصغيرة وأوراقها المخشخشة، وبقايا البطاطين وبقايا خيام الجيش التي طارت عن معسكرها حتّى عثر عليها بعضهم، فباعها إلى المقيم في "الكيلو ٤٧"، وكان هذا هو الاسم المتعارف عليه للاستراحة، ومطعمها الفاخرَيْن، قبل الوصول إلى الحسكة.

كان قد صحبَني منذ دير الزور مُدرِّسة دمشقية ممتلئة أكثر ممّا يجب، ولكن ما علق بذاكرتي منها هو خفّة دمها وتعليقها الظريف على كل غريب في استراحة الكيلو ٤٧، وخاصّة تعليقها على الماء في الزير الكبير المغطّى بغطاء من حديد ثقيل، لم يستطع واحد من المسافرين رفعه، وحين حاولتُ وفشلتُ كَمَنْ سبقوني، قالت: كل غطاء ثقيل يخفي جريمة كبيرة، ولم ترضَ أن تشرب من الزير، بل اختارت زجاجة من المشروبات الغازية دافئة، فلم يكن من كهرباء في الاستراحة.

كان لدى صاحب الاستراحة مكان خاصّ به، يقف فيه وراء حاجز من زجاج، يحجز ما بين المشتري الطارئ والبائع المقيم، كان لا يعير التفاتاً إلى الذباب الطائر وهو ينقضّ على ما يمكن له أن يكون وجبة، أو الدبابير الباحثة عن لحم تخطفه، أو مادّة حلوة المذاق تخطفها.

كان لدى العامل في الاستراحة مقليات من باذنجان وبطاطا وفلافل باردين، وبندورة مجعّدة البشرة من الحرارة وريح الأمس الحارّة، ولكن

المسافرين كانوا جائعين، فلم يهتمّوا للمواصفات، كانوا عطاشاً، فلم يسألوا عن ماء الزير ومصدره، بل شربوا من كؤوس معدنية تستقي من حنفية في أسفل الزير.

كانت الحسكة مدينة غير ذات هوية بعد، صحيح أن بناتها كما سأكتشف كنّ الأجمل، والآنق على الإطلاق، والأجمل تسريحة شَعْر، وكنّ يوم الأحد يخرجنَ بعد العصر إلى ضفّة نهر الخابور، يلبسنَ أفضل الثياب، وأكثرها أناقة، وملاحقة للموضة، ولكنكَ إن قرّرتَ ملاحقة جميلة منهنّ حتّى البيت، فستُصدم بالبيت الذي تسكنه، فهو شديد التواضع، شديد الرثاثة، لا ينسجم مع أناقتهنّ وجمالهنّ وتسريحاتهنّ.

سميرة والعازارية والحسكة

ومضينا من دير الزور البهية، نضرب طريق الحسكة الخضراء، فجأة قفزت سميرة إلى مقدَّم الذاكرة.

فبعد حوالي الأسبوعَيْن من بدء العام الدراسي، وكنتُ في طريقي إلى مدرسة المنصور بعد ركوب في الباص الدّمشقيّ واقفاً، أراجع عقليّاً موادّ التدريس القادم عليها، رأيتُ سميرة تتعجَّل في السَّيْر، إذ كانت كما يبدو متأخّرة عن موعد المدرسة وسماع خطبة "وين زمط؟" من المدير أو المديرة في مدرستها "كما سمّيت المديرين المختارين للإدارة"، أو مَنْ يماثلهما في المدرسة التي عُيِّنَتْ بها.

كانت سميرة فتاة ناعمة المظهر، جميلة الوجه، تهتمّ بمظهرها رغم البساطة التي كانت تبدو عليها إلا أن أناقة ما وسُمُوّاً ما كان يتجلّى في حركاتها ورقّة صوتها وشَعْرها المرفوع بعملية وقميصها الأبيض الذي يضيف عليها نقاء كبيراً، إذا ما انعكس على رقّة بشرتها.

كانت متعجّلة، بحيث لم تلحظني، ولحظتُها، وعرفتُها، فقد كانت زميلة لي في كُلّيّة التربية، وفاجأتُها بتحية "صباح الخير"، رفعتْ وجهها إليّ، لتعرف مَنْ يحييها، فاصطبغ خدّاها بالحمرة القانية، ثمّ هزّت رأسها تردّ التّحيّة، وسارعتْ إلى الانضمام إلى مجموعة من الطالبات المتعجّلات للوصول إلى المدرسة قبل إلقاء الشعارات البعثية المعتادة، ولكني

في مرّات تالية، وبعد اعتيادها على رؤيتي على الطريق إلى المدرسة، وبعد عدّة إلحاحات عليها للخروج معاً، رفضت وتعلّلت بدلال الفتيات بانشغالها، لكنها كانت ترمقني بتلك النظرة التي تقول لي: لا تيأسْ، فهي قد لاحظت شَغَفي بها ووَلَعي برؤيتها.

رغم رفضها المتكرّر مرتبكة لجرأتي، كما ستُحدِّثني فيما بعد كان هناك ما يشبه ناراً للحبّ تتّقد بيننا، ثمّ، وبعد عدّة محاولات، وافقتْ على اللقاء بي خارج الكُلّيّة، وبعد أسابيع، اصطحبتُ أُمّي في التّقدّم لخطبتها، ثمّ إلى عقد القران بعد تخرُّجنا في الكُلّيّة.

لم تتمكّن من المجيء معي إلى الحسكة، فقد كان عليها تأدية الامتحان في الموادّ التي لم تنجح بها، ووعدتْ باللحاق بي بعد التّخرّج وطلب الندب "المرغوب جدّاً من وزارة التربية" إلى الحسكة، وأصرّت على وجوب تهيىء بيت مناسب لنا، وأذكر أني قلتُ لها في إحدى نزهاتنا "كنتُ قد أقسمتُ على عدم الزواج إلا من امرأة عاملة، فإذا ما اختطفني الموت، أو الاعتقال الطويل، كانت قادرة على تربية أولادنا، وهكذا لن يُشكّلوا ثقلاً على روحي، يمنعني من المغامرة والمجاهرة بإعلان صوتي السّياسيّ".

شهقت هي في رعب: "أعوذ بالله من أفكارِكَ السود هذه"، ولكني أصررتُ على موقفي، وعدتْني بسرعة بتنفيذ ما أطلبه منها متشائمة من الفكرة، وقالت: "سيربون في عزّكَ وإشرافكَ عليهم حتّى المئة"، وعقدتُ القران عليها في المحكمة واعداً باستكمال الطقوس في الحسكة.

هناك وبعد بحث شاركني فيه زملاء متطوِّعون، وقعتُ على غرفة منعزلة في بيت تسكنه عائلة، وكان أجرها يعادل ربع راتبي، ولكن ما ميّزها، وجعلني أقبل بها هو سوء الفندق الذي كنّا ننام فيه، وسوء حالة البيوت المعروضة للإيجار، ووجود مطبخ صغير إلى جوارها، وحمّام مستقلّ، فكأنها

بيت منفصل، لا حاجة بكَ إلى الاختلاط مع أصحاب البيت. كان ما رأيتُ من الحسكة حتّى الآن ليس مُشجِّعاً على دعوة سميرة إلى عشّ الزّوجيّة، وليس مُشجِّعاً على تنفيذ الوعد، ما عدا المنتزه الخيالي الذي أقامه واحد من الأهالي في المدينة، والذي لا يشبه أبداً البساطة التي تُغلِّفها، تلك التي كان يخترقها نهر كبير، وهو من الأنهار القليلة في سوريا التي تمُكِّنكَ من قول "هذا نهر سوري"، أي كامل السّوريّة، فهو ينبع من أراضٍ سورية، ويصبّ في أراضٍ سورية، وكان في الوسط تماماً من نهر الخابور، مقصف جميل ومدهش بفكرته، فالطريق إلى المقصف الواقع في منتصف الخابور، يقوم على جزيرة صنعها النهر، وكان الجسرإليه يتدحرج مهتزّاً فوق الماء، فهو عبارة عن براميل مملوءة بالهواء قوية المقاومة، فلا يمكن للماء التّسرّب إلى البرميل، وقد رُبط كل واحد إلى الآخر، ثمّ رُبط إلى سور مهتزّ، يحيط بجسرالبراميل، فإذا عبر به رجل سمين أو امرأة سمينة ترجرج، ورقص، بحيث ينقل إليكَ وإلى مَنْ معكَ المرح والقهقهة قبل وصولكَ إلى الجزيرة، لتكتشف أن اسم المقصف كما سمّاه أصحابه "جزيرة القمر" كان الاسم مناسباً، وهم لم يُخطئوا في هذه التسمية، فقد كان حقّاً جزيرة القمر.

أمّا عن السكن، فقد كان غرفة متواضعة هي ما سكنتُ للمرَّة الأولى في الحسكة، والحقّ أن كل البيوت، وكل الغرف في هذه المدينة كانت متواضعة في كل شيء، متواضعة العمارة، ومتواضعة الأثاث، ومتواضعة الجوار، فقد كانت الحسكة مدينة لمهاجرين مذعورين من القتل والقَتَلَة الذين طردوهم من مرابع طفولتهم وقبور أهاليهم، فنجوا، وما صدّقوا أن نجوا من الذبح والاغتصاب وقتل الأطفال أمام عيون والديهم، فصنعوا بيوتاً ناقصة من كل شيء إلا للخائفين من المطاردة والمطاردين، بنوا بيوتاً تحسّ أن بُناتها جعلوها بيوتاً مؤقّتة في انتظار العودة إلى المرابع التي ألفوها، والوطن الذي غادروه شمالاً.

بعد أسابيع قليلة، لحقت سميرة بي إلى بيتنا الجديد، الغرفة الكبيرة في البيت الكبير، هناك حيث أقمنا سعداء في استقرار هانئ، وبساطة تشبه بساطة مدينة سورية مهملة في بحر من الجمال، لكننا بعد سنة، وخسارتنا الولد الأوّل في حزن أزرق وحيد، أنجبت زوجتي ابنتي الأولى سهير زهرة الحياة.

بعد أسابيع قضيتُ أُمسيّاتها في ندوة المعلّمين، وهي باحة بيت من بيوت الحسكة، استأجرها واحد من الشاطرين، وحوّلها إلى مقهى لايرتاده إلا العاملون في سلك التعليم، أسابيع تعلّمتُ فيها التدخين وشرب الكحول وألعاب الورق.

كان بين زملاء مقهى الندوة مُدرِّس يُدرِّس اللغة الفرنسية، وكان طيِّباً شديد الطِّيبة، يلعب "الكون كان" لدور واحد، ثمّ ينسحب، بغضّ النظر عن مكسبه أو خسارته، وينصرف إلى الفرجة، وكان اسمه نايف حنّا، فسمّتْهُ البنات العفريتات ضاحكات بـ "نايم عنّا".

كان عجوزاً متهالِكاً ينام أحياناً في أثناء إلقاء درسه، والمعروف عنه أنه أرمل توفّيت زوجه منذ زمن طويل، فلجأ إلى الحسكة، يعلِّم دون شهادات رسمية، إلا شهادة المحبّة والتسامح التي استصدرها له أصدقاؤه في مديرية التربية عن أهليّته لمهنة التعليم.

كانت مديرية التربية في الحسكة، أي في عاصمة المحافظة بناء حديثاً في التصميم والأبواب والعمارة، ولكنها كانت متواضعة فيما عدا ذلك، وكان مدير التربية "كما سأعرفه عن قرب في الأيّام القادمة" رجلاً أرسله الحزب من محافظات الساحل، وكانت هذه هي كل مزاياه، وكان متحمّساً للحزب الحاكم بقيادة صلاح جديد، ولذا كافؤوه بالعمل مديراً للتربية،

وكان عليّ أن أتقدّم إليه بأوراق تعييني حتّى أعرف المدرسة التي سأكون من مُدرِّسيها.

بعد سكون روتيني في العمل، تلقّيتُ رسالة عبر مديرية التربية، تُخبرني بالاستعداد لتصحيح أوراق امتحانات الشهادة الثَّانويَّة، في مدينة حلب، أمّا زوجتي، فقد اختاروا لها مدرسة أخرى في دمشق، تُصحِّح فيها أوراق امتحان الإعدادية، وكان هذا الاختيار يعني امتداد إجارتها الصَّيفيَّة منذ الامتحانات، وحتّى تصحيح الإعدادية.

ثمّ استكمال الإجازة لباقي الصيف.

وكان الصدام الأوّل بين حسّي بالنزاهة، وبين سعي البعث إلى كسب الشَّعبيَّة، ولو على حساب النزاهة.

فقد كنتُ أُصحِّح أوراق امتحان الثَّانويَّة ضمن مجموعات من المُدرِّسين نشرب الشاي، ونضحك لأيّة نكتة يُلقيها علينا المُدرِّس الضخم الرأس الذي عرفتُهُ مرَّة في كُلّيّة التربية، وكان لقاء حارّاً قبل انشغال كل منّا في التصحيح المتعب، انقضت أيّام خمسة في التصحيح، وشرب الشاي مرَّة إثر مرَّة، الأمر الذي لم نكن قد اعتدناه من قبل، وفي صباح اليوم السادس، وقف رئيس لجان التصحيح عند رأس الطاولة، ليُخبرنا في اعتزاز بأن السّيّد الوزير، أي وزير التربية، سيأتي للسلام علينا، فهو مُدرِّس قديم، كان يُعلِّم العربية للسنوات العشر قبل الثورة، إلى أن قامت "الثورة المباركة"، فانضمّ إليها، وإذا بهم يختارونه وزيراً للتربية.

جاء وزير التربية الثّوريّ، وكان رجلاً نصفاً، أي في العقد الخامس من عمره، شرب الشاي معنا مُتلطِّفاً، رافعاً الكلفة، وبعد ثرثرات وتحيّات كسب فيها ودّ المُدرِّسين وتعاطفهم، طلب الاطّلاع على نتائج التصحيح،

فقدّم له رئيس لجان التصحيح ملفّ النتائج حتّى اليوم السادس في فخر غير خفيّ، فحمله، ومضى به إلى غرفة الإدارة، وطلب رئيس اللجان إلينا استكمال التصحيح، لم تمضِ دقائق حتّى انفتح باب مدير المدرسة، وخرج الوزير إلينا يرغي ويزبد، وكان الخطاب البعثي.

قال: أنتم وإن تخفَّيتُم، وتنكّرتُم، أعداء للثورة، أنتم تريدون القول: إن التعليم في زمن الثورة قد انحطّ وتراجع بدليل نسبة النجاح المتدنّية، كما قرّرتُم في تصحيحاتكم، وصرخ واحد من المُدرِّسين: وكم نسبة النجاح، يا سيادة الوزير؟ فردّ الوزير وما يزال على غضبه المجنون: ثلاثون في المئة، لم تتدنّ نسبة النجاح قبل وصولي إلى وزارة التربية عن خمسة وستّين بالمئة، ماذا تريد نسبتكم القول إلا أنكم أعداء للثورة، وقاطعه مُدرِّس عجوز ربّما كان في السنة الأخيرة له قبل الإحالة على التقاعد بهدوء: نحن نُصحّح وفقاً للتعليمات الواردة إلينا من الوزارة، نحن لم نخترع شيئاً، وهذا هو السّلّم الوارد إلينا من وزارتكم، ثمّ وبعد تنفّس سكن فيه اندفاعه، أضاف: وإذا ما أردتَ تسييس نسبة النجاح، فبإمكانكَ تغييرها حال إحالتها إلى الوزارة.

لم نكن نتوقّع من الوزير المهذّب، المفكّر كما سمّاه رئيس لجان التصحيح، هذا الهياج والغضب الذي انفجر به على المُدرِّس العجوز الذي لم يتسنّم يوماً منصباً ما، بل كان همّه التعليم، والتعليم الصحيح فقط، فلم يبتلع المُدرِّس العجوز كما سمّاه السّيّد الوزير الإهانة، بل ردّ عليه: أن التربية لا تخضع للسياسة ولا للتّملّق، وتملّق التلاميذ لن يفيد سوريا في شيء، وهجم رئيس لجان التصحيح، والذي سنكتشف فيما بعد أنه كان قد تقدّم إلى عضوية الحزب، وأنه كان مرشّحاً لمنصب معاون الوزير، فهو صديقه الوفي منذ كانا مُدرِّسَيْن معاً، هجم على المُدرِّس العجوز، فَأَصْمَتَهُ متظاهراً بتهدئته وإخراجه من قاعة التصحيح.

لم يخرج السّيّد وزير التربية من المدرسة إلا بعد تغيير النسبة إلى ستّ وستّين بالمئة، أي بزيادة واحد بالـ مئة عن السنة التي سبقت الثورة، وسبقت تسلّمه منصب وزارة التربية، وحمل معه نسخة موقّعة من قبَل ممثّلي المصحّحين حتّى لا يتمّ التلاعب بها، أو تغييرها بعد غياب السّيّد الوزير.

خرج وزير التربية من مبنى المدرسة التي كنّا نقوم فيها بالتصحيح شامخاً منتشياً بانتصاره على أعداء التّقدّم، وعملاء الرجعية، خرج يحمل ملفّ انتصاره، وخرجتُ أحمل الوشم الأوّل عن دولة المساواة والعدالة التي سأعيش فيها للأعوام القادمة، فردوس التزوير والرشوة.

كلّفني مدير التربية لاحقاً بتدريس ساعات في ثانوية "الوحدة" التابعة لكنيسة السريان الكاثوليك، وكانت تُدار من قبَل كاهن متحرّر جدّاً في حياته الشَّخصيَّة، فهو يلعب الورق، ويشرب الكحول، وإن لم يكن ليفعل ذلك في الأماكن العامّة. وفي تلك السنوات، ازداد عدد العوانس كثيراً في المدينة، لأن الذكور كانوا يرحلون إلى العاصمة، أو إلى المُدُن التي يوجد فيها مسيحيون كثيرون، وكانوا يتزوّجون من هاته الفتيات، ويعودون بهنّ إلى الحسكة، فمضى وفد من فتيات الحسكة، واشتكينَ إلى الكاهن، فغضب كثيراً لهجر الشّبّان من الحسكة لفتيات مدينتهم، ولكنه حين سأل الشّبّان يحاول المصالحة بين القدرة الاقتصادية لهم وبين العلاقة مع الكنيسة اعتذروا بعدم قدرتهم على الإنفاق على متطلّبات الزواج حسب التقليد الرّيفيّ في ماردين أو في طور عابدين، فالواجب على أهل العريس إقامة حفلات عشاء متعدّدة، تُذبح فيها الخرفان والعجول لكل مَنْ يحضر العرس، ولمّا كانت الأجور والرواتب أقلّ من هذا الترف، فقد فضّل الشّبّان العرسان الرحيل إلى الداخل، حيث لا يفرض عليهم هذا التقليد المنهك للعريس وعائلته لسنوات، يجب فيها على العريس وأهله سداد الديون

التي رتّبها عليهم الزفاف على الطريقة الطّوارنيّة "طور عابدين"، وتكون النتيجة أن العروس بعد الصبر الذي لا يبدو له نهاية أن تغضب وتهجر بيت الجوع إلى بيت أهلها.

صعد الكاهن إلى منصّة الكنيسة مخاطِباً الفتيات خاصّة، وقال لهنّ: كان التقليد السابق وجوب الحصول على موافقة الأب، قبل العقد، وأنا أعرض عليكم التالي: كل فتاة تطلب فتى، ويرغب في الزواج منها أن يأتيا إليّ دون موافقة من الأهل، فأعقد عليهما مباشرة، ثمّ يمضيان إلى شهر العسل، وبذا سنستعيد فتيان الحسكة ثانية إلى الحسكة، وتوقّف قليلاً يتذكّر: وأنا حين سأعقد على الشّابّ والفتاة منتويَي الزواج الشّرعيّ، لن أسأل الفتى أو الفتاة عن طائفته أو طائفتها، وهذا وعد من الكنيسة. انصرفوا الآن بحثاً عن الشريك. وكانت قبلات. وكانت فرحات. وكانت ضحكات. واستطاع ذلك الكاهن الذي ينتمي إلى أعرق العائلات المسيحية في الحسكة أن يجد حلاً لذلك المأزق الحضاري الذي علق فيه مسيحيّو الحسكة الكثيرون، وجد أهالي الشّبّان فيه مخرجاً من النفقات كاسرة الظهور.

في آخر العام الثاني، عرض عليّ مدير التربية أن أكون مدير قاعة الامتحان لطلّاب الشهادة الثّانويَّة، وقبلتُ دون إبداء ابتهاجي، فقد كان هذا الاختيار محرجاً لي بين زملائي المتقدّمين عنّي سنّاً وخبرة بالتعليم، ولكن المفاجأة كانت في قاعة الامتحان حين اكتشفتُ وجود ثلاثة طلّاب عراقيّيْن "بعثيّيْن ولا شكّ"، فلقد كان اهتمام مدير التربية بهم جليّاً، وكان العراقيون متقدّمين سنّاً عن زملائهم السّوريّيْن الذين كانوا إلى جوارهم يؤدّون الامتحان، وكان أحدهم يحمل مسدّساً ضايقه في الجلوس، ولكنه حافظ عليه بإزاحته إلى الأمام رغم تضايقه، وكنتُ أفكّر: هؤلاء العراقيون

ما الذي جاء بهم إلى الحسكة ليتقدّموا بامتحان الشهادة الثَّانويَّة، وليسوا من طلّابها؟! ولماذا يتلطّف مدير التربية، فيختار لهم المقاعد الخلفية في القاعة الكبيرة، والتي تحوي عدداً من المقاعد الخالية؟ ولعب فأر الشّكّ في صدري، فأحكمتُ الحصار والمراقبة عليهم حتّى ضاقوا بي ذرعاً، وكنتُ أتساءل في قلبي: لماذا اختارت وزارة التربية الحسكة مكاناً لأداء هؤلاء العراقيّيْن امتحان الثَّانويَّة علماً بأنهم لاجئون مفترضون من العراق إلى دمشق؟! وأخيراً تجرّأ واحد منهم، فأخرج ورقة كان يعدّها للغشّ في الامتحان، فقبضتُ عليه، واستدعيتُ المراقبين ومديري الامتحانات من الإدارة، ليشهدوا على محاولته الغشّ، وكانت فوضى واحتجاجات من الطّلّاب العراقيّيْن، جاء مدير التربية على إثرها، ونظر إليّ في لوم، ثمّ قال همساً: أهذا جزاؤنا أنْ قدّمناكَ على بقية المراقبين.

في اليوم التالي، فوجئتُ بقرار مدير التربية بنقلي إلى مدرسة أخرى مراقباً عاديَّاً لامتحان الثَّانويَّة.

بعد عدّة سنوات، تركتُ الحسكة فيها، وتركتُ فلسطين المتهوّدة "إسرائيل"، وعدتُ إلى دمشق، وكنتُ أجلس في مقهى الروضة أنتظر صديقاً حين دخل إلى المقهى رجل كهل متهالك، يلبس بذلة، يحاول فيها تنظيفاً وكَيَّاً بيتيَّاً، لجعلها تبدو أنيقة، فلمّا مرّ من أمامي، عرفتُ أني أعرفه، ولكني نسيتُ مَنْ هو، دخل إلى عمق المقهى، يبحث في الوجوه عمَّنْ يعرفه، فيدعوه إلى مجالسته، ولكنه اخترق المقهى طولاً وعرضاً، ولم يسلّم عليه أحد، وكان صديقي قد ارتمى على الكرسي المواجه محيِّياً، فلمّا اتّجه الكهل إلى باب الخروج، ومرّ من جانبنا سألتُ صديقي: أتعرف الرجل؟ فنظر إليه دون اكتراث، وقال: طبعاً، فلقد كان وزيراً للتربية زمن صلاح جديد، ثمّ اعتقلوه بعد "الحركة التّصحيحيّة التي قام بها حافظ

الأسد"، ولم يُطلقوا سراحه إلا بعد التّأكّد من مرضه مرضاً، سيأخذ روحه قريباً. نظرتُ إلى الكهل، أحاول استكشاف وزير التربية السابق فيه، ولكن الشيخوخة والثياب المبهدلة جعلتْني لا أتعرّف إليه، وكان قد وصل إلى باب الخروج من المقهى، ثمّ اختفى كذكرى مزعجة، وغاب في الزحام، ثمّ لم أسمع عنه من بعد.

العودة إلى الكتابة

في الحسكة، غرقتُ في العطالة العقلية، فقد تركتُ الترجمة والتأليف، أو تركاني، فمَنْ يبحث عن الترجمة في بلد كالحسكة، المحافظة التي نسيها البعث، وربّما نسيها الله نفسه! كنتُ قد تركت الكتابة المتنكّرة في الصحف، فَمَنْ ذا الذي يبحث عن مطاردات الأمن في بلد صغير مكشوف، ومَنْ يبحث عن شهرة في بلد كانت الشهرة فيه تساوي الفضيحة، كان ما يهمّني فقط هو الراتب الذي أُسيِّر به شؤون عائلتي الجديدة، وأُعيل أُمّي التي انتظرتْني لسنوات أُقيم ضعفها، وأُجبِّر كَسْرَها الذي أصابها منذ وفاة الوالد بعد أن جعل المحتالين يسلبونه كل مدّخراته، حين باع البستان الذي ظننّا أنه سيكون جنّتنا وملعبنا، ولكنه باعه دون أن يستشير أحداً، وأعطى ثمنه لمحتال من حلب أقنعه بأن تجارة الفستق الحلبي ربّما ضاعفت رأس ماله، ولكنه اختفى بعد قبضه المال، ولم يترك وراءه للعائلة إلا اسم حجّ أحمد لتطارده مطالبة بمالها.

بعد بضعة أسابيع من قدوم سميرة، لاحظتُ في نفسي أني صرتُ أصيخ في اهتمام إلى الحديث عن الزراعة في الحسكة التي لم يكن لأهلها من نشاط اقتصادي قبل التصنيع الزّراعيّ إلا الزراعة القريبة من ضفاف الخابور، ورعي الغنم، هذا العمل الذي أعطاهم اسمهم حين صار جيرانهم يدعونهم بـ (الشوايا)، والتي تعني رعاة الشاة، كان لتعلّقهم برعاية الغنم

أن أهملوا مئات آلاف الدونمات لرحمة الصحراء، وإلى قسوة رعاة الإبل من البدو القادرين على النجعة مع إبلهم القوية في الصحراء، وعبورها، ورعي الجزر الخضراء الواسعة فيها، والتي خلّفها المطر، وكان البدو من رعاة الإبل قد عجزوا عن زراعتها، لِكِبَر مساحتها الهائل بأدواتهم البسيطة والفقيرة، فانحصرت الزراعة في ضفاف الخابور، وبعيداً إلى الجنوب على ضفاف الفرات، حتّى قرّر بعض المغامرين من السريان الفارّين من تركيا، وكانوا قد هربوا من ماردين وديار بكر وأورفه وعين تاب، إلخ، خوفاً من القتل واغتصاب النساء، ونهب ما يملكون، فلقد رأوا من القتلى، والمذبوحات المغتصبات ممّنْ حولهم الكثير والكثيرات جدّاً، وقد سافر واحد منهم إلى الولايات المتّحدة، وأخذ في السؤال عن زراعة السهول الكبيرة البعيدة عن العمران، وعن الزراعة الممكننة المعتمدة على الآلة، وليست المعتمدة على الجهد البشري والحيواني لزراعة بضع دونمات، لا تكاد تكفي لطعام أهل البيت وكسائهم.

ثمّ أخذ ذلك الشّابّ المغامر في دراسة طَريقة الزراعة الممكننة "الآلية" في بلاد لم تزرع خارج حرم الخابور لأكثر من خمس مئة سنة هي عمر الغزوات المغولية والصّليبيّة، وربّما الصّفويّة لها، وكان قد قرأ لدى بعض المستشرقات والمستشرقين عن تحوّل الشعب الحضري في مُدُن الجزيرة رغماً إلى أنصاف رعاة إبل، ورجع الشّابّ المغامر من الولايات المتّحدة إلى الجزيرة ليبدأ جمع المال، والاقتراض من المصارف، وإقناع مَنْ يملك بعض المال في المشاركة بمشروع إحياء الجزيرة، وإعادة بناء المزارع هناك، وكانت القفزة الاقتصادية الكبرى حين طرق الباب عليه مضارب ثري من مهاجري ماردين، والذي أثرى بدوره من العمل في المضاربة في حلب، وبدأت صناعة الجنّة في الشمال السّوريّ، أي زراعة المساحات الكبيرة جدّاً، والمَرويّة حسناً بالمطر، ليبدأ الحُلْم في تغيير الطبيعة الوحشية، وجعلها مثمرة للعاملين فيها.

أعجبتْني الفكرة، فمضيتُ إلى ما كان يسمّى قرية "مبروكة"، وهي المركز الإداري والإسكاني للعاملين في المشروع، وأخذتُ أسأل وأستنصح الفلّاحين الجالسين إلى المقاهي الفقيرة في كل شيء، بمَنْ فيه الزبائن، ووقعتُ على كنز من الذكريات والتّنهّدات والأسف على ما وصلت إليه الأراضي بعد توزيعها على فقراء الرعاة، وصوّرت صوراً كثيرة للبيوت التي كانت مركز معيشتهم، وللمطعم الذي كانوا يأكلون فيه، ويحملون من مطبخه ما يكفي لعيالهم، وصوّرت بكاميرتي الرّوسيّة الصنع الصغيرة، بقايا السوق المركزية التي كانوا يتسوّقون منها حاجتهم من ثياب وأثاث بسيط، قبل ذلك الوقت، لم يكونوا في حاجة إلى السفر إلى القامشلي أو إلى الحسكة، ليشتروا ما كان في متناول أيديهم في السوق المركزية، وبثمن أرخص بما لا يقلّ عن الربع، ولم يكن عليهم الدفع نقداً، بل ببطاقات يعطونها كل مفتتح شهر بدلاً عن النقود، إلخ.

وهنا قرّرتُ أن أعود للكتابة والبحث، وتحرّك في داخلي الحسّ السينمائي الرّوائيّ الصّحفيّ، الذي خدّرتْهُ مهنة التدريس طويلاً برتابتها الرّوتينيّة، فعاجلتُ إلى مكتبي، وبدأتُ سَكْبَ وجوه هؤلاء المزارعين البارعين على صفحاتي البيضاء.

جمعتُ الموادّ الأساسية للكتاب، ثمّ تفرّغتُ لوضعه مزيَّناً بالصور، ثمّ حملتُ المخطوط، ومضيتُ به إلى بيروت قاصداً تقديمه إلى واحدة من دور النشر الشهيرة في بيروت، فوعدوني معجبين بالملخّص الذي قدّمته لهم بالرّدّ خلال أسابيع، وعدتُ إلى الحسكة، وعوّضتُ زوجتي التي انشغلتُ عنها بكثير من السيارين والفسح والأُمسيَّات في جزيرة القمر.

ولم أنتبه في حينها إلى أن أجهزة المخابرات العربية والمتطوِّعين للعمل معها كانت تتعاون بإخلاص ضدّ "المخرّبين والمتطرّفين" وكان هذا الاسم

يطلقونه على الشباب اليساري اللّيبراليّ من غير المنظّمين في أحزاب يعرفونها مثلي أنا، ولم أكن أعرف حتّى ذلك الحين أن مصير الكتاب قد أضعتُهُ بيَدَيّ حينما أرسلتُهُ إلى بيروت، وأنا مَنْ كتبتُهُ لفَضْح مَنْ يُسمّون أنفسهم بالاشتراكيّيْن البعثيّيْن، وإنما كانوا يسعون وراء الشَّعبيَّة الكاذبة، وهذا ما ستكشف الأيّام عنه.

الإصلاح الزّراعيّ على الطريقة البعثية

سمعتُ وأصغتُ إلى الأحاديث التي كان المزارعون يتبادلونها عن الخراب الذي حاق بتجربة أصفر ونجار ومعمار باشي في التصنيع الزّراعيّ في سوريا، وعن الإصلاح الزّراعيّ الذي دمّر التجربة الأولى في عصرنة الإقطاع، الذي مكّن الدولة السّوريّة لأربعين سنة من التفاخر بالميزان التّجاريّ الرابح للدولة السّوريّة نتيجة لبيع منتوجات الجزيرة في السوق العالمية، ولكن هذا الإصلاح الزّراعيّ الذي أنجزه البعث متفاخِراً، كان من نتائجه انسحاب المصنّعين الزراعيّيْن من سوريا مع ثرواتهم وخبراتهم خارج البلاد، حيث سعت كثير من الدول العربية لاستقدامهم، والاستفادة من خبرتهم، هذا الانسحاب سمح لمَنْ بقي في تلك الأراضي من غير الجادّين في التصنيع الزّراعيّ بالعمل في الزراعة، مغامرون لا يملكون من خبرة في الزراعة إلا القدرة على التّهرّب من ملاحقتهم قضائيّاً من المصرف الزّراعيّ، الذي أسّستْهُ الدولة.

فعند إفلاس الموسم، كان هؤلاء المغامرون الذين لم يكونوا يبتغون شيئاً من العمل في الزراعة غير الربح السريع الذي رأوه عند معمار باشي وأصفر ونجار سابقاً، يتفنّنون في التّهرّب من أقساط البنك الزّراعيّ الذي أنهكوه بالاقتراض الدائم، وقد حدث أن عاشرتُ بعضهم في أثناء لعب الورق والطاولة في ندوة المعلّمين.

وهكذا وزّعتْ الثورة البعثية، بعد تأميم تراب البلاد بكامله، الأراضي المستصلحة، على "المحظوظين" ممّنْ كانوا عمّالاً في تلك الأراضي، وكانت القسمة تبعاً لعدد أفراد الأسرة لكل محظوظ جديد، وبائس قديم منهم.

هؤلاء شكّلوا، بعد أن صاروا من ملّاك الأراضي الزراعية، طبقة صديقة لحزب البعث الحاكم، فهو "البعث" جعلهم من الملّاكين، وجعلهم يشعرون بالتّميّز على مَنْ لا يملكون أرضاً أو مالاً، ولكنهم يملكون الرغبة في الربح السريع.

وكان أن سمعتُهم يتحدّثون همساً في "ندوة المعلّمين" عن المغامرين الذين كانوا يسعون إلى وراثة شركات التصنيع الزّراعيّ في أراضي الزراعة الممكننة باستئجار تلك الدونمات التي وزّعها نظام البعث، ثمّ حملوا عقود التأجير إلى المصرف الزّراعيّ، فاستدانوا بِرَهْن الأراضي التي استأجروها ما يكفي لاستئجار التراكتورات والحرّاثات، الحصّادات، ودفع جزء من أجر الأراضي كسلفة، فإن كان الموسم طيّباً، صاروا من أصحاب الملايين، ودفعوا ما عليهم لمالكي الأراضي، وللمصرف الزّراعيّ، ومضوا زرافات ووحداناً إلى حلب، أو بيروت، فقضوا الصيف في مراقصها وبين نسائها الكريمات في لهوٍ، هو كل ما كان يهمّ هؤلاء المزارعين، ثمّ وفي نهاية الصيف، يعودون إلى الزوجة والأطفال في الحسكة، ليبدؤوا دورة الاستئجار، والرهن لدى المصرف، فيرهنون أرضاً، لا يملكون منها إلا عقد الإيجار، وإن كان الموسم سيِّئاً هربوا من الحسكة، وتركوا أصحاب الأراضي يواجهون موظّفي المصرف يطالبونهم بالدفعات التي آن أوانها، وكان هؤلاء المالكون لا يملكون إلا الرجاء بتأجيل دفع القرض، إلى أن يفرجها الله، وفرجها بأن صار الموسم الزّراعيّ الممكنن لعبة المغامرين، وليس عمل المخطّطين،

وبذا أخذ الموسم في التراجع رغم المواسم الطّيّبة، وبدأت سوريا في ظلّ البعث والتأميم في التراجع عن الدولة الزراعية الأولى في الشرق الأوسط، وعن الدولة المتميّزة في الصناعة النّسيجيّة، إلى الدولة الأولى في تطفيش أصحاب الرساميل.

الكتاب المفقود

كانت شهوري الأولى في الحسكة شهوراً بليدة، فكُتُب المركز الثقافي محدودة العدد والقيمة، ومدير المركز الثقافي البعثي كان يُتقن قواعد البقاء مديراً، بالإضافة إلى كونه عضوا في الحزب، فشغلتُ نفسي في وضع ملاحظات عن المقارنة بين الكيبوتز كحلّ اقتصادي اجتماعي لليهود في فلسطين يحاول تجاوُز أزمة الصّليبيّيْن الذي حين هُزموا في الحرب، اضطرّوا إلى الرحيل عن فلسطين بكاملها، وبين قرية مبروكة الحلّ السّوريّ لمشكلة التّخلّف حتّى في الزراعة.

سافرتُ عدّة مرّات إلى القرية المنشودة، وانشغلتُ في جمع الشهادات من الفلاّحين، ثمّ ما لبثت الملاحظات الشَّخصيَّة أن تحوّلتُ إلى كتاب، باشرتُ بكتابته كما ذكرتُ بعد عنونته "بين تجربة التصنيع الزّراعيّ في شمال سوريا والكيبوتز الإسرائيلي في فلسطين".

وفي الصفحة الثالثة، وضعتُ عنواناً يفسّر العنوان الأعلى، قرية مبروكة وتأثيرها الاجتماعي والاقتصادي على سوريا مقارنةً بتجربة الكيبوتز الإسرائيلي، ثمّ وضعتُ تفسيراً للعنوان "معمار باشي، وأصفر ونجار، والحلّ السّوريّ لمشكلة التّخلّف الزّراعيّ".

وطبعاً لسبب ما، لم أستطع الإفادة من مدير المركز الثّقافيّ الذي كان همّه كتابة التقارير عن نشاط المركز السّياسيّ إلى وزارة الثقافة في دمشق،

ولمّا لم أكن أحد المشمولين في تقريره، فقد شغلتُ نفسي بكتابة مسوّدة كتابي معاكِساً لأفكار الرفاق البعثيّيْن الذين كانوا يكتبون محاضراتهم عن: تجربة أصفر ونجار ومعمار باشي "وامتصاصهما لدم الفلّاح السّوريّ".

وكان هذا الامتصاص لدم الفلّاح السّوريّ غير الموجود أصلاً موضوع محاضرات أُلقيت في المركز الثّقافيّ العربي من محاضرين بعثيّيْن، وتُلقى على مستمعين بعثيّيْن، لا هَمّ لهم إلا التصفيق المحموم عند كل وقفة يقفها المحاضر، كان مدير المركز لا يكترث، ولا يهتمّ إلا بالمحاضرات السّياسيّة التي يصرّ على وجودها ضمن تقريره المُرسَل إلى وزارة الثقافة، وهي في معظمها إشادة بالحزب القائد ومنجزاته، وكان على المسجّلين أعضاء في الحزب الحضور، وسيتأكّد مدير المركز من حضورهم عبر دفتر سرّيٍّ لتفقّد الحضور والغائبين.

انقضت السنة الدّراسيّة دون مشاكل روحية، أو مسلكية، وقبيل نهاية العام، كنتُ قد اتّفقتُ مع دار نشر لبنانية على نشر المخطوط الذي وضعتُهُ عن تجربة التصنيع الزّراعيّ في سوريا.

بعد انتهائي من العقد والموافقة على غلاف الكتاب، وإرسالي إلى دار النشر بنسختي من العقد الموقّعة، شعرتُ بسعادة كبيرة وشوق الانتظار إلى نسخ الكتاب الأوّل الذي جهدتُ في كتابته.

في الشهر التالي من بدء العام الدراسي الجديد، وصلتْني رسالة الاعتذار من دار النشر عن طبع كتاب"التصنيع الزّراعيّ في شمال سوريا وتجربة قرية مبروكة" بعد تغيير العنوان، وسأفهم من إشارات الناشر في الرسالة أن ضغوطاً لا قبَل له بها مُورستْ عليه، ولم يكن قادراً على صَدِّها، وسيرسل إليّ بالمخطوط في البريد متمنّياً تعاوننا في المستقبل إلى آخر

الثرثرات المُهدِّئة للغضب، وطبعاً لم يصلْني المخطوط رغم مكاتباتي وسؤالي عنه، وكان علي أن أكتب إليهم بأن يحتفظوا به، إلى أن أصل اليهم، فأستلمه منهم، وجاء الرّدّ من سكرتيرة مدير الدار مختصراً جدّاً: أن المخطوط قد أُرسل إليّ منذ أسبوع. وأُصبتُ بالكآبة، فالمخطوط المفقود هو المخطوط المبيّض الوحيد، والذي جمعتُ فيه الإحصائيات من كُتُب، استحضرتُها من مكتبات دمشق وبيروت، وباللُّغَتَيْن الإنكليزية والفرنسية، وباللغة العربية البعثية الهوى، ولطالما سمعتُ عن البريد السّوريّ وضياع الرسائل قبل وصولها إلى صاحبها، وعن الرقابة الأمنية الصارمة على البريد، واحتجازها الرسائل التي من الممكن أن تُسيء إلى ثورتنا المباركة.

الإغراء بالتّخلّي عن منفى الحسكة والاتّجاه إلى العسكرية

كانت المصادفة الثانية التي قذفتْ بي إلى هذا المصير الدعوة المُوجَّهة إليّ في أثناء امتحانات الإعدادية ومراقبة سَيْرها العامّ، وكانت الرسالة تُبلِّغني أنهم قد اختاروني للعمل في تصحيح أوراق الامتحانات الإعدادية، وأن عليّ الالتحاق بمدرسة جودت الهاشمي في دمشق. وانتظرتُ نهاية الامتحانات، لأسافر مع زوجتي إلى دمشق يوم الأربعاء، وكنّا في حاجة إلى يومَي سفر، نقضي ليلتنا الأولى منهما في فندق في حلب، فالطريق من دمشق إلى الحسكة أو بالعكس كان يمرّ بحلب، وعلينا النوم ليلتنا تلك في المدينة، كان امتناع الحكومات المتتالية عن شقّ طريق دمشق دير الزور نوعاً من تعويض على التّجّار الحلبيّيْن الذين خسروا ريفهم الذي ضُمّ إلى تركيا رغماً عن رغبات السّوريّيْن، واستمرّت القطيعة بين دمشق وبين دير الزور برّاً عقوداً، تُرك فيها تجّار حلب يسعون إلى تعويض مينائهم في الإسكندرونة.

كانت حلب مدينة جميلة، يحبّها ويهتمّ بمصالحها مَنْ يحكمها، أكان من أبنائها، أم من المحافظات الأخرى، تجوّلْنا فيها لساعَتَيْن، وتعشَّيْنا في مطعم عريق جميل، قبل أن نعود إلى الفندق لننام، وكانت سعادة زوجتي باكتشاف حلب مشوبة بآلام جسدية خفيفة، لم تلبث أن تزايدت. ولمّا كانت حاملاً للمرَّة الثانية بعد إسقاط الأوّل، فقد خفتُ عليها من الإجهاض كما السابق، واتّفقْنا على زيارة طبيب الأمراض النّسائيّة في الصباح التالي، أمّا هي، فقد تناولتْ على عادتها حبّة (فاليوم)، لتُجبر نفسها على النوم.

في الصباح، اكتشفْنا زوال الألم وزوال الرغبة في الإقياء، وأفطرْنا في مطعم الفندق إفطاراً غنيَّاً، فلربّما لن نستطيع تناول الطعام في الاستراحات على الطريق لقذارتها، وسوء إعداد الطعام فيها.

اشترينْا زجاجَتَي ماء، جرّبتُ فتحهما قبل الشراء، فلم ينفتحا، فاطمأننتُ حين لم ينفتحا إلى أنهما لم تملآ من الحنفية، كما فعلوا معي في المرَّة الماضية، وحين أمنتُ الغشّ، كنتُ أفكّر في السبب الذي يجعل بائعاً يغشّ ماء الشرب، فاكتشفتُ ألا مانع لدى البائع العربي من غشّ لن يكسب منه إلا القروش، فالقروش خير من لا شيء، وبهدوء تذكّرتُ سؤالي لناطور البناية، حيث كنتُ أسكن في دمشق، وسؤالي له: هل يمكن لعاقل سرقة حذاء مستعمَل، أو سرقة ماء زجاجة ثمنها قروش؟! هل يستحقّ غشٌّ كهذه القيمة المنخفضة، السرقة؟!

فأجاب في بساطة: "وشو رسمالها عليه؟!". ثمّ أضاف في لا مبالاة: "كله ربح، ونيال اللي شريكه حنفيّة". فما رأس مال ماء الحنفية؟

فكل ما سيحصل عليه ربح فقط.

كان هذا هو القانون لدى هؤلاء البؤساء، رأس المال الشحيح، والتّربّح منه، ويا لحظّ مَنْ كان شريكاً للصنبور! ويا لبؤس مَنْ كانت الخسارة من رأس ماله! أي أن الخسارة كانت من صلب رأس ماله. واشترينْا ساندويشَيْن زاداً للطريق، ففي الاستراحَتَيْن على الطريق سيستغلّون حاجتكَ وجوعكَ، فيبيعونكَ الزبالة. وبينما كنتُ أعطي المعاون الحقيبَتَيْن، ليضعهما في مستودع الباص، كنتُ أفكّر: أين الدولة والرأسمالية الوطنية، يتساعدان في تقديم الخدمات للمواطنين؟

لاحقاً عند تقديم نفسي لرئيس لجان التصحيح في ثانوية جودة

الهاشمي في دمشق، فوجئتُ بوجود الأستاذ "سعيد"، وهو زميل كان يدرّس في الحسكة أيضاً، ينتظر فرزه إلى لجنة تصحيح ما، وكان الحظّ في اختياره معي في اللجنة نفسها، كان لطيفاً حين أصرّ بعد يومَيْن على دعوتي إلى الغداء مع الزملاء من الحسكة، واعتذرتُ بأن زوجتي تنتظرني على الغداء، ولكنه قال في لطف: إن مجموعة من مُدرِّسي الحسكة المغتربين في دمشق يتمنّون وجودكَ معهم على الغداء، وأنه قد حدث الأستاذ حسّان عن كتاب لي، لم يصدر بعد في بيروت، يتحدّث عن تجربة معمار باشي وأصفر ونجار في إعجاب مخالف للسائد المفروض على الدولة السّوريّة، وكان الأستاذ حسّان منذ حدّثتُهُ عن الكتاب، وهو يتمنّى التّعرّف إليكَ لمناقشة أفكاركَ المطروحة فيه، وسألتُ في مفاجأة وجدّ: هل صديقكَ شيوعي؟ ولكنه أنكر معرفته بآراء الصديق السّياسيّة، وصَمَتُّ أفكّر، فقد كنتُ سعيداً في معتزل الحسكة، حيث لا صحافة ولا مدافعين عن التأميم، ولكنْ، ها هم يطاردونكَ حتّى إلى دمشق، لكن الأستاذ سعيد الذي جدّد معرفته بي، انقضّ عليّ في مفاجأة أربكتْني بقوله: إنه يعرف أن اعتذاري بأن زوجتي تنتظرني على الغداء لا يعني إلا التّنصّل من الغداء مع المجموعة، فالزوجة مُدرِّسة وعاملة، ولن تنتظركَ على الطعام، وبعد محاولات اعتذار وإِصرار منه على انضمامي إليهم، استسلمتُ، واتّصلتُ بزوجتي هاتفيَّاً، أشرح لها سبب غيابي.

وكان غداء أصدقاء يشعرون بوحشة المدينة الجديدة عليهم والجديدين عليها، ويتغلّبون على الوحشة بالضحك العالي، كانت محاولة فاشلة من معادي التأميم ورافضي مساوئه في بلد يحكمه حزب شبه أُمّي يقلّد الاشتراكيات العالمية بينما يخضع لعسكر انقلابيّيْن يديرون مشاريعه وأفكاره، وحين احتدّ النقاش القائم على جدل قبلي "فالحزب في معظم أفكاره" كان حزباً "عشائريَّاً" لا يهتمّ للأفكار "الطّوباويّة" كما سمّوها، ويرفض

الرأي المضادّ لهذه الأسباب، إلا أن الرأي المعادي للتأميم وتوزيع الأراضي على فقراء الفلّاحين لم يُوزِّع عليهم ما يُحوِّلهم إلى ملّاك أراض، ولكن حسّان، وهو من محافظات الداخل، ورغم أنه مُدرِّس للموادّ الدّينيّة، إلا أنه في فكره كان معادياً للتأميم الذي يفتّت الملكيات الزراعية، ويُوزِّعها على ملّاك، لا يعرفون الزراعة أصلاً، ووجدتُني أنجذب إليه، فهذا مَنْ يمكن الاعتماد عليه في تغيير العقل السّوريّ الذي يبيع ماء الحنفيات في زجاجات فارغة مشروبة.

على طريق العودة، تغيّر حظّي للسنوات القادمة، أمّا كيف تمّ هذا، فلقد تكشَّف صديقي "سعيد" من الحسكة الجالس أمامي في التاكسي العائد بنا من منتزه دمّر حين عرض عليّ التّقدّم إلى مديرية التجنيد بطلب إلغاء تأجيل خدمتنا العسكرية، وعن استعدادنا للتنازل عن التأجيل، والمضي إلى خدمة العلم حالاً، وبذا نفيد من دمج سنوات الجندية مع سنوات التدريس المفروضة علينا كمُدرِّسين في العمل في محافظة نائية، وأضاف يحمّسني، فتحمّستُ: وحين تنتهي خدمتنا العسكرية، ستكون سنوات الاغتراب في الحسكة قد انقضت متضمَّنة في العسكرية، فجمعنا العبئَيْن في عبء واحد.

أعجبتْني الفكرة، فلقد ضقتُ بندوة المعلّمين، ولعب الورق، والطاولة، والتدخين، وشرب الكحول، والثرثرة في هذه المدينة التي سئمتُ من جمال الريف فيها، وحتّى جمال جزيرة القمر، وأسميتُها لنفسي بعد استرجاعي للحياة فيها بالمدينة المستنقع التي تسحب الإنسان رويداً رويداً نحو قاع اللانهاية من المتع.

في اليوم التالي، مضيتُ إلى مديرية التجنيد بصحبة العارف بمكانها "سعيد"، وقدّمْنا طلباً لإلغاء تأجيلنا، فنحن نرغب في خدمة العَلَم، وأداء واجبنا في سبيل الوطن، إلخ، إلخ.

طلبوا منّا مراجعة المديرية في الأسبوع القادم، لعلّ بالإمكان إلحاقنا بالدورة الجديدة، وكان ما اتّفقنا عليه حسب التوقيت المطلوب، ووجدنا طلبنا ممهوراً بالموافقة على الالتحاق بالدورة العسكرية الجديدة، طلب منّا الالتحاق بثكنة هنانو في حلب، أمّا سعيد الزميل الذي حرّضني على مزج الخدمَتَيْن الشّاقّتَيْن في خدمة عسكرية واحدة، فقد اختفى، وحين سألتُ عن مصيره بعد مضيي إلى حلب للالتحاق بالخدمة العسكرية، اكتشفتُ أنهم بعد أن فحصوه طبّيّاً أعفوه من الخدمة الميدانية، لقصور في النظر، وألحقوه بالخدمة الثابتة، وهي في حالته "الخدمة المكتبية".

مدرسة هنانو

في مدرسة هنانو بحلب التي كان الجامعيون المسوقون إلى الخدمة العسكرية ينتظرون فيها تقرير مصيرهم متوتّرين إلى أقصى حدود التّوتّر، فهم لا يثقون في الساعة التالية وما ستحمل لهم من مفاجآت، خاصّة وهم قد رأوا بعض زملائهم ممّنْ لم يقضِ يوماً كاملاً في المدرسة أبدًا، بل كان يتقدّم بأوراقه إلى عقيد المدرسة، ثمّ يختفي.

ولم يزعج الطّلّابُ أدمغَتَهم في البحث عن تفسير، فقد كفاهم عن هذا زملاؤهم "العارفون" بخفايا ما يجري، وأن الواسطة قد تدخّلت لإراحتهم من روائح الجوارب الكريهة في القاووش المُعَدّ للطّلّاب المستجدّين، وكفَتْهم الواسطة من أكل الخبيصة التي يسمّونها خضاراً.

البعض من الصامتين كانوا يعرفون مصيرهم الذي وعدهم به (القادرون)، ويعلمون كيف سيتشكّل في الساعات التالية، وإلى أيّ الوحدات العسكرية القريبة من بيوتهم سينتمون.

وكانت الكثرة الكاثرة ممّنْ أرّقوا لا يعرفون شيئاً عن مستقبلهم للسَّنَتَيْن

القادمَتَيْن، وربّما عن سنوات العمر الباقية لهم كلها، فليس لديهم واسطة، تختار لهم الأفضل في خدمتهم العسكرية القادمة، وليس لديهم مَنْ سيُجبر العقيد على الوقوف على المنصّة يقرأ أسماء الموصى بهم من"أهل ضيعتنا" أو ممّنْ كان صديقاً أو معارف أهل ضيعتنا.

كانت النقاشات تتحوّل بعد العشاء رغم محاولة الكثيرين البُعد عمّا ستُسبِّب لنا المعرفة من إحساس بالضَّعَة والنَّبْذ المرغوبَيْن من حزب البعث، كما عرفْنا بعد المرور بأصحاب القرار، ولكن الحوار كان يؤول دائماً إلى المصير المقدّر للطّلّاب المتبقّين في مدرسة هنانو بعد انتقاء الموصى بهم، أي الموثوقين ممّنْ تقدّموا بطلب إلى حزب البعث للقبول كأعضاء في الحزب، ولم يُستجَبْ لطلبهم حتّى الآن، فهم ما يزالون تحت الدراسة، وهناك الموثوقون جدّاً، أي الحزبيّيْن "أي البعثيّيْن" فقد تغيّر معنى كلمة حزبيّيْن من مهتمّين بسياسة البلد، إلى المنتمين إلى حزب البعث، وكان مصير الطّلّاب كسيري الظهر والحزب هو مدرسة المشاة مقبرة عديمي الوساطة.

في مدرسة هنانو، بدأتْ رحلة العذاب السّوريّ، في خطابات مدير المدرسة، وإحضار فلسطين إلى الواجهة من عقولنا، إغفال سوريا ومشاكلها عن الخطابات والتفكير، وفي الاشتباك مع العدوّ الصّهيونيّ في حواراتنا، وفي أحلامنا، وفي محاضرات التثقيف المفروضة علينا كل يوم في انتظار الفرز والالتحاق بالسلاح المختار.

كانت دورة التدريب العسكري مفروضة قانوناً منذ الاستقلال على المجنّدين الجامعيّيْن الجدد كلهم، تفرِض علينا قضاء نصف العام في مدرسة عسكرية، نتعلّم فيها حياة الثكنات، والانضباط المطلوب من الجندي، ونصفها الثاني في التّدرّب على السلاح الذي سنتخرّج

حاملي اسمه، وهكذا كان علينا قضاء نصف السنة المعهودة بدءاً في ثكنة في حلب للتّدرّب على "النظام المنضمّ" أي الانضباط، والتّحيّات للأقدم في الخدمة حتّى لو كان صورة مجسّدة للحُمْق والغباء، وكان علينا أيضاً الاحتباس في الثكنة للتّدرّب على الانفصال عن الحياة المَدَنيَّة.

فترة عجيبة تلك التي اكتشفتُ فيها سوريا التي لا أعرفها، سوريا الأخرى، سوريا الريف المظلوم حقّاً الذي ما انقلب فيها البعث على الحكم "البورجوازي العفن" إلا سعياً وراء إنصاف البعثيّيْن الريفيّيْن من أهلهم المظلومين، وكانوا حسبما خبرتُ مظلومين جدّاً، فهي سوريا المهجورة من أبنائها الحاكمين بالانقلاب العسكري، ولا يملكون من فكر سياسي إلا تحصيل الضرائب "الجِزْيَة القَسْرِيَّة" الموروثة عن المماليك العسكريّيْن دون فكر على الإطلاق.

في اليوم الرابع لإقامتنا في مدرسة هنانو، تعرّفْنا على الجوهر الحقيقي للدولة العسكرية المملوكية السّوريّة حين وقف مساعد مدير المدرسة يحمل ورقة عليها أسماء طلب من أصحابها الانفصال عنّا، والاقتراب من قدس أقداس القيادة العسكرية، وانتقلت الهمسات من الطّلّاب تقول: تواصي!

وانسحب الموصى بهم من الصفوف في شموخ، فلقد صدق الواعدون فيما وعدوا. وما إن انصرف الموصى بهم إلى حيث السَّيَّارات تنتظرهم حتّى تقدّم مساعد المدير يحمل قائمة من أسماء المحظوظين الذين لم نكن عارفين بمدى حظّهم بعد، وصرخ: على الحزبيّيْن التّقدّم بعيداً عن بقية الطّلّاب". وطبعاً قصد بالحزبيّيْن "البعثيّيْن" فقط، وخرج ما يقارب النصف من بين طلّاب الضّبّاط المختارين. ثمّ انصرف مدير المدرسة ومعاونه، فقد انتصف النهار، وآن لهم أن يرتاحوا.

في اليوم التالي، وبعد التمارين الصعبة لرياضة الصباح، طلبوا منّا الاصطفاف ثانية، واصطففْنا، فتقدّم مساعد في المدرسة يحمل قائمة على ورق، وطلب منّا أن يخرج عن الصّفّ كل مَنْ يسمع النداء باسمه، وقال ساخرٌ من صفوفنا، وهو مَنْ سيصبح قائد شرطة العاصمة: تواصي من الدرجة الثانية. وكانوا كما وصف، إذ قرأ المساعد أسماء كثيرة، طلب منهم أن يتّجهوا إلى الباص المنتظر أمام المدرسة.

تلفَّتْنا من حولنا نعدّ مَنْ تبقّى، وكانوا بالعشرات التي تقلّ عن المائة، فقالوا لهم استرح، فاستراحوا، وقلتُ لنفسي: فعلها سعيد "الخدمة الثابتة"، وتساءلتُ: إلى أين المصير؟

وما نهاية هذه الدُّوِّيخة؟

انقضت أيّام خمسة، كنّا نبدؤها بالرياضة القاسية على عضلاتنا الكسلى والغداء الجماعي لا نعرف له طعماً، ويوماً إثر يوم، وكنّا نشعر بالهجر، نحن مَنْ ليس لنا مَنْ يعرف لنا اسماً، فيطلبنا به، لنعرف أين ستكون نهايتنا، وكان بيننا ساخرون يسخرون من مآلاتنا، إذ ليس لنا من نهاية إلا مدرسة المشاة خزّان البسطاء، مَنْ ليس لهم مَنْ يرشّحهم إلى خير، وهم مَنْ يقضون الدورة في المشي وتعلّم فكّ وتركيب البندقية، إنهم مَنْ ليس لهم ظهر، فهم يمشون على بطونهم، إنهم تراب الأرض وأبناء البلد.

في اليوم التالي، قالوا لنا أن نستعدّ، فهناك شخص مهمّ سوف يأتي لاختيار نخبة أخرى من بيننا، وتعلّقْنا بهذا الأمل، فهذا الرجل الذي لا يعرفه أحد المهجورين خير مَنْ تركنا للتَّعفُّن، ننتظر من لا يهتمّ ولا يكترث لمصيرنا، وكان الاحتكاك الأوّل بين مواطن عادي لا يحمل إلا هويته، وقيادة عسكرية لا تكترث إلا لمجموعتها وعصبيتها، وبين أصحاب الحظوة.

وفي الصباح التالي، شهدْنا التواء عنيفاً جدًّاً في تقاليد الخدمة العسكرية التي كنّا نسمع عنها، ونسمع عن تقدّمها على كل شيء خارج الجيش، ألا وهي التّراتبيّة والتّحيّة لمَنْ يتقدّمكَ رتبة، والطاعة العمياء:

افتتح العقيد مدير مدرسة هنانو النهار، وهو رجل كما عرفنا من مدينة حلب، سعيد بوجوده في حلب، حيث يحسّ باحترام الناس والجوار لبدلته العسكرية، ولقبّعته ذات النسر، وهو رجل يحرص على القدوم إلى المدرسة في بدلة نظيفة مَكوِيَّة، وذقن حليقة تماماً، ويحرص على شكليات التّحيّة والاحترام بين الرتبة الأدنى والرتبة الأعلى، إلخ، وهمس الساخر من شلّتنا أنه سيزفّ إلينا خبر ترحيلنا جميعاً إلى مدرسة المشاة التي نناسبها، وتناسبنا مناسبة القَدَم للحذاء، وانفجرْنا في ضحك مكتوم، ضحك مَنْ لا حول لهم ولا قوّة، ولكن مدير المدرسة ما زاد عن رمقنا في لوم شديد، ولم يجرؤ على توبيخنا، كان من الواضح أنه ينتظر شيئاً خطيراً، فقد كانت خطبته متقطّعة بنظره المخطوف إلى باب المدرسة، وكأنه ينتظر أحداً لم يُخلِف توقّعاته، فلقد اندفع إلى ساحة المدرسة عدد من الجند، شكّلوا بسرعة حرس شرف منظَّماً، يُؤطِّر المدخل، وبعد ثوانٍ، كان مدير المدرسة فيها متوتّراً، ينظر إلى الباب في رجاء وترقّب، ولم نخلف ظنّ المترقّبين، فقد أُصبْنا جميعاً بالحَوَل من شدّة مراقبتنا للباب، ننتظر ظهوراً ما لشخص خطير ما.

فجأة توتّرت فرقة الشرف المنتظرة حين أخذتْ خطوات تُدوّي في المدخل الذي انفتح عن رجل رَبْعَة، أقرب إلى القصر في ثياب عادية من قميص صيفي أسود، وبنطلون رمادي، وشَعْر ممشَّط إلى الخلف حسب الموضة، وهتف كبير الحَرَس (استـ ااااعد)، وضربتْ عشرات من الأقدام العسكرية الأرض، فساد الصمت العسكري المرعب، وتقدّم سيادة العقيد مدير المدرسةُ شبه قافز، فسار باتّجاه الرجل القصير، وضرب الأرض بقَدَمه، يحيّيه،

ثمّ استدار إلى حيث كان في مواجهة الطّلّاب المستجدّين "نحن"، وقدّم الصّفّ إلى سيادة الرائد، ثمّ قدّم إلى الطّلّاب "نحن" الضيف الكبير الرائد علي دوبا، الذي تكلّف وتفضّل بالقدوم إلى مدرسة هنانو، لينتقي الطّلّاب المناسبين للمعركة القادمة مع العدوّ الصّهيونيّ. وكانت دهشة الحاضرين من الطّلّاب كبيرة، ولكن حَرَسَ الشرف الذين كانوا في استقبال السّيّد الرائد أجبرتْنا على الصمت، واحترام اللحظة الجليلة، أمّا ما أذهل الفُهماء منّا، فهو أن العقيد الذي يُفترَض أنه الأقدم، إذا به يُقدِّم الصّفّ إلى الرائد في الثياب المَدَنيَّة، فيردّ الرائد التّحيّة بضرب حذاءَيْه في احترام، ثمّ يتّجه العقيد إلى المنبر، فيُحدِّق فينا في تفحّص، ويُصدِر إلينا عبر الميكروفون: استاعد، فنستعدّ بضرب الأرض بأقدام، قَسَّتْهَا الأحذية العسكرية، ويهمس سيادة الرائد قريباً من سيادة العقيد، فيلتفت إلى مساعد، لم يلفت نظرنا من قبل، وقال المساعد: الطّلّاب المستجدّون يقفون في حالة استعداد، إلى أن ينتقي سيادة الرائد مَنْ يختار المناسبين منهم.

تقدّم المساعد الطويل أكثر ممّا يجب إلى الصّفّ الأوّل منّا، ثمّ تقدّمه سيادة الرائد، فأخذ في تفحّص الطّلّاب طولاً وعرضاً ووقفة، ولاحظتُ مزاجية اختياراته واستجابة المساعد لهمساته، فقد كان يتفحّص الطّلّاب طولاً وعضلات ووقفة، إلخ، ثمّ يهمس مخاطباً المساعد، فيسأل الطالب عن اسمه، ويُقيِّده عنده في الكشف الذي يحمله، وكان يتجاوز الكثيرين ممّنْ لم يثيروا شهيّته للاختيار، وبهدوء تشكَّل في أعماقي حسّ العبيد يصطفّون أمام النّخّاس، ينتقي المناسب منهم، كانت هذه الاختبارات والقياسات تتمّ دون لمسه باليد، ولولا قليل حياء، لطلب من الطالب المختار أن يعضَّ شيئاً ما أمامه، ليعرف قوّة أسنانه.

انقضى ما يقارب الساعة، وهو ينتقي ويتفحّص حتّى اقترب منّي،

ويبدو أني أعجبتُهُ من النظرة الأولى التي رمقَني بها، إذ سمعته يهمس وهو يتجاوزني طالباً من المساعد أن يكتب اسمي، فيسألني المساعد عن اسمي، ويكتبه، وفجأة وكأن ثعباناً لدغ سيادة الرائد، فجعله يلتفت من الصّفّ التالي حيث وصل، ويتنازل، فيسألني عن اسمي، وحين أجبتُهُ رأيتُ نظرة الكراهية تقفز إلى وجهه وهو يطلب من المساعد: امحي اسمه، امحي، ويتابع تفحّصه للطّلّاب المختارين دون اكتراث بالجرح الذي تركه في نفسي، والذي كان كما يبدو متعمّداً، ولو لم يرد الجرح المتعمّد، فلم يكن أسهل عليه من حمل القوائم معه إلى المكتب أو إلى البيت، ثمّ محو الأسماء التي لا يرضى عنها بعيداً عن عيون الممحو اسمه، ولكن المقصود كان الإهانة والجرح، ولم يبال.

اللواء غبرييل بيطار

انقضى يومان من اشمئزاز، وملل، وتدريب رياضي، وملل من رتابة، لا تحمل معها إلا السأم والاشمئزاز من هذا الوضع الذي أوجدتُهُ لنفسي، ثمّ تسرّب إليّ بعد الإفطار همس بين زميلَيْن، كانا يفطران أن اللواء بيطار سيأتي إلينا اليوم، ولم أعرف السبب. ولكنْ، حين أعلن سيادة العقيد في مدرسة هنانو اجتماع الطّلّاب، ثمّ قرأ علينا المنشور المُرسَل من قبَل الأركان العامّة عن تقدُّم حاملي الإجازة الجامعية في اللغة الإنكليزية أو الفرنسية لاختيار الجيِّد منهم ضابط ارتباط مع قوّات الإيسماك، وحين سألتُ في سذاجة عن ما يقصد بكلمة إيسماك، أجابني أحدهم في لهجة المعلم إنها كلمة إنكليزية، وهي الحروف الأولى من الكلمة الغربية هيئة فصل القوّات الإسرائيلية عن السّوريّة، وهي منبثقة عن الأُمم المتّحدة.

وأخذ الوقت يمرّ بطيئاً وخرّيجو الجامعات في اختصاص اللغتَيْن الإنكليزية أو الفرنسية يتقدّمون بالامتحان الشّفويّ، فيُقبل البعض منهم،

ويُصرف النظر عن البعض الآخر، وإذا بالأسماء المطروحة للامتحان تنتهي، واللواء بيطار لم يحصل على الضّروريّ من المرشّحين للخدمة ضبّاط ارتباط مع العاملين حرّاساً للهدنة بين السّوريّيْن والإسرائيليّيْن.

انتهى "المعروض" من خرّيجي الاختصاصَيْن الإنكليزي والفرنسي، ولم يستوفِ العدد المطلوب، وإذا باللواء نفسه يخرج، فيقف الجميع إمّا احتراماً لرتبته، وإمّا استجابة لوكزة من زميل نبّهه إلى خروج اللواء، ليقدّم رأيه ورؤيته فيمَنْ سيكون السعيد في اختياره له، وفي النجاة من خزانة المونة في القبو العتم المسمّى كُلّيّة المشاة.

فبعد الحماسة لمعرفة ما الذي سينتج عن هذا الانتقاء، عاد الخمود ثانية والإحساس بتساوي كل شيء، فتفرّقْنا مجموعات، نتساءل عمّا ستحدّده لنا أقدار حزب البعث ومخابراته. حين رأينا المساعد القادم مع سيادة اللواء، ليقف في المكان الذي شغله قبل أيّام عقيد مدرسة هنانو، لم يبالِ اللواء بوقفتنا واستعدادنا، إذ قال: مَنْ يعرف في نفسه الكفاءة للقيام بدور الارتباط بين القادمين إلى سوريا، ليراقبوا الهدنة. ممّنْ يخترقها إن اختُرقت، فليتقدّم إلى الأمام خطوَتَيْن.

تقدّم بعض الشجعان على حذر، وفكّرتُ قليلاً: لمَ التّردّد والتظاهر بالجهل الذي عشتُ فيه في الحسكة؟! تقدّمْ، يا رجل. دعهم يعرفونكَ، وتقدّمتُ.

وانطلقت صرخات السخرية المحذِّرة من الأصدقاء الذين حوّلتْهم الإقامة في مدرسة هنانو إلى أصدقاء يحذِّرونني شبه هامسين: لا تفضحْنا، أبو الخير، من شان الله، لا تُحاوِلْ. ولكني أصممتُ أُذُنيّ عنهم، ووقفتُ في الصّفّ المُتقدِّم، وصمت الجميع حين أشار اللواء إليهم بالصمت، وقال للمساعد: أدخلْهم عليّ بالدور.

ودخلوا واحداً واحداً، وكانوا يخرجون مختلفي المظهر، فمنهم مَنْ خرج يهنِّئ نفسه، ومنهم مَنْ خرج إلى الصّفّ القديم، أو إلى الحمّامات، يبتعد عن سخريات الأصدقاء، وأخيراً طلب المساعد إليّ التّقدّم إلى حيث سيادة اللواء.

كان اللواء شديد الظَّرْف، فقد طلب إليّ الاستراحة من وقفة الاستعداد التي كانت كل ما تعلّمتُ من العسكرية منذ طلبتُ الالتحاق بالخدمة، وطلب اللواء إليّ تناول جريدة الفيغارو، وقراءة نصّ ما، وقرأتُهُ بالفرنسية التي يتقنها نادلو المطاعم وعجائز مصر من الخواجات، ثمّ أردف إليّ أن أترجم ما قرأتُ، فترجمتُهُ، وظهر البشر على وجهه، ثمّ ناولني جريدة التايمز، فقرأتُ المانشيتات، وطلب إليّ ترجمتها، فترجمتُها، وعندئذ نظر إليّ طويلاً، وقال: مبروك.

تغيّر حظّي فجأة، فبعد الموصى بهم والحزبيّيْن جاء مَنْ يعرف قيمتي التي أفقدني إيّاها الرائد علي دوباره حين طلب محو اسمي.

قبل انصرافنا من مدرسة هنانو، طلبوا إلينا الالتحاق بثكنة تحمل اسم طارق بن زياد، وذلك في بداية الأسبوع القادم، وعند تفرُّقنا من الصّفّ، أعطوا كلاً منّا أمر الالتحاق بالثكنة التي قرّروها لنا، لتعلُّم النظام المنضمّ، أو أوّليّات الانضباط العسكري، وتركوا لنا اختيار الوقت المناسب لانصرافنا قبل الالتحاق بمدرسة الرياضة، يوم السبت القادم.

مدرسة طارق بن زياد

في مدرسة طارق بن زياد اكتشفتُ التمييز الصريح بين السّوريّيْن، فلقد كان في المدرسة عدد من حملة رتبة الرائد، والذين كانت مهمّتهم الجليلة هي التدريب الرياضي من عَدْوٍ، ومشية نظامية، وتمارين سويدية. والغريب أن

المُدرِّبين جميعاً كانوا من أبناء المُدُن المُبعَدِين عن العسكرية الحقَّة، فالتدريب العسكري الحقيقي، وعلى الأسلحة الحقيقية، كان من مهامّ الضّبّاط الموثوقين.

قضينا الشهور السّتّة الأولى تقريباً في نادي صفّ الضّبّاط الذي هدانا إليه مساعد قديم في الثكنة، حيث كنّا نمضي يوميَّاً بعد إنهاء التدريب الشّاقّ جدّاً في المشية العسكرية النّظاميّة. ثمّ نمضي مساء إلى نادي صفّ الضّبّاط، حيث نتعشّى، ونشرب قليلاً، أو كثيراً، من ماء الكرمة.

كانت زوجتي وبنتي قد بقيتا وحيدَتَيْن في الحسكة، وكان الضِّيق المالي قد بدأ يضغط على زوجتي التي لم تكن معتادة على الإنفاق من راتب واحد، فاضطررتُ إلى الطلب من نقابة المعلّمين إعادة المدّخرات التي كنتُ قد أودعتُها لديهم كمقدّم من ثمن البيت الذي سيضعونه باسمي واسم زوجتي، ولمّا استرجعتُ تلك المدّخرات، سارعتُ بالسفر إلى الحسكة، أحمل حلويات وهدايا، وكان لقاء بهيّاً، فقد انحلّتْ مشكلتهم المالية، وانحلّتْ مشكلة ابتعادي عنهم.

قضيتُ في الحسكة بضعة أيّام، كان المطبخ فيها لا يهدأ في إعداد الأكلات التي حُرمتُها في الجيش ونادي ضبّاط الصّفّ في حلب، وأخيراً كان لا بدّ من العودة إلى السّيّد "طارق بن زياد"، وثكنته بعد إجازة وديعة.

انتهت الشهور التَّدريبيَّة في تعلُّم المشية النّظاميّة، والاستعراض العسكري، وترفَّعْنا في الرتب، ووضعنا نجمة على الذراع، والتي تعني رتبة مرشّح فقط، وعدْنا إلى دمشق، حيث مدرسة المُدرَّعات التي كان علينا أن نُكمِل دورتنا العسكرية بها.

اليوم وحين أحاول إيقاظ ذاكرتي، وما المهمّ الذي عشتُهُ في مدرسة المُدرَّعات في القابون بريف دمشق، لا أذكر إلا أن "مدرسة المُدرَّعات"

والتي تتشارك مع "مدرسة الشرطة العسكرية" في جدار منخفض، يفصل بين المَبنَيَينْ، أذكر حادثاً أثّر بي كثيراً، فلقد كشف لي عن مبلغ الفلتان الانضباطي للمدافعين عن السلطة.

كانت سرايا الدفاع عن الثورة، والتي من مهامّها الأساسية الدفاع عن السلطة البعثية في المسيطرة على البلاد، وقد تحرّشتْ مجموعة من غوغاء سرايا الدفاع بامرأة عابرة، فهاج متحمّسون من شبّان الشارع، ومنعوهم من الخروج عن الانضباط، والأدب، فضربهم العناصر، واستدعوا كل لابسي الثياب المبرقعة (الزّيّ الخاصّ لسرايا الدفاع)، وقطعوا الطريق، وكسّروا المحلاّت التّجاريّة، أي قاموا بكل المخالفات للنظام، فتدخّل رجال الشرطة العسكرية، وقبضوا على بعض المعتدين على المواطنين من "سرايا الدفاع"، وحملوهم في سيَّارات الشرطة الحمراء إلى مدرسة الشرطة العسكرية وثكنتهم في القابون، حيث اعتقلوهم في السجن تمهيداً لمحاكمتهم.

ما كتبتُهُ هو الحدث الحقيقي الذي شهدتُهُ وشهده أفراد الدورة من مدرستنا للمُدرَّعات المجاورة لمدرسة الشرطة العسكرية، لكن ما لم ندركه ولا أدركتْهُ الشرطة العسكرية أن بعض الهاربين من الاعتقال مضوا إلى ثكنة سرايا الدفاع، حيث أبلغوا السّيّد رفعت أسد شقيق رئيس الجمهورية بما حصل، فأمر دورياته المحمولة على دبَّابات، فهاجمت سجن الشرطة العسكرية، وكسّرت أبوابه، وانتزعت المعتقلين المشاغبين، ثمّ أطلقوا كمّيّات هائلة من الرصاص، يتّحدون مَنْ يفكّر في مهاجمتهم واعتقالهم في قادم الأيّام.

هذه الحادثة، على تفاهتها، كشفت عن الجانب الغوغائي الذي كان السّيّد رفعت الأسد حريصاً على نَشْره في سوريا، والذي سيؤدّي، فيما بعد، إلى المجابهة بين "الشَّقيقَينْ الأسد" للاستيلاء على منصب الرئاسة.

في مخفر جملة

توقّفت السَّيَّارة التي حملتني مع الضابطَيْن الأُمميَّيْن عند مخفر جملة في الجولان بعد تخرّجي ضابط ارتباط مع قوّات الطوارئ الدّوليّة، واجتمعنا مع العقيد طيّارة الذي ألقى علينا كلمة لطيفة مختصرة، هنّأنا فيها بالنجاح في دورتنا العسكرية، ثمّ رحّب بنا في هيئة ضبّاط الارتباط مع قوّات الطوارئ الدّوليّة، كان العقيد طيَّارة دمثاً، لا تشنّج لديه كما لدى الرائد دوباره، وكان قد خسر عدداً من أصابعه في أثناء تفكيك لغم عدوّ، أعطاه منظر الضابط جريح الحرب، وقد رحّب بنا متلطّفين العاملون في المكتب، ثمّ وزّعوا علينا البرنامج الشّهريّ لتنقّلاتنا بين المخافر، كما وزّعوا علينا مقترحات ممّنْ سبقونا في الخدمة، يرشدوننا إلى ما يجب علينا حمله إلى المخفر، الذي سنقضي فيه أربعة أيّام، يتلوها ستة أيّام نقضيها في المكتب لسَدّ نقص في الضّبّاط المناوبين، إن وُجد هذا النقص، وإلا فالمكوث في المكتب، نحلّ المشاكل الطارئة في مكتب دمشق.

حين توقّفت السَّيَّارة التي حملتْنا من دمشق إلى المخفر الأوّل لي كضابط ارتباط مع قوّات الأُمم المتّحدة للحفاظ على الهدنة، وكان في مواجهتنا عند وصولنا إلى المخفر سور من أكياس الرمل، وتنفّس الرائد السّويديّ الجنسية عميقاً في ارتياح، فلقد ارتاح من مهمّة السواقة الخطرة بين قرويّيْن مخيفي النظرات، كما سأسمع منه فيما بعد يُعلّق على رحلتي الأولى في عملي الجديد، وحين نزل الضابط الإيطالي من السَّيَّارة، عرفت أننا قد وصلْنا إلى المخفر المقصود.

أخذتُ في تفحّص المخفر، وكان معسكراً صغيراً، لا يكاد يتّسع لأكثر من ثلاث غرف"كارافان"، اثنتان منهما للضابطَيْن الأجنبيَّيْن، وبرَّاكَة للضابط السّوريّ، وكانت أرض المعسكر مفروشة بالحصا الكبيرعلى مساحة المخفر، لمنع تحوُّل أرض المخفر في الشتاء إلى مستنقع مُوحِل.

كنتُ قد حملتُ معي، حسب نصائح مَنْ سبقونا، طعاماً يكفي لأربعة أيّام، هي مدّة خدمتنا في المخفر لمراقبة الحدود، وانتهاكها من قبَل الإسرائيليّيْن أو السّوريّيْن، وعدّة غيارات داخلية، وبنطلون شورت لِلبسه في أثناء فترات الراحة، ومن المعروف أن السّوريّيْن منذ طُردوا عن الجولان الجبلي الذي مركزوا فيه سابقاً مدفعيّتهم القوية، ويقصفون كل ما يتحرّك في أراضي طبريا والجليل التي كانت الجبال الجولانية تشرف عليها، صاروا في الموقع الأضعف، وخاصّة حين احتلّ الإسرائيليون الموقع الممتاز في جبل الشيخ، فصاروا يشرفون على كل تحرّك للسّوريّيْن في الأسفل.

"جملة" هي قرية في حوران، نسيها حتّى جيرانها لبُعْدها عن مظاهر الحضارة كلها التي وصل إليها الإنسان منذ القرن التاسع عشر. كانت القرية واقعة على وادي الرَّقَّاد الذي تنطق قافه بالكاف الفارسية، ووادي الرَّقَّاد كان الفاصل بين الأراضي السّوريّة تحت الاحتلال، والتي ظلّت سوريّة حتّى العام ١٩٦٧، والأراضي السّوريّة التي احتلّتْها إسرائيل منذ عام النكسة ذاك، وكان بالإمكان من موقع المخفر رؤية قرى الجولان المحتلّ من الضّفّة السّوريّة للوادي كـ خسفين والخشنية، إلخ، وكان عرض الوادي للناظر يقارب في العرض الكيلومتر، أمّا قاعه غير المرئي والعميق جدَّاً، فمغطّى بالأشجار الحرجية حتّى ما يقارب مئات الأمتار، ولم أستطع مقاومة الفضول، فرميتُ الحقيبة والصندوق الخَيْزُرَانِيّ الذي كان فيه كل ما سيلزمني للأيّام الأربعة التالية، وعدوتُ حتّى الجانب السّوريّ المشرف على الوادي.

وجّهتُ المنظار المقرّب، وانحنيتُ على الوادي أتأمّل، ولشدّة عجبي رأيتُ الخنازير البرِّيَّة ترعى، ورأيتُ أبقاراً عادت إلى الحالة البرِّيَّة بعد هروبها إلى الوادي، وذئاباً، وضباعاً. أمّا كيف استطعتُ تمييزها، فالحقّ أني كنت أُشبِّه عليها، ولم أكن واثقاً من نوعها أبداً، وكنتُ أعتمد على صور مشابهة محفوظة في الذاكرة، أوعلى قربها من حيوانات أعرفها. وفي مكان قريب من مخرج الوادي، رأيتُ مرآة كبيرة جدَّاً تتجلّى وتختفي حتّى كأنها تغطّي قاع الوادي، ولمّا عدّلتُ المنظار، رأيتُ شجيرات متناثرة في المرآة، فعرفتُ أنها بِرَك ماء متخلّفة عن سيول كانت تغطّي قاع الوادي، وعدّلتُ بؤرة المكبّر أتمنّى رؤية طيور الماء، ولكن المنظار عجز عن الرؤية، واكتفيتُ بملاحقة المرئيات الممكنة.

كنتُ في جنّة سورية، لا يعرفها جيرانها، أو لا يجرؤون، خيفة اعتداء الجنود السّوريّيْن عليهم، فهناك لافتة صريحة تقول: "يمُنَع نزول الرعاة إلى الوادي خيفة انفجار الألغام المزروعة"، وأكمل في سطرٍ ثانٍ "كما يمُنَع نزول كل المَدَنيّيْن إلى الوادي".

في اليوم الثالث لإقامتنا في هذا المخفر الوحشي تماماً، وبعد دعوتي إلى العشاء معهما، وكانا ظريفَيْن مهذَّبَيْن، سألني السّويديّ منهما قبل أن ندخل إلى الكارافان لتناول الطعام: إن كنتُ أعدّ الكحول حراماً، فاضطررتُ إلى النفي قائلاً بأني شخصيّاً لا أُحرّمه، وإن كان المؤمنون يُحرّمونه، وعندئذ دعاني الإيطالي منهما إلى تناول العشاء، والسهر معهما لتبادل الحديث، وافقتُ مبتهجاً، وكانت، للحقيقة، سهرة ممتعة. حدّثني السّويديّ، وكان اسمه "كارلسون" ولستُ أذكر الآن، إن كان هذا اسمه الشّخصيّ، أم أنه اسمه العائلي.

وسأكتب لاحقاً في دفتر مذكّراتي: إن كان بين ضبّاط الأُمم المتّحدة رجال كهذا السّويديّ كثيرون، فقضيتنا إلى توفيق، وعدوّنا إلى دمار.

في صباح اليوم التالي، أفقتُ مبكّراً كعادتي للقيام بتمارين الصباح في هواء وادي الرَّقَّاد، ولكني فوجئتُ بفلّاح من أهل الضيعة يسلّم في ودّ، ويدخل إلى المخفر، خجلتُ من صرفه، فمضيتُ إليه مرحّباً، انتقيتُ كرسيَّيْن، ثمّ دعوتُهُ إلى الجلوس تحت شجرة خارج المخفر ريثما أصنع الشاي، كانت نوبة من حماس للتّعرّف على "الشعب" قد مسّتْني.

بعد رشفة من الشاي، وإبداء إعجاب بالشاي المعطّر، تحوّل إلى حديث يفسّر فيه قدومه إلى المخفر في الصباح الباكر. قال: الحقّ أني جئتُ أبحث عن الملازم خلدون. كان قد جاء مبكّراً يبحث عن ضابط ارتباط سوري مع قوّات الطوارئ اعتاد صداقته، واعتاد توصيته لجَلْب بعض الكيلو غرامات من الخبز المخبوز على الطريقة الفرنسية، والذي يدعوه السّوريّون بالخبز الأفرنجوني، والذي كان مرعي اسم الفلّاح من جملة، يعدّه إداماً يلفّ خبز الحكومة السّوريّ حوله، أي الخبز الذي يجلبونه من المدينة القريبة، فالخبز الأفرنجوني أشهى من الجبن ومن اللبنة، أو الفلافل، ونطق كلمة الفلافل في شهوة، فقلتُ في بساطة - وأنا أرشف الشاي غير المحلّى بينما أغرق كأسه بالسّكّر: ربّما كان دور خلدون في القدوم إلى جملة في المرَّة القادمة.

دعاني إلى الفرجة على بستانه القريب، وأغراني أني سأرى ما يُعجبني. حاولتُ الاعتذار، ولكنه أصرّ، فوضعت حذائي العسكري "البوط" أحتمي به من حشرات ربّما لدغتْني، أو ثعبان أُفاجؤه على الطريق. كنتُ أكتشف الريف السّوريّ للمرَّة الأولى في حياتي، فإقامتي في الحسكة كانت في المدينة نفسها، صحيح أنها لا تختلف كثيراً عن أيّة قرية أوربية، ولكنها مدينة، ففيها مخفر، وفرنان للخبز، وسوق خضار وفواكه مستوردة من حلب، وسوق لبيع اللحم، وسأكتشف أن جملة، وما يماثلها من الريف

السّوريّ لم تستطع، أو لم يمكّنها اقتصادها المتواضع جدًّاً من إنشاء سوق أو فرن أو مَلحَمة.

كانت المزرعة مفاجأة. فهذا الفلّاح المتواضع في ثيابه قد استطاع إنشاء مزرعة جميلة جدًّاً وناجحة جدًّاً، ولا مثيل لها في القرية، أوعلى الطريق إليها، فالأراضي التي يزرعها فلّاحو جملة في خارج القرية اكتفوا فيها كما حدّثني بزراعة الشعير والحمّص والعدس، أمّا الأشجار، فقد امتنعوا عن زراعتها، وشرح: يخافون من الرعاة، أو البدو فيما مضى من رعي الشجر في مراحله الأولى، أو تحطيبه في مراحله المتقدّمة، واكتفوا بالمحاصيل يزرعونها لبضعة شهور، تستقي فيها من كرم السماء، وتنضج وتصبح جاهزة للقطاف في أوائل الصيف. لم أستطع منع نفسي عن سؤاله: وأنتَ؟ كيف استطعتَ صنع مثل هذه المزرعة بأشجارها وسورها وخضارها الطازجة من بندورة وباذنجان وملوخية؟ وكنتُ أشير إليها أُفهمه أني أعرف بالزراعة ومنتجاتها، فأشار ببساطة إلى ساقية كانت تتسلّل إلى ما تحت الجسر الخشبي، وتظهر في مكان آخر. ثمّ أضاف: تعال لتتفرّج على الأعاجيب، وكيف يصنعها الإنسان.

كانت الصدمة في رؤيتي بعد تجاوزنا ما تبدّى كجسر. ساقية صغيرة تتدفّق بالماء، وتجري بين المساكب والشجر. نظر إليّ في فخر، وهو يقف إلى جانب الساقية، سألتُهُ مندهشاً: هل ورثتَها عن أهلكَ؟ فقال في بساطة: لستُ من القرية حتّى أرثها. ثمّ جرّ كرسيَّيْن قصيرَيْن مصنوعَيْن يدوياً، ولمّا لاحظ ترددي عن الجلوس قال: متينان جدًّاً، لا تخف. قالها ضاحكاً، وجلس على أحدهما، وقام بالحركات كلها التي تجعلهما يتداعيان، ولكنهما صمدا.

وقال: حين غادرتُ قريتنا في الغوطة، لم يكن لدى أُمّي ما يمكنها من تزويدي بما سأواجه به الحياة بعيداً عن الشِّجار الدائم مع زوجها الثاني، فبعد وفاة أبي بزمن ليس بالكبير، نسي الفلّاحون فيه سيرته وإنجازاته، لم تستطع أُمّي جمع أكثر من كمشة من الليرات الورقية. وحين عددتُها لم تزد عن المئة، فكان عليّ أن أبدأ معركة العيش بمئة ليرة فقط، ولم أكن أُتقن مهنة أواجه بها الحياة إلا الزراعة، وفي قريتنا، حيث كان "عدان الماء" حصّتنا من ماء بردى، وهو حصّتنا أيضا للزراعة، ويكاد لا يكفي أُمّي وزوجها وطفلَيْها الجديدَيْن. هكذا شعرتُ بأني فائض عن الأسرة الجديدة، فغادرتُ، وابتعدتُ عن قريتنا حتّى آخر الدنيا، وكان آخر الدنيا هنا، في جملة.

كان في القرية عين ماء، وقد تزايد الأبناء والأحفاد حتّى صاروا يتشاجرون على شرب الماء من العين، فتوازعوها عبر أجيال حتّى لم تعد تجري، واستنقعتْ في مجاريها عند بيوت الوَرَثَة، فلمّا وصل مرعي إليها مُبعَداً حتّى آخر الدنيا، ورأى العين المستنقعة عند بيوت كثيرة قرّر العمل، واستأجر عين الماء من الجميع، كل على قدر حصّته، وأعطى أصحابها بالوراثة ما جعل النقود السّوريّة تلمس أيديهم أخيراً، ثمّ استأجر قطعة أرض قريبة من القرية حوّل إليها مجرى العين التي استعادت جريانها حين تجمّعت في مجرى واحد. حفر المجرى، وأحسن تعزيله وانحداره الهادئ، ليُمكِّنه من الجريان السهل حتّى وصوله إلى الأرض المستأجَرَة، ويظلّ فيها ما يكفي لسقايتها، وبعد سنوات من استخدام مائها غطّى المجرى عند وصوله إلى القرية وعبوره منها، حيث يفضّل الأولاد الصغار البلعطة "السباحة المتواضعة"، والاستحمام، وغطّاها حيث لا حاجة به إليها، فحماها من التّبخّر.

زرع الخضار التي لم يتذوّقوها حتّى إنشاء تلك المزرعة التي تغلّبت على المنافسات بين الأقارب، فأكلوا البندورة والباذنجان والكوسا والملوخية التي لاحاجة به إلى قطافها، فأهل القرية غير مهتمّين بأكل الملوخية، فسمح لهم بقطفها واقفة مجّاناً، وعلّمهم طبخها بدعوتهم لأكلها لديه مطبوخة، واكتفى بالبذور الغالية يبيعها في المدينة، وفي العام التالي، صار يستخدم وقت فراغهم في معاونته في المزرعة، وما لبث أن تمدّد شرقاً، وزاد في الاستعانة بوقت فراغهم، وأكلهم للخضار الطازجة، والفواكه التي ما توفّرت لهم من قبل، كان مزارعاً مُبدِعاً فعلاً.

نظرتُ إليه متفحّصاً. كان في حوالي الثلاثين من عمره، ففي أيّ عمر وصل إلى جملة، قلتُ متجرّئاً بسؤاله هذا السؤال الفجّ متوقّعاً جواباً بارداً لتدخّلي في حياته الخاصّة، ولكنه تابع بصوت عال، يريد لي أن أسمع، فقد كان ينبش في إحدى المساكب: هذا كله تمّ في سنوات، وضحك مُقهقِهاً: تمّ في سنوات ما قبل التحاقكَ بالخدمة العسكرية. ثمّ أضاف: ولكن طعم الخبز "الأفرنجوني" ظلّ يُلحّ عليّ، وضحك، وهو يضع أمامي بطّيخة صفراء من إنتاج المزرعة، شقّها بضربة واحدة من سكّينه الحادّة، وقال: ربّما كان الخبز الأفرنجوني سبب لقائنا. ثمّ أشار إلى البطّيخة الصفراء: تفضَّل. فقد تكون هذه الشَّمَّامة سبباً معقولاً لصداقة دائمة. ذقتُ قطعة صغيرة واحدة، فأدهشتْني بحلاوتها والرائحة العطرة الصادرة عنها، وأُقسم إني لم أذقْ بطّيخاً أصفر في طِيْب هذه البطّيخة.

وفي الليلة الثالثة لوجودي في مخفر جملة، فوجئتُ بالضابط السّويديّ، وهو ينقر الباب في أدب، ثمّ يدعوني إلى مشاركتهما العشاء، والحقّ أنه كان عشاء فخماً في الحوارات، والموسيقى الخفيفة في خلفية الجلسة، وفي الطعام المُعَدّ بطريقة مختلفة تماماً عمّا اعتدْنا عليه من

طبخ، أهي البهارات المختلفة عمّا تذوّقناه في مطبخنا من فلفل وكمّون وشطّة حين شعرتُ بطعم الروز ماري، والجنجر أيل أو الزنجبيل! كان الميجور تومي طبّاخاً هاوياً فنّاناً، وتوجّب عليّ في أُمسيّة الغد دعوتهما إلى العشاء في برّاكَتي التي لم تُفاجِئهم في تواضع أثاثها، ولا في تواضع إضاءتها، بل في ثمانة التجربة في تذوُّق الطعام الشّاميّ، كما حرصا على قولها في ورق العنب الملفوف والمَحشوّ رزّاً، وفي شرائح اللحم التي وسّدت "اليبرق" أو ورق العنب، واختزنت طَعْمه، وفي رؤوس الثوم المطبوخة مع ورق العنب، وفي عصعوص الخروف المختبئ في أركان ورق العنب، وفي صباح فخري المطرب الحلبي، وصبري المدلّل يطلقان مواويلهما والموشّحات الأندلسية، وكانت مفاجأتهما حين قلتُ لهما إن هذا الموشّح من التراث الأندلسي الذي احتفظ أجدادنا المغاربة به من أندلسهم الضائع، ثمّ حملوه إلى حلب، حيث اختزنه الحلبيون في أمانة حتّى وصل إلى الشام، وأضفتُ: حين يقول الشّاميّون كلمة الشام، فهم يعنون الشام شريف، أو دمشق.

ودعاني في ختام السهرة حيث قال السّويديّ سعيداً: كانت محاضرة رائعة، قدّمتَ لنا فيها صورة مختلفة عن خصوم إسرائيل الذين اعتدْنا سماع الروايات عن مظلوميتهم من قبَل البرابرة المحيطين. ثمّ هزّ كفّي في سعادة: شكراً لهذه الأُمسيَّة البهيجة.

في اليوم التالي، وكنتُ أقوم بتماريني الرّياضيّة الخفيفة، سمعتُ وقع خطوات سريعة على حصى المخفر، فتخلّيتُ عن تماريني، وخرجتُ مُستطلِعاً، لأُفاجَأ بجَدْيٍ كاملِ البياض صغير، لم يفارق الرضاعة بعد، ولكنه جريء، فقد دخل إلى المخفر مُبتعِداً عن أُمّه، يلتقط الأعشاب المتخفّية في الزوايا غير مكتملة الحصا، ومشيتُ باتّجاهه حاملاً رزمة من

عشب التقطتُها من خلف برَّاكَتي، فتقدّم يقضمها، وحاولتُ مُداعِباً القبضَ عليه، ولكنه تملّص في خفّة، توقّف بعيداً يستكشف ما أنوي القيام به، ولكني حين لم أكن أنتوي سوءاً، رميتُ حزمة العشب بعيداً عنّي، وجررتُ كرسيَّاً جلستُ عليه. وسمعتُ وقع خطوات على الحصى في المخفر، فالتفتُّ لأرى ما فهمتُ منه بسرعة أنه الراعي الذي كان يتفقّد جَدْيَهُ الأبيض، كان جهماً مُتحفِّزاً للشِّجار كما بدا لي، فقرّرتُ ملاطفته، وقمتُ لاستقباله: هاه، الجَدْي لكَ، وتابعتُ رغم صمته المتحفّز: صباح الخير، هل تشرب الشاي؟

انحنى على الجَدْي، يريد القبض عليه، ولكنه تملّص هارباً، حيث اختفى تحت برَّاكَتي، ولمّا حاول الجثو للقبض عليه، قلتُ: من الأفضل استدعاء أُمّه، فلن تقبض عليه تحت البرَّاكَة. وفكّر قليلاً، ثمّ مضى تاركاً الجَدْي تحت، انتهزتُ فرصة غيابه، فحملتُ إبريق الشاي، وجعلتُهُ فوق البوتاغاز، وانتظرتُ عودته، فقد كان من الواضح أنه يطارد الأُمّ، وأخيراً وبينما كان الماء يغلي سمعتُ ثُغاءها المحتجّ، فعرفتُ أنه قد قبض عليها، دخلتُ إلى البرَّاكَة، وأعددتُ الشاي، وخرجتُ بالصِّينيَّة حين كان يدخل من فتحة الباب التي لا باب فيها، والتي تُعدّ الباب النظري للمخفر.

قدّم لي قبل جلوسه إناء زجاجيَّاً من العسل القاتم اللون حتّى كأنه أسود، وقال: عسل الوادي البرّيّ. حاولتُ الاعتذار، ولكنه وضعه على طاولة قريبة، وأراد المضي، وفي هذه اللحظة، خرج الجَدْي عند سماعه ثُغاء أُمّه، فأفلتَها الراعي، وانطلقت عادية معه، وأصررتُ على شربه الشاي معي، فجلس.

كان شابَّاً في العشرينيات، ولكن قسوة الحياة البرِّيَّة التي يعيشها انعكست عليه تجاعيد بشرة وجه، ربمّا لم يعرف الماء منذ اخترعوا الماء.

قال: اغتنمتُ فرصة تغيير الضابط السّوريّ في المخفر، فقرّرتُ التّسلّل بالقطيع إلى الوادي، ولكن الحظّ جعل الجَدْي يتسلّل إلى المخفر. وضحك للمرَّة الأولى. وتعرف الباقي. والمشكل الآن أن الماعز قد رعى وشبع، ولم يعد يثيره صوتي يدعوه لمرعى.

كان آسفاً من قلبه أنه لن يستطيع النزول إلى الوادي، رفع الكأس، وشرب نصفها في جرعة واحدة، ثمّ أعادها مُتبرِّم الوجه، وقال: ما عندكم سكّر؟ كان يريد مزيداً من السّكّر، فملأتُ الكأس من جديد، وأضفتُ إليه ملعقَتَي سكّر، ولكنه في لطف الراعي البرّيّ سحب إناء السّكّر من يدي، وقلبه في الكاس، فصار الكأس يلتمع بالسّكّر الأبيض بديلاً عن الشاي الأحمر.

مضى الراعي الذي لم أعرف له اسماً، ثمّ سمعتُ صوته من بعيد يهشّ على حيواناته، فانتقلتُ إلى السور المنتفخ بأكياس الرمل، لأعرف مكانه، ولكني لم أرَ إلا الماعز يتقافز هابطاً إلى الوادي، أمّا الراعي، فليس له من أثر.

عدتُ إلى مجلسي الأوّل، وقرّرتُ الإفطار في الهواء الطلق، ولمّا وضعتُ صينية الإفطار، لمحتُ بطرمان العسل الذي تركه الراعي، ففتحتُهُ، وبملعقة شاي رفعتُ ملعقة من العسل، أضفتُها إلى النيسكافيه، وكان هذا آخر ما أعرف أني قد فعلتُ، فبعد ساعَتَيْن، وصلت سيَّارة الأُمم المتّحدة، لتحملني إلى المستشفى، فيغسلوا المعدة التي لم تتحمّل العسل البرّيّ، وسأعرف من أصدقاء عادوني في البيت أن العسل البرّيّ لا يحتمل قوّته إلا أقوياء الجسد والمعدة، ومَنْ لا يشكون من علّة في الجهاز الهضمي.

مخفر كودنه على الجبل

فيما بعد قرية جملة ستكون لي سعادة أن أعرف قرى كثيرة أخرى، كنتُ أتطفّل عليها بزيارة، أو أن يتكرّم القائمون عليها بدعوتي للزيارة، وكان من

تلك القرى واحدة كانت تقع إلى الشرق من الطريق المؤدّي إلى المخفر، وإلى الغرب من الأرض السّوريّة مدينة تُدعى نوى، وقريبة من معلم أساسي في رسم حدود الهزيمة والنصر بين سوريا وإسرائيل هو تلّ الفَرَس.

كان المشهد الجولاني في أبهى صوره. حقول على مَدِّ البصر متماوجة الأزهار بين شقائق النعمان الحمراء، والبابونج الصفراء، وزهور العيصلان البيض تعلو كل تلَّة، أو مرتفع صغير ربّما كان قبراً في يوم ما، وربّما دُفن فيه شهيد ما، فحيّوه بهذه الزنابق التي اصطلحوا على تسميتها بالعيصلان، وقد كرّمها الرّيفيّون بمصاحبة موتاهم في رحلتهم الأخيرة، أو في رحلة تآكل أجسادهم في القبور، فوضعوا عند رأس كل قبر حوضاً صغيراً، يزرعون فيه زهور العيصلان.

لم أستطع الاكتفاء بالفرجة عن بُعد، فخرجتُ من المعسكرطارقاً دروباً أخفتْها الزهور محاوِلةً ابتلاعها. كنتُ حريصاً أشدّ الحرص على ألا أدوس على الزهور حين رأيتُ غيمة بيضاء بجانب عينَيّ تندفع، ثمّ تختفي بين البابونج والشقائق، وركضتُ محاوِلاً معرفة كنه الغيمة البيضاء، وبرز السؤال عند العجز عن معرفة ماهية الغيمة المندفعة. تُرى أهو الوَهْم؟ أم أني رأيتُ الغيمة البيضاء التي يدّعي الكثيرون رؤيتها والقبض عليها، ولكن برهانهم الوحيد على القبض عليها هو كلمتهم؟ ودون أن أشعر وجدتُني أغرق في غيمات الأحمر والأبيض باحثاً ومقلِّباً غيمات الزهر دون فائدة، وأخيراً غلبتْ عليّ الواقعية الصَّخريَّة، فليس من غيمة. وحين استدرتُ كي أعود إلى المخفر، مرَّت الغيمة البيضاء من أمامي، فأجبرتْني على إغماض عينَيّ، بل أقسم إني سمعتُ حفيف جناحَيْها، وتوقّفتُ أجادل. حفيف جناحَيْنْ؟ لعلّها ليست غيمة. طيّب، فإن لم تكن غيمة، فما هذا الذي أجبرني على إغلاق عينَيّ خوفاً عليهما، إذنْ؟

ولم أبحث، بل استدرتُ متّجهاً إلى المخفر. وفجأة خطر لي أن أنظر

إلى الحقل مُودِّعاً، فلعلّ الغيمة تعود. ورأيتُها هذه المرَّة. نعم، رأيتُها، كانت طيراً أبيض يحوم في دوران، ولكن للطيور حفيفاً مسموعاً مؤكّداً، وليس لهذه من حفيف، كما أن لها سرعة ليست للطيور، وبهدوء عدتُ إلى الحقل، ولكن ما وثقت أنه طير أبيض اختفى، فأخذتُ في تحريش ما يمكن أن يكون مختفياً بين العشب، وبينما كنتُ أُحرِّش وأصرخ لإخافته، اندفع فجأة من أمامي دون أن يلطمَني بجناحه، وتابعتُهُ يبتعد، وبهدوء خطر لي أنه ربّما كان يدافع عن عشّه، واهتممتُ بالبحث عن العشّ حتّى وجدتُهُ، تماماً، تحت المكان الذي كان ينطلق منه لإخافتي.

انحنيتُ على العشّ، فوجدتُ صغار الفراخ، وكانت تصيء وتزقو، فانحنيتُ عليها، وإذا بلطمة قاسية تصرفني إلى اللّاطم، ونظرتُ إلى الطائر الأبيض المبتعد طائراً يحوم من فوقي عالياً: يا إلهي، يا إلهي.

إنها ليست طيراً عادياً، بل بومة نهارية بيضاء، وسمعتُ صوتاً يناديني، فالتفتُّ لأرى الضابط الكندي الذي أصرّ على تغيير اسمي بدعوتي كايرو بدلاً من خيري الصعبة كما يبدو عليه، كان يُلوِّح لي، ويشير إلى رُسْغه أن الوقت قد تأخّر، ويجب العودة إلى المخفر.

اختفى سِحْر الغروب، واختفت مطاردة الغيمة الرهيف، وانكشف كلاهما عن بومة بيضاء، وربّما ليست بومة رغم منقارها الأعقف وخفّة جناحَيْها في الاندفاع المرفرف، فليس من المألوف وجود بومة بيضاء نهارية في الجولان.

لا أعلم، ولكن سِحْر الجولان الخفي ما لبث أن مَسَّني، وبدأ بالانتشار في عروقي، فبتُّ كالمحموم الذي هُوِسَ بجمال تلك الطبيعة وفرادتها، تلك التلال والأودية البِكْر التي لا تبعد عن دمشق إلا ساعة، تكاد تكون في عالم آخر من السِّحْر والجمال.

الحرب المفاجِئة

استيقظتُ مبكّراً، فقد كان حدس بوقوع كارثة ما قد ألحّ عليّ. هل كان للتّأخّرعن المضي إلى الجبهة تأثير على عقلي السّرّيّ؟ أم أنه الحسّ بالضياع بعد الإسهال المخيف الذي أُصبتُ به. تسلّلتُ من السرير، وخرجتُ إلى الشرفة، حيث أقفاص العصافير، غيّرتُ الماء في أقفاص العصافير من إبريق زجاجي حملتُهُ من الصالة، ثمّ أضفتُ حبوباً جديدة إلى علب الطعام، وأخذتُ في سقاية نباتات الزينة التي حملتْهما أُمّي إليّ في بيتنا الجديد. سمعتُ صوت خطوات تزخف على البلاط، فالتفتُّ لأرى زوجتي نضرة تهمس: صباح الخير، فأجبتُ على التّحيّة بتحية خاصّة بي. قد يبدو هذا التفصيل مبالغة بالواقعية، ولكنْ، لو أن المعترض قد قاسى ما قاسيتُ في الشهور القادمة، فلربمّا غفر لي هذه الاسترجاعات التَّفصيليَّة، وكأنني كنتُ أخاف ضياعها في غياهب النسيان، ثمّ انزلقتْ من بين ذراعَيّ إلى المطبخ، حيث حملتْ إليّ، أعني لكلَيْنا، الإفطار، ثمّ بعد القيام عن الإفطار، فحصْنا معاً صندوق الخَيْزُرَان الذي كنتُ أحمل فيه خبزي اليومي وطعامي من خضار وفواكه وكحول، أي زوّادتي للأيّام الأربعة القادمة، حيث كانت خدمتي مقسوم أربعة أيّام في الجبهة في الجولان، وستة أيّام في دمشق في مركز فَكّ الارتباط بين السّوريّيْن والإسرائيليّيْن المعروف بـ إيسماك الكائن في حَيّ الروضة الدّمشقيّ، وكانت تلكم الأيّام الجميلة منذ أوائل ١٩٧١، واستمرّت لمدّة سنة ونصف تقريباً.

كان زميلاي في المناوبة ضابطان أُمميان قديمان في هيئة الإيسماك، وكان برنامجانا مختلفَيْن، فلم نلتقِ في مناوبة مشتركة منذ شهور، وكانا ضابطاً إيطاليَّاً برتبة رائد، وضابطاً هولنديَّاً برتبة نقيب، وكان كل شيء عاديَّاً على الطريق، البساتين المتصحِّرة والأشجار النادرة، والبشر الأندر خصوصاً مغادرتنا لبساتين معضمية الشام، وكان علينا المرور من أراضي مخيّم خان الشيح، ورؤية الحجارة تغطّي ما كان من قبل بساتين إلا أن هجرها، ونزول المطر الغزير على أرض لا شجر فيها يمسك بالتربة لعقود قد جردها من التربة الغطاء، فتحولت إلى أراض واسعة من تصحّر، وكان عليّ معرفة أن هذا التّصحّر سيستمرّ حتّى قرية سعسع، حيث الشجر والمياه والحياة، التي تشبه الغوطة الشرقية الغنّاء.

وكان علينا العودة إلى بساتين الحجارة الكلسية حتّى خان أرنبة، حيث رأيتُ للمرَّة الأولى سيَّارات الشحن الكبيرة تحمل ما خفّ حمله من أثاث فقير "فرشات وبطَّانيَّات ومعاجن، إلخ"، وتتّجه بها مختفية وراء المنحنى إلى حيث العاصمة، الحقّ أني لم أفهم السبب، ولم أستطع تخيُّل أن سوريا تشنّ حرباً على إسرائيل، وهي على هذا القَدْر من التّفكّك الدّاخليّ، والوطني، والتمييز العشائري، وبعد صعود قليل على الطريق الصاعدة الممزّقة التزفيت والمليئة بالحُفر، وقبل الوصول إلى قرية طرنجة، رأيتُ إشارات حديثة على لوحات من خشب صناعي، رُكِّبت على عجل، وهي تشير إلى حيث خان أرنبة، أو تشير بمنع التّقدّم، ونظر إليّ الرائد الإيطالي يستفهم عن هذه التّغيّرات والإشارات التي تشير إلى حدث غير معتاد قادم على الطريق الصحيح للوصول إلى قرية حضر، حيث مركزنا، أو تشير إلى العابرين إلى حيث خان أرنبة مع ذكر اسم الخان، وسمعتُ الرائد الإيطالي يسأل، وكأنما لنفسه، فلم يكن السؤال مُوجَّهاً إليّ: ما معنى هذا؟ ولكنني لجهلي بما يجري صمتّ، وبالطبع لم يكن الرائد الإيطالي بأشدّ معرفة منّي،

وبينما كنّا نتجه خارجين من جباتا الخشب الخالية من سكّانها، فلا صوت لنساء يزغردنَ أو يتشاجرنَ، ولا لأطفال يلعبون، ولا لحيوانات تائهة تتشمّم أكوام الزبالة، لعلّها تعثر فيها، على ما يُؤكَل، وحين بدا لنا مخفرنا في تلّ الهوى كما اعتدْنا على تسميته، التفت إليّ النقيب الهولندي سائلاً: ما رأيكَ؟ ما الذي يحصل؟ هل هناك استعدادات لشيء ما؟ ولكني هززتُ كَتِفَيّ في جهل حقيقي لما كان يُعدّ له أو يجري.

كان المخفر على رأس تلّ الهوى أو الهواء لستُ على ثقة من الاسم الصحيح، وكان إلى الغرب من هذا التَّلِّ، وعلى مبعدة معقولة، كان هناك تلّ الشيخة وهو تلّ حاجز بين الجولان المحتلّ وبين السهل المكشوف بين سلسلة التلال المحتلّة وبين الأراضي السّوريّة، وكان إلى جواره تلّ صغير وممرّ إجباري للآليات التي تريد العبور إلى الجولان، اسمه تلّ الأرانب، وهو ما سيكون مصيدة للدَّبَّابات السّوريّة في أيّة حرب، سيحاول فيها السّوريّون العبور إلى الجولان المحتلّ، ثمّ التَّلّ الأقرب إلى جبل صغير، اسمه تلّ أبو الندى، وكان في تلك السهول الواقعة بين تلّ أبو الندى، وبين خان أرنبة وتلّ الهوى، حيث مخفرنا سهل واسع ممنوع الزراعة، لكونه يقع في المنطقة المحايدة بين الجولان المحتلّ، وبين خان أرنبة، وتلّ الهوى.

كان المخفر كما عهدناه من حيث السور من أكياس الرمل، والأرض المغطّاة بالحصى الكبيرة يمنع العربات والأقدام من الانغماس، أوالتّلوّث في الوحل، وكان هناك عربتا النوم الأُمميّتان، وهما عربتان فخمتا التأثيث، وكان اسمهما باللغات الغربية "كارافان"، ثمّ كان على مقربة من باب المخفر برَّاكَة عسكرية، هي ما قدَّروا للضّبّاط السّوريّيْن النوم فيها.

أطلق النقيب الهولندي زموره العالي يعلن وصولنا، فخرج الضابطان الأُمميان في لباس الخروج، ومع كل منها حقيبته وصندوق مؤونته للأيّام

الأربعة التي سيقيمها في المخفر، وكان في صحبتهما الضابط السّوريّ في ثياب العمل النظيفة المكوِيّة استعداداً للنزول إلى الشام.

اعتدْنا انتظار الضّبّاط الزملاء لنا حتّى ننزل من سيّارتنا لتتمّ التّحيّات، والسؤال عن الصّحّة، وعن معانيات السفر، ولكنهم لم ينتظروا نزولنا، بل تقدّموا من سيّارتنا في لهفة، وقال الكندي منهم دون مقدّمات: هل لاحظتُم شيئاً غريباً على الطريق؟

كانت جلسة طويلة من التّكهّنات والتحليلات، والتي لا تفيد إلا استعراض المعلومات القاصرة لدى الجميع. وأخيراً أطلقت سيّارتهم زمور الوداع، وانطلقوا مطارَدين بالغبار، وكان من المعتاد أن يطاردهم صبيان وبنات جباتا الخشب حتّى نهاية القرية، ولكن أحداً لم يطاردهم هذه المرَّة.

نشرتُ ثيابي من بيجامة نوم إلى بيجامة رياضة ممّا نلبسه في الأيّام العادية، وخزنتُ طعام اليوم المطبوخ في المنزل في الثّلاّجة، وقبل أن أُكمل سلسلة الترتيب المألوَفة، حلّ عليّ تعب شديد، لا عهد لي به، فجلستُ على جانب السرير، ثمّ أكملتُ الجلسة باستلقاءة، وبمجرّد أن لامس رأسي الوسادة المغطّاة بمنشفة جئتُ بها من البيت حتّى اندفع إليّ نوم، لا أعرف مصدره. نمتُ نوماً لا عادة لي به، وفسّرتُ الأمر أني وفي حالة النقاهة من إعياء شديد أتعرّض إلى هذا التّوتّر والحسّ بالعجز عمّا يجري في الخارج، وأني بعد يومَيْن من المرض وتوتّر مشاهد الحرب التي لم تقع بعد، هذا كله قد ضغط عليّ، فنمتُ هرباً.

الآن وبعد انقضاء سنوات طويلة على تلك التجربة التي لا أعرف تسميتها الدقيقة، وحين أنام وأذكر حُلْماً كان يُلحّ علي عند كل مأزق حياتيّ، حُلْماً واحداً مكروراً، ما يزال يُلحّ عليّ، أرى فيه ذسبينا اليونانية وهي تنظر إليّ نائماً، وتقول في سخرية من رفضي مصاحبتها إلى أستراليا: ندمان؟

وفي تلك اللحظة، لم أكن نادماً، ولكني بعد سنوات التهجير، سأعترف أني كنتُ غبيّاً وأني ندمان، وأخذتُ أفكّر: كيف هي سميرة؟ وكيف هي سهير الآن؟

كان صباحاً غريباً منذ خرجتُ من البيت، وكان برنامج خدمتي في المخافر قد اضطرب بشدّة منذ إصابتي بالإسهال المريع الذي اضطرّني إلى المضي إلى مستشفى المزّة العسكري، ومكوثي لديهم ليومَينْ، الأمر الذي جعل إدارتنا تعمد إلى تغيير البرنامج المُعَدّ مسبّقاً بالاتّفاق مع قيادة الإيسماك، وتغيير ورديات الضّبّاط المصاحبين لقّوات الطوارئ، فصحبهم واحد من الزملاء المعروف بالراقص، أي ممّنْ يمُضون وقتاً كبيراً من حياتهم في المراقص، والاعتذار عن رياضة الصباح، أي حين يكون النوم الألذّ، وكان ردّ المجموعة من طلّاب الضّبّاط على هذا الدلال والاعتذار عن رياضة الصباح أن أطلق أحدهم دعاء: اللّهمّ، انصر الاستطلاع، أي نحن. وكانت تسميتنا بهذا الاسم راجعة إلى اسم دورتنا التي تخرّجنا نحمل اسمها. اللّهمّ، انصر الاستطلاع بأحد العُمَرَيْن. فسُئل: أيّهما؟ فقال: عمر بواسير أو عمر فتاق، وكانا يعتذران عن المشاركة في أيّ رياضة في أثناء دورة الضّبّاط قبل تخرّجهما إمّا بالبواسير لدى عمر الأوّل، أو الفتق لدى عمر الثاني، وكانا يضحكان غير مستاءَيْن من هذا التهريج. كان عمر بواسير يحدّثنا طيلة الوقت عن تخطيطه للهجرة إلى فرنسا، وكنّا نضحك منه هازئين غيرمصدِّقين، ولكن الحظّ الغريب هو ما جعلني أُصاب بالإسهال، فيمضي عمر بواسير إلى الجبهة، وأمضي إلى المستشفى، ويتغيّر الجدولان، ويصبح المضي إلى الجبهة صباح الحرب من نصيبي، ولمّا كانت نهاية الخدمة، وسرّحوه، مضى مهاجراً إلى فرنسا، وكنتُ أقضي الوقت في، مصيف "مجدّو"، نتظر التبادل بين الأسرى، لأُكمِل حياتي، وحين أرجع إلى عائلتي وبيتي، وأسأل عنه واحداً ممّنْ زاروني، ليُهنِّئوني بالسلامة، سأُفاجأ بعمر

بواسير، وقد هاجر إلى فرنسا، وأنه كما كتب إلى صديق مشترك سيتزوّج من فرنسية، وهو يعمل خبيراً في الكومبيوتر، ما اضطرّ الدولة السّوريّة بعد سنوات إلى الاستعانة به مندوباً عن شركة الكومبيوتر الفرنسية، ليُبرمج كومبيوتراتها كفرنسي مُرسَل من الشركة التي يعمل لديها.

كانت المرَّة الأولى أدخل فيها إلى مركز قوّات الطوارئ السّوريّة، كنتُ أعرف أن المديرأو القائد هو العقيد عدنان طيَّارة، وقد استقبلنا بلطف شديد مهذّب، وكان في الشّقّة /المركز عدد من العاملين، منهم مساعد من القلمون، وكان أوّل ما عرفتُ عنه من ثرثراتِ الضّبّاط، أنه عقيم يحاول بالوسائل كلها الإنجاب، وكان وكيل العقيد طيَّارة شابّاً أحمر اللون من أقرباء رجل مُهمّ في الدولة، كان هناك عدد من العرفاء والرقباء والمساعدين، وهذا ما أذكره، فبعد ما يقارب العام، اشتكى أحد الأُمميّيْن الأجانب من العاملين في قوّات الطوارئ أن بعضهم قد اقتحم بيته، وأنه اختلس "والتعبير للضابط الأُممي" كاميرا تخصّه، وربّما كان ما يهمّه من الكاميرا الصور التي التقطها الضابط في إسرائيل، وجاءتْنا الأوامر باصطحاب رجال أرسلتْهم القيادة لفحص والتقاط بصمات اللّصّ، ومضيْنا الى بيت النقيب الأُممي، وكان قريباً من سينما أمير، كما أذكر.

كانت الهجمة التي قام بها المكلّفون بالتحقيق هجمة بربرية بالمعنى الحرفي للكلمة، فقد كسروا زجاجيات، وأزعجوا ضيوف الضابط الأُممي وهم يُصوِّرون وينتزعون البصمات، كانوا يقومون بتجريب كل معلوماتهم الشّرطيّة في المكان حتّى تقدّم النقيب إلى قائد المجموعة يعلن أنه قد تنازل عن الشكوى، فالضيوف يغادرون مستائين، ولكنهم رفضوا الانسحاب، فهم يُنفّذون المهمّة، وعليه إذا أراد سَحْبَ الشكوى المضي الى قيادة الشرطة معتذِراً ومتراجِعاً عن شكواه، وقد أفسدوا عليه السهرة، وكسروا

كل ما أمكن كَسْره، ولم نترك البيت المَعنيّ إلا بعد ثلاث ساعات، كان الضيوف فيها قد غادروا والزّجاجيّات قد تهشّمت، والطرابيزات الأنيقة قد فُكِّكَت، والصور لكل المَدعوِّين قد أُخذت.

بالطبع لم تفضِ نتائج التحقيق إلى شيء سوى كليشيهات التفتيش وحركات سكوتلانديارد السّوريّة، ولكنها كانت درساً كبيراً للأُميّيْن ألا يتقدّموا بأيّة شكوى جديدة، إذا ما أضاعوا أيّ شيء، بل بات عليهم في الصغيرة والكبيرة اللجوء للمكتب الرئيس في لندن.

حين مضيتُ إلى مركز قوّات الطوارئ الجديد في شارع متفرّع من أبو رمّانة، كان كل شيء يشير إلى يوم خريفي جميل، وقد سألني الضابطان الأجنبيان عن صحّتي لدى رؤيتي، فقد عرفوا أني كنتُ في المستشفى، وشكرتُ لهما اهتمامهما، وكان الطريق إلى خان أرنبة عاديًّاً، ليس فيه ما يُميّزه عن الأيّام الأخرى، كنّا نسير في طريق لا خضرة فيه بعد خروجنا من المعضمية، ثمّ مررْنا بـ خان الشيح المقفِر، ولم نرَ خضرة البساتين إلا في سعسع الوارفة، ثمّ تمزّقت المشاهد ما بين بقع خضر، ومسافات من صفرة، ولكن هذا ما اعتدْنا عليه، وحين وصلْنا إلى خان أرنبة، رأيْنا سيَّارات شحن، تحمل فلّاحين، وأبقاراً، ودجاجاً، وتمضي بهم إلى طريق الشام، وقفز سؤال إلى حلقي: ما الذي يجري؟ وكان الضابطان صامتَيْن، وكأنهما لا يفهمان ما الذي يجري، ولم أندهش، فأنا أيضاً لم أفهم شيئاً ممّا يجري. وحين أمعنّا في الطريق إلى مخفر "يوك "عبر قرية طرنجة، فُوجِئنا بلافتات تشير إلى اليمين، أو إلى تحت حيث طريق الشام العائد، أو لافتات تشير إلى منع السَّيْر قدماً، وكانت حَيْرة لمَنْ يرى هذا المنظر للمرَّة الأولى، والتفت إليّ الضابط الهولندي: أترى شيئاً مختلفاً؟ ثمّ علّق في بساطة: كأنهم يُعدُّون لشيء جديد، وهززتُ كَتِفَيّ غير واثق من شيء، أو غير فاهم شيئاً.

كات مناوبتي الجديدة في مخفر كنّا نُسمّيه حسب الأبجدية الصّوتيّة "يوك"، وكان إلى الغرب من قرية سورية، تُدعى جباتا الخشب.

كانت السَّيَّارة الأُممية قوية، بحيث كادت تطير على الطريق الصاعدة إلى المخفر، ولم نكترث للغبار الثائر، ولا للحصى المتطاير تحت عجلات السَّيَّارة، ودخلْنا المخفر، وأخذ الضابط الهولندي يزمّر منذ ما قبل المخفر بكثير، وخرج الضابطان، والضابط السّوريّ لِلقائنا، وبادرني السّوريّ بالعربية: شو في؟؟ انتبهتوا على شي على الطريق؟ واضطررتُ إلى التجاهل وإنكار أن يكون هناك ما يريب، أمّا الضّبّاط الأُمميون، فقد تبادلوا حديثاً بصوت منخفض، لم أستطع سماعه، أو فَهْمه، ثمّ سارعت المجموعة القديمة إلى ركوب السَّيَّارة، ومعهما ضابط الارتباط السّوريّ، والانطلاق بسرعة الرصاصة إلى دمشق. ومضينا كلّ إلى استراحته.

دخلتُ البَرَّاكَة، ورميتُ بأشيائي جانباً، ولم أنشرها، أو أضعها في الخزانة على العادة، بل كنتُ شديد التعب، فاستلقيتُ في ثيابي الخارجية على السرير، ولم أنتبه إلى التّغيّرات الجارية. فنمتُ، هل نمتُ؟ أم لم أنم؟لا أدري، وهل أيقظتْني التفجيرات؟ أم أني لم أنمْ أصلاً؟ لا أدري، ولكن ما أعرفه بشكل مؤكّد هو الانفجارات المجنونة والقنابل الطائرة فوق التّلّة تحيل الهواء في المخفر إلى شيء لا يمكن تفسيره، أسرعتُ خارج الكارافان، أبحث عن مصدر الانفجارات، ولكن ساقَيّ خانتاني، فارتميتُ مستقبِلاً الأرض بعظمة ذقني الحليقة، ولم أكترث إلى بقعة الدم، فقد كانت الانفجارات تذهلني عن ملاحظة الأشياء الصغيرة، وكانت بقعة الدم التي بدأت دون حسّ بالجرح تتحوّل إلى وجع خشن، ونظرتُ إلى ظهر كفّي الملطّخة بدمي حين وقعتُ على الحصى الخشن، حاولتُ القيام، ولكن ساقَيّ خانتاني للمرَّة الثانية، ورغم أن المسافة بين البَرَّاكَة

التي كنتُ نائماً فيها، وبين المرقب الذي كنتُ في طريقي إليه لا تزيد عن الخمسة عشر متراً إلا أن هذه المسافة استهلكت منّي دهراً بين الوقوع، والقيام، والزحف حتّى الوصول إلى المرقب، حيث تحاملتُ على الحجارة الإسمنتية المحدّدة للمرقب، وتطاولتُ، فرأيتُ السهل الأخضر الواسع جدّاً، ورأيتُ تلّ الشيخة وتلّ وردة، وقد انتشرت الدَّبَّابات والسَّيَّارات المصفَّحة السّوريّة فيه تُطلق قنابلَها، وتتلقّى القنابل العدوّة، ولم أعرف ما الذي يجري حتّى تلك اللحظة، فكل ما همّني كان أن القنابل والصواريخ المُوجَّهة سلكيّاً "مالوتكا" كانت تتطاير فوق مخفرنا، فلا نسمع منها إلا الصفير، وكانت هناك بين أصوات القنابل والتفجيرات أصوات متسلّلة بعيدة، لم تكن صادرة من السهل أسفل المخفر، ثمّ هدأت أصوات القنابل قليلاً، فَعَلَتِ الأصوات المتفجّرة البعيدة، وخطر لي دون أن أعرف السبب أن أنظر إلى الأعلى قليلاً، وحين نظرتُ رأيتُ طائرات الهيليكوبتر تحوم حول المرصد البعيد في قمّة جبل الشيخ، ورأيتُ رجالاً ضئيلين كدُمى يقفزون من الطائرات إلى أرض المرصد، ورأيتُ وسمعتُ انفجارات بعيدة جدَّاً، تبادل القصف بين المهاجمين والمدافعين عن المرصد. وربّما كانت صدى لما يجري في السهل، أو أنها قادمة من مكان بعيد عن الرؤية.

تجمَّدتُ قليلاً متسائِلاً: ما الذي يجري؟ من هؤلاء الذين يهاجمون المرصد؟ ألعلّهم من السّوريّيْن، ولكنْ، وتحرّكتُ بعيني بين المرصد والجبل العالي جدَّاً، وكانت طائرات الهيليكوبتر تتحرّك مبتعدة، وأخذت الصورة تتجلّى، هل يجرؤ السّوريّون على فعلها؟ هل يفعلونها ويهاجمون المرصد؟ وَعَلَت الانفجارات في الأسفل، ونظرتُ، فإذا ببعض الدَّبَّابات السّوريّة، وقد أُصيبَت قبل الوصول إلى سفح تلّ الشيخة، وقد قفز الجنود منها، وأخذت الصورة تتجلّى دافعة بالغباء الساكن في عقلي جانباً، والذي ما كان يعرف أن السّوريّيْن قادرون على استرجاع بلدهم المنهوب، وسمعتُ

من الداخل صوتاً يهمس في فزع: إنها الحرب، إذنْ، وتسلّل إلى قلبي شيء من الفرح: إنها الحرب. مَنْ كان يُصدِّق أن يجرؤوا؟ وسيطرت الفرحة عليّ، الحرب، إنها الحرب، إنها استعادة الكرامة، وعلا الغبار من السهل أسفل المخفر، وأخذ المشهد بالتّخفّي وراء العتمة، أتراه المساء؟ هل انقضى النهار، ولم أشعر؟ وأحسستُ بالجوع، الجوع الذي يعضّ، وقرّرتُ الرجوع إلى البَرَّاكَة، وأكل ما أجد من الطعام، فأنا لم أفطر اليوم، تحرّكتُ باتّجاه البَرَّاكَة، واكتشفتُ سهولة الحركة، ونظرتُ إلى يدي التي مسحتُ بها ذقني، وكان بها آثار دم جافّ، ولم أذعر، بل أتممتُ السَّيْر نحو البَرَّاكَة حيث الطعام البارد.

بعد أكل ساندويشة سريعة، لم أستطع تجاهل ما يجري عند سفح تلّ وردة، فقرّرتُ الخروج، لأرى إلى أين وصل السّوريّون، وما إن غادرت البرَّاكَة حتّى سمعتُ صوت أقدام متعبة تتسحّب على الحصا، التفتُّ باتّجاهها، وكان الميجور الإيطالي، فاتّجهتُ إليه فرحاً: أرأيتَ؟ أرأيتَ؟ أرأيتَ إلى شجاعة السّوريّيْن في سعيهم إلى استرداد أرضهم من عدوِّهم؟ ولمّا تأخّر في الجواب، خمّنتُ أنه سكران، وكنتُ على حقٍّ في تخميني، فلقد تحرّك باتّجاه المرقب المتقدّم عن المخفر، وصرختُ أُحذِّره، ولكنه تابع المسير المتعثّر، ولحقتُ به خائفاً من طلقة قنّاص عدوٍّ، فكيف للقنّاص أن يميِّز بين الإيطالي والسّوريّ في هذه العتمة التي لا يكشف عنها ظلمتها الدامسة إلا وميض الطلقات والقنابل البعيدة.

انحنيتُ وخطوتُ في اتّجاه المرقب مخاطِراً بإصابة من القنَّاص الكامن مواجِهاً للمخفر على الجانب العدوّ، وعلى مبعدة مئتَي متر فقط.

كانت جماعة من الجيش السّوريّ قد تخلّت عن هذا العشّ في أثناء الهدنة المؤقّتة بعد حرب العام ١٩٦٧ الكارثة، كنتُ أعرف بالمنع الصارم

عن الانسحاب من مراكزنا السّوريّة المتقدّمة، فوجود مقاتل سوري واحد في المركز السّوريّ المتقدّم حتّى بعد سقوط ما وراءه من الأراضي السّوريّة هو في عُرْف القوّات الأُممية التي ستُحدِّد مكان الجيشَيْن بعد الهدنة بوجود ولو فصيل واحد "وأكرّر": ولو بوجود جندي سوري واحد، فهو بقاء، واستمرار للجيش السّوريّ، وقال ما ظللْنا نردِّده طويلاً: إن وجود جندي سوري واحد في مركز متقدّم في الجولان بأهمّيّة وجود فيلق كامل، وتأكيد على احتفاظنا بهذه الأراضي، وتحدّث عن خطيئة السّوريّيْن في أواخر الحرب الماضية حين تخلّت الفصيلة المدافعة عن العشّ ليلاً "وتردّد قليلاً" ربّما انسحبوا مستوحِشين، وربّما خائفين، فتركوا العشّ ليلاً على نِيَّة العودة إليه صباحاً، ويبدو أن الإسرائيليّيْن كانوا يراقبونهم، فقاموا باحتلال العشّ بعد انسحاب السّوريّيْن منه، ولمّا عاد السّوريّون صباحاً، أطلق الإسرائيليون النار عليهم، وتغيّرت الـ جغرافيا.

ارتميتُ على الميجور الإيطالي، فرميتُهُ أرضاً، وحينئذ قال بصوت مخمور: ليست حربي. فلماذا أموت في حرب ليست حربي؟

جررتُهُ باتّجاه الملجأ المسقوف بالإسمنت المُسلَّح على طبقات، ليحتمل معظم الضربات المباشرة، وكنتُ أظنّ في الشهور السابقة أننا لن نكون في حاجة إليه، بل كنتُ أسخر منهم سرّاً: جبناء يفكّرون في النجاة قبل القيام بالواجب، جررتُهُ ألهث، ولكني جررتُهُ، ولم يكن يقاوم، بل ظلّ يُكرِّر مخموراً: ليست حربي، ليست حربي، ثمّ يصرخ بصوت تعلو عليه أصوات التفجيرات في السهل: ولا أريد الموت.

كانت رحلة جرّ الميجور الإيطالي لا تزيد عن بضعة أمتار، ولكنه كان ثقيلاً، ومخموراً، لم يكن يقاوم، وهذا ما خفّف بعض العناء عنّي، ولكنه كان بديناً، وسكران لا يقوى على مساعدة نفسه، وكان كل ما يصدر عنه قوله: ليست حربي، ليست حربي. ولا أريد الموت.

وصلتُ إلى باب الملجأ، وصرختُ أنادي الكابتين الهولندي لمساعدتي في إنزال زميله الميجور إلى الملجأ، فلم يردّ، تركتُ الميجورالإيطالي بعد إجلاسه وإسناده إلى جدار الملجأ، وهبطتُ إلى أسفل الذي كنتُ أعرفه جيِّداً، فلطالما أجرينا البروفات على اكتشاف كل ما فيه من لا سلكي، وطعام معلَّب، وماء في زجاجات، تستبدل كل فترة، وأَسِرّة عليها فرش وبطَّانيَّات لثلاثة أشخاص، أي أن الضابط السّوريّ كان يُفترَض أن يكون بين المحتمين في الملجأ.

عدوتُ على الدرج، أبحث عن الهولندي، ووجدتُهُ منكفِئاً على الطاولة دون حراك، ولهُنَيْهَة خطر لي أنه ميت، وكنتُ أعرف حظّي الذي يختار لي أسوأ المصائر، واقتربتُ منه: كابتين، كنتُ أناديه، لعلّه نائم، فيستيقظ، كابتين، وهززتُهُ، فاهتزّ، وانحنيتُ عليه، وأنصتُّ أريد معرفة إن كان يتنفّس، ولكني ما زدتُ على تحفيز حواسّي، فأسمع صوت التفجيرات البعيد، فقد كان باب الملجأ مفتوحاً. تجاهلتُ أحداث الخارج، فأنا الصاحي الوحيد بين سكرانَيْن، ويجب أن أجعلهما يكتبان التقريرالعادل، أي المدين للاعتداء الإسرائيلي، وتناولتُ زجاجة ماء إيفيان فرنسية، فسكبتُ منها على وجهه، أريد له أن يستيقظ، وسكبتُ، وأكثرتُ من سكب الماء على وجهه، وتحرّك قليلاً، وكأنه أفاق، وعند إفاقته، نظر إليّ غير فاهم، ولمّا حدّثتُهُ عن الميجور الإيطالي، لم يفهم، بل انتصب، ومضى إلى السرير المنكوش، واستلقى عليه.

سمعتُ صوت وقوع، فأسرعتُ إلى الدرج خائفاً أن يكون الإيطالي قد أُصيب بجرح ما من وقوعه على الدرج.

لمستُ جبينه، فكان دافئاً، وهززتُهُ بشدّة، فمال على جانبه، كاد أن يقع عن الدرج، فاضطررتُ إلى الإمساك به بقوة وتعديله، وعندئذ فتح عينَيْه

الغائمَتَيْن، وقال شيئاً أعتقد بالإيطالية، فقلتُ له بالإنكليزية: ميجور، أنتَ في سوريا، ولستَ في إيطاليا، انتبهْ. أرجوكَ، الكابتين الهولندي سكران، ويرفض أن يفيق، ولكنه تمتم في آلية: هذه ليست حربي، ولا أريد أن أموت بالمجّان، لا أريد، وحين فشلتُ في إيقاظهما، جلستُ على كرسي قريب، أفكّر في المأزق الذي وقعتُ فيه، ضابطان أُمميان، وسوري مرتبك مضطرب، والإسرائيليون على الجانب الآخر ينتوون الشّرّ، والحرب القائمة خارجاً، مَنْ يدري إلامَ تؤول؟! اتّجهتُ إلى الدرج متثاقلاً، لا أعرف كيف أخرج من هذا المأزق، وإن خرجتُ، فهل أخرج منه حَيَّاً؟ وصلتُ إلى سطح المخفر، ووصلت الانفجارات والمشاعل المضيئة تنير وتصمّ الموجودين في المخفر، إن كانوا صاحين، اتّجهتُ إلى المرقب، وكان المرصد على جبل الشيخ عاتماً، وتساءلتُ: ترى ما أحوال أبطالنا في المرصد الآن؟

كنتُ قد وصلتُ إلى الوضع الذي كان فيه الهولندي والإيطالي، ولكنها حربي أنا، حرب السّوريّيْن المذلّين المهانين الذين يريدون استرجاع ما فقدوه بفَقْد الآباء والأجداد له، وتوقّفت لهُنَيْهَة أفكّر: ولكني أتّفق مع الميجور الإيطالي في تفصيلة واحدة: لا أريد الموت الآن، اليوم، قبل إنجاز الأحلام التي وضعتُها لنفسي قبل الاقتناع بكلام سعيد، والالتحاق بالجيش، وهروبه بجِلْده ناجياً يحمل شارة "خدمة ثابتة"، ووقوعي في فخِّ الحرب غير المتوقّعة لضابط غير متوقّع، في زمن غير متوقّع أووووف، وهل ينال الإنسان إلا غير المتوقّع؟! وهل يموت الإنسان حسب توقّعه؟! هههههه لو كان الموت حسب التوقّعات، لَمَا مات أحد.

انقضت الليلة الأولى، وانقضت معها المفاجأة والرعب، ولم تنقضِ التفجيرات والصواريخ وتوقّع سقوط واحد منها عليكَ، فتنتهي الرحلة، نمتُ في حالة من التعب والهلوسة، بينما كان الذهول في نهوضي وأنا

أسمع الانفجارات التي لم تُفاجِئني، هل يعتاد المرء على مصافحة الموت؟ هل يعتاد الإنسان حتّى على التفجيرات السَّاعيَّة واليومية؟

خرجتُ من البَرَّاكَة على عادتي، في تحية جاريّ الأُمميّيْن، وهما يمارسان رياضة الصباح، ولكنهما كانا ما يزالان في الملجأ: ترى هل استيقظا؟ كان باب الملجأ ما يزال مفتوحاً، فنزلتُ على الدرج، وأنا أسعل، وأُنبِّههما إلى قدومي، ولكنْ، ردّاً لم أتلقَّ، فأكملتُ النزول.

كان الملجأ ما يزال مضاء بضوء البطَّاريَّة الكبيرة، فقلتُ على العادة: صباح الخير. ولكني لم أتلقَّ ردّاً أواحتجاجاً، ولو ساخراً: أيّ خير؟ أيّ خير تتحدّث عنه؟!

كانا مايزالان حيث تركتُهُما بالأمس.

تركتُهُما في الملجأ منزعِجاً لإصرارهما على النوم رغم القتلى في السهل، وبروفة القتل في مخفر تلّ الهوى، أي نحن، وعلى تلّ الشيخة الهدف.

كان ما أيقظني من نوم التعب والإرهاق أصوات قوية، كانت تهز البَرَّاكَة حتّى لتكاد تطير بها من حفرتها، حاولتُ القيام أستكشف ما سرّ هذه الأصوات التي لا تشبه أصواتاً سمعتُها أو عرفتُها، كانت آلاف القنابل والصواريخ والرَّشَّاشات تنطلق من لا مكان.

عَلَتْ فجأة أصوات الصواريخ تهدر، وكان عليّ أن أخرج إلى المرقب، لأحدّد المكان الذي تصدر منه القنابل والصواريخ والصواريخ المُسيَّرة سلكيّاً "المالوتكا"، وهممتُ بالقيام للخروج إلى الباحة، ولكني تمايلتُ وارتميتُ خارج البَرَّاكَة، من شدّة ضغط الأصوات والانفجارات، ناديت الرائد الإيطالي مستعيناً دون جواب، وناديتُ النقيب الهولندي، ولا ردّ، فتحاملتُ محاولاً القيام رغم السحجات في الركبَتَيْن والكفَّيْن، ولكن الركب

خانتني للمرَّة الثانية، جرَّبتُ الزحف، فقد كنتُ مضطراً إلى الوصول إلى المرقب، فلعلّهما مختفيان وراء عربة المراقبة التي صُنعت جدرانها كاملة من الزجاج المقوَّى بشرائح من البلاستيك غير المرئي، وكانت تكشف السهل، والتلال المحيطة به، وكان البلاستيك الحامي للزجاج من التَّفتُّت، يحمي ما حولها أيضاً من الشظايا الممكنة بعد تفجير قريب.

كان الزحف عذاباً حقيقيّاً، ولكني أكملتُ الزحف، وأخيراً رأيتُ المرقب بمنظاره المعظَّم، ولو أني مازلتُ بعيداً عنه، رأيتُ المرقب، ولكني لم أرَ الضابطَيْن الأُمميَّيْن، وتخيَّلتُهما وراء عربة المراقبة، فناديتُ عليهما، ولكنْ، لا ردّ. وأخيراً وصلتُ إلى المرقب، ورأيتُ المكافأة الفرح. كان الجنود السّوريّون قد صنعوا جسراً حديديّاً، يعبرون فوقه إلى جولانهم متجاوزين الحاجز المائي الذي صنعه وزير الدفاع الإسرائيلي، وكانوا يسمّونه حاجز ألون نسبة إلى وزير الدفاع الإسرائيلي الجنرال ألون.

كانت المخافر الأُممية مزوَّدة دائماً بملجأ مُسلَّح قادرعلى مقاومة قنبلة، تستطيع تدمير بناية صغيرة أو على إحراق قرية بسيطة العمارة، في الملجأ زاد وماء يكفيان لأُسبوعَيْن، وكانوا يغيِّرون المخزون كل فترة، يخافون منه فساد الطعام الذي يمكن أن يؤذي الضّبّاط، وكان الزاد معلَّباً بطريقة جيِّدة، والماء محفوظاً في زجاجات إيفيان الفرنسية بعيدة عن الشمس التي قد تُعرِّضها وتُعرِّض شاربيها للتَّلوُّث، وكنتُ أشهد تغيير الزاد والماء في كثير من المرَّات مع وصول فريق الخدمة المؤلّف من موظّفين محلِّيِّيْن "سوريّيْن أو مَنْ هو في حكمهم" ممّنْ يقومون بهذه الخدمات كلها، ويقومون أيضاً بتنظيف المخفر، وتجديد ما اهترأ منه.

فجأة سمعتُ صوت انفجارات خفيضة، تبعد عن المخفر بعض الشيء، فأدرتُ المنظار، أبحث عن مصدر التفجيرات البعيدة، ولمفاجأتي رأيتُ المشهد.

رأيتُ ما لم أكن أتوقّع رؤيته، وكأنه في القرية المجاورة جباتا، أبعدتُ المنظار، لأتأكّد ممّا أرى، كان المشهد شديد البُعد، فلقد كان صوت الطلقات منطلقاً من المرصد الذي كان سوريّاً، واحتلّه الإسرائيليون، ليستطيعوا منه مراقبة السَّيَّارات على الطريق إلى دمشق والخارجين منها.

كانت عدّة طائرات هليكوبتر تطير قريباً من المرصد، وكان المشهد صامتاً، فلم يكن من الممكن انتقال الصوت هذه المسافات كلها، كنتُ أراهم في ثياب القوّات الخاصّة، وهم يقفزون من الطائرات، يهاجمون المرصد برشّاشاتهم، أو تصيبهم رصاصة من المدافعين الكامنين في المرصد، فيسقط المهاجمون لبُعدهم دون أنّة.

المشهد كان خارقاً للسكونية التي عرفناها من قبل، وكان في شجاعة الشّبّان المهاجمين للمرصد ما يثير تمنّي مشاركتهم في معركة استعادة المرصد.

و فجأة أخرجني من تأمُّلاتي سماع دحرجة حصى قريبة، التفتُّ متوتِّراً. وكان الرائد الإيطالي، فهتفتُ: تعال وتفرَّج، مشهد لن يتكرّر، شبَّان يهاجمون المرصد، قُدْس أقداس الدعاية الإسرائيلي، لكنه أجابني بلسان ثقيل: هذه الحرب ليست حربي، فلمَ تريدني أن أنغمس، ولو عاطفيَّاً فيها؟ واستدار عائداً إلى الملجأ، ولكن خطواته كانت غير متوازنة. وعرفتُ أنه كان يشرب في الملجأ، لا يريد سماع أصوات القنابل، حاولتُ اللحاق به، ولكني قبل أن أتمكَّن من ذلك لاستكمال الحديث، انزلق على درج الملجأ، ليختفي رأسه العاري في الدرج الهابط، لم أحاول اللحاق به، فلقد عرفتُ وضعهما، وهما مَنْ كان محايداً أو يفترض، فإذا به منغمس في حروب الشرق الأوسط، وكان عليّ أن أنتظر حتّى الغد، لأراهما في الكارافان، فقد هدأتْ قليلاً أصوات المتفجّرات، بل ربمّا انتقل الزخم إلى مكان آخر في

الشرق السعيد، وخفتت الانفجارات، ما عدا بعضها بين دقيقة وأخرى، تعلن أن الحفل ما يزال قائماً.

كان الوضع مُرِبكاً جدًّاً، بالنسبة إليّ، فالواقع الميداني يفترض منّي أن أشعر بالخوف والذعر والرعب من شدّة الضربات والانفجارات والقذائف والصواريخ التي تمرّ وتتهاوى بالقرب من مقرِّنا، ممّا يجعل الإنسان يشعر بقرب ودُنُوّ أجله، إذنْ، هذه هي الحرب العبثية التي لا تحتمل فكرة المراقبة والمشاهدة عن قرب، فهي لن ترحم لا إنساناً ولا حيواناً ولا نباتاً، وفي الوقت نفسه، نعم، كانت هي تلك الحرب المنتظَرَة التي تحدّثتْ عنها كُتُب الآباء والأجداد، الحرب المشتهاة، حرب تحرير الأرض، والعرض والكرامة، تلك التي أبكتْ رجالنا قبل أُمّهاتنا طويلاً في انتظارها، تلك التي حفظْنا أغاني وأناشيد عربية وأهازيج قومية ونحن نفكّر فيها صغاراً، هذا ما كانت الأُمّة العربية تنتظره، ردّ الكرامة حسبما ربَّتْنا الدعاية القومية ومارشات الإذاعة المصرية والسّوريّة، من أجل هذا كنتُ أرتمي من صدمة ضغط القنابل، وأعود للنهوض، مرَّة باسماً ومرَّة باكياً، مرَّة دامياً ومرَّة حانياً، كانت هي كل شيء، نسيتُ فيها أُمّي في دمشق، وزوجتي وابنتي سميرة وسهير في الحسكة، نسيتُ فيها هواياتي وأحلامي كلها، نسيتُ ذسبينا، ونسيتُ نفسي، وكدتُ أصرخ: لا، لم أندمْ، ولكني لم أفعل، لأنه ما من أحد سيسمعني هنا الآن، كانت هي الحرب، التي فجَّرت فيّ ما ما لم أكن أعلم أنه موجود.

في اليوم الخامس للحرب، كانا في الكارافان، يشربان الكافيه لاتي، كما كان الإيطالي يدعوها، أو الكافيه أو ليه كما تُنطَق في الفرنسية، وقد لمحاني وأنا أمضي إلى الحمّام، فناداني الهولندي، وحين التفت، أشار إلى علبة النسكافيه الزّجاجيّة، وقال: ننتظرك، لا تتأخّر.

كان كابين التواليت خارج المخفر، وليس فيه ما يميّزه إلا من الداخل، حيث عُلِّقت صورة لامرأة عارية شديدة الجمال، وكانت قد انتُزعت من مجلّة بلاي بوي، أو البنت هاوس المنتشرَتَيْن في المخافر كلها، وتُعلّق على الجدار الدّاخليّ للتواليتات كلها، فهي واضحة، تكاد تغطّي الباب من الداخل.

كانت هذه الصورة واحدة من عدّة صور تميِّز المخافر في كل منها، وتتميّز بتغيُّر الصورة العارية لحسناء أميركية، وكنتُ في كل مرَّة أراها أتساءل: ولكنْ، ما علاقة هذا العُري النّسويّ بالنشاط الذي يمارسونه، وأمارسه في التواليت؟

كانا ينتظرانني في غرفة المراقبة، وكنتُ أسمع صوتاً ثقيلاً لرصاصات تنطلق من أحد الجانبَيْن، ولم أكترث بتحديد الفاعل، ومشيتُ متهادياً إلى العربة الزّجاجيّة، ولم يقم أيٌّ منهما لتحيّتي على عادتهم، وقال الرائد الإيطالي وهو يصبّ في الفنجان الكبير الماءَ الساخن فوق القهوة والحليب، ثمّ يدفع الفنجان أمامي مع قطعَتَي بسكويت، ثمّ وبعد جرعي للجرعة الأولى من القهوة سريعة الذوبان، قال الرائد الإيطالي: هه، ماخطّتكَ للخروج من هذا الفخّ الذي وجدْنا أنفسنا فيه؟ وأشار إلى ثلاثتنا، ربّما استمرّت هذه الحرب لشهور، فكيف تصنع؟ وكيف نصنع؟ وهززتُ كَتِفَيّ في غير اكتراث ظاهري، فلقد أهمّتْني لهجته، قلتُ لا أدري، فهي المرَّة الأولى التي أتعرّض فيها لتجربة كهذه، وضحكا مجاملة: وهل تعتقد أن الكثيرين في هذا العالم غير الشرق أوسطي قد تعرّضوا إلى تجارب مماثلة؟ جرع الهولندي آخر ما في فنجانه من قهوة، فبدت تفّاحة آدم واضحة في رقبته، ثمّ وضع الفنجان: الحقّ أن القيادة في جيروسالم كانو يتحدّثون إلينا لأكثر من ساعتَيْن ليلة الأمس، ثمّ قال مُفاجِئاً: أين كنتَ في الليلة

الماضية؟ واعترفتُ بأني سهرتُ حتّى أدركني النعاس وأنا أرقب أضواء الرصاصات والقنابل الخارجة من الدَّبَّابات، وتابعتُ، أخيراً استلقيتُ على سريري، فتغلّب النوم على الانفجارات. التفت الهولندي إلى الإيطالي، وقال: أفلم أقلْ لكَ هذا؟ التعب سيّد، من الصعب عصيانه، ضحك الاثنان في ودّ، قال الإيطالي: نحن وَجدْنا ووَجَدُوا، وأشار إلى البعيد حيث القيادة في جيروساليم، الحلَّ لمشكلتينا، فنحن نقود في عربتنا الحاملة للراية الأُممية، ولن يعترضنا أحد، والتفتَ إليّ في ودّ: ولكنْ، ماذا عنكَ؟

كان السؤال مُفاجِئاً، فلم يخطر على بالي أبداً أن أُسأل مثل هذا السؤال، بل حتّى إني لم أفكّر في السؤال، وفي الإمكانيات المتاحة للإجابة عنه، وقلتُ في غباء: لا أعرف. قال الهولندي مُتحامِلاً على ضيقه " كيف؟ لا تعرف؟ نحن فكّرْنا، وحاولْنا، وأنتَ تقول لا أعرف!

قلتُ: حقيقة كان الوضع كله مُفاجِئاً لي، ثمّ حاولتُ التظاهر بالأهمّيّة، فقلتُ: أنتظر رسالة، أو طريقة ما تضعها القيادة أمامي، أليسوا المسؤولين عنّي؟

تبادلا نظرة تعني: ألم أقلْ لكَ؟

جرع الإيطالي آخر ما في فنجانه، ثمّ قام وهو يقول: طيّب، سنفكّر في مخرج من هذا الوضع.

الصمت

كانت الجبهة السّوريّة في الشمال قد سكنت، والانفجارات قد توقّفت، كان المهندسون الإسرائيليون قد أنهوا تمهيد الطريق المنطلق من خندق آلون عبر السهل حتّى الطريق المؤدّي إلى خان أرنبة، ثمّ إلى طريق دمشق. كنتُ أراقبهم من مرقبي العالي غير المرئي منهم، أو هذا ما ظننت، حتّى قال لي فيما بعد أسابيع المحقق مرَّة: وماذا كان بإمكانكَ أن تُسبِّب لجيشنا من أذى وأنتَ الأعزل المراقَب جيِّداً من الجانب الآخر للسهل الأعزل، لا تملك إلا جهاز لاسلكي، كنّا قد قطعنا التواصل بينه وبين غرفة العمليات في دمشق، وكانت، جملته هذه هي الصفعة القاسية لما ظننتُهُ عوناً لجيشي في حربه ضدّ المستعمرين الأشكيناز، وكانت صدمة الإحساس بالسخافة والدون كيشوتية، كان لا بدّ منها للعودة بي إلى الأرض. حتّى لوكان ثمن اصطدامي بالواقع المرُّ كسر ساقيّ أو صلبي.

كنتُ أتمرّق غيظاً من رؤية الشماتة في عيون زميلَيّ في المخفر، أو هذا ما تخيّلتُهُ مغموراً بالوحدة والخوف وتخلّي العالم عنّي، كان السؤال المُلحّ عليّ في أكثر الأوقات: أهذه هي المكافأة على إقامتي في المخفر، أدافع بوجودي تحت راية الأُمم المتّحدة عن الأرض السّوريّة؟

كانت علاقتي مع الأُمميَّيْن قد اختُصرت حتّى التّحيّة الصباحية أو المسائية، وحين كانا يجعلان من غرفة المراقبة التي كانت مزجَّجة من جوانبها الأربعة مكان راحة مُكيَّفاً بهواء الخريف المعتدل، يشربان البيرة، وهما يثرثران في استرخاء في أُمسيَّات تشرين، أمّا أصوات التفجيرات التي

تُسمَع في البعيد تقول إن الحرب ما تزال قائمة، وشعرتُ بالحَرِّ الشديد، ولستُ أدري أكانت بداية لحمّى داخلية؟ أم أنه الإحساس بالغيظ والخسارة؟ وفي إحدى المرَّات، وكنتُ أعود إلى برَّاكتي، فاجأني النقيب الهولندي يحمل إليّ فنجان كافيه أو ليه، ولكني اعتذرتُ شاكراً، واتّجهتُ إلى البرَّاكَة، أحاول الراحة حين خرج من الغرفة الزّجاجيّة قائلاً: لماذا يبدو عليكَ وكأنكَ غاضب من أمر فعلْناه، أنتَ لا ذنب لكَ، ونحن لاذنب لنا. تعال نُثرثر قليلاً، وشدَّني من ذراعي، فانسقتُ معه، فلقد سئمتُ الصمت المحيط بي وبالمخفر.

جلستُ. ناولني النقيب فنجان النسكافيه الكبير، وكان ما يزال يُحرِّك ملعقة فيه لاستكمال ذوبانه، ثمّ وضعه أمامي على طاولة صغيرة، وعاد إلى الجلوس، وما كدتُ أجرع الجرعة الأولى حتّى قال الهولندي: حاولْنا الكثير من أجل خروج سليم من هذا الفخّ. نظرتُ إليه في جمود، لا أفهم إلامَ يريد الوصول حين قال: عرضْنا على القيادة في جيروسالم إخراجكَ من المخفر في سيَّارة الأُمم المتّحدة، وحتّى رأس الناقورة على الحدود اللّبنانيّة مع إسرائيل، ونظر إلى الإيطالي، وكأنه يستنجد به، ثمّ تابع بعد صدمتي بالنظرة الجامدة للرائد الإيطالي: وبهذه الطريقة، تخرج من الفخّ تحت راية الأُمم المتّحدة. ولكنهم في جيروسالم تردّدوا في قبول الاقتراح، حين ردّ رئيس البعثة هناك: الإسرائيليون يعرفون بأن السّوريّ ما يزال في المخفر، وبوجوده في المخفر يبدو وكأنه في "عتليت"، وكانت صدمة الجهل في أني لا أعرف عتليت، ولا أعرف مدلول الاسم، واستمررتُ في صمتي، أجرع الكافيه أو ليه، تابع الهولندي: ولن يسمحوا لكم بإخراجه في سيَّارة الأُمم المتّحدة، وتحت أنظارهم، ثمّ ماذا لو قبضوا عليه معكم، قبل تهريبه من إسرائيل رغماً عنهم؟ هل تريدون إدانة الأُمم المتّحدة في سعيها إلى التّدخّل غير السِّلْميّ في السياسات المحلِّيَّة؟

وأخيراً قال الهولندي بهمس المتآمر معي: ما رأيكَ لو خرجتَ في سيَّارة الأُمم المتّحدة، ودون إبلاغ السلطات الإسرائيلية، أي نائماً في المقعد الخلفي مُغطّى ببضع ثياب مُلقاة في إهمال؟

ولا أدري إن كنتُ حسن الحظّ حين رفضتُ ذلك المعروف، وأصررتُ على انتظار الحلّ من الحكومة السّوريّة، أم سيِّئ الحظّ كالعادة.

الحرب تترك المخفر الأُممي في سلام

في اليوم التالي عدتُ إلى الكراج المرتجَل في المخفر، لأجلسَ على كرسي الميكانيكي الملوَّث بشحم السَّيَّارات، أتأمّل القرية التي كانت تضجّ بالحياة قبل أيّام فقط، وهي اليوم ميتة، لا تعرف متى تبعث فيها الحياة! وعاد الضابطان الأُمميان إلى السُّكْر، والنوم في الملجأ محتميَيْن بمقولة الإيطالي: "هذه حرب ليست حربي، ولا أريد الموت المجّاني فيها"، وفي انتظار نجدة ما تأتيهم من دمشق، أو من تلّ أبيب، كانا يقضيان على زجاجات الخمرة بالترتيب غير العنصري، فالمشروبات كلها، بغضِّ النظرعن مصنعها وصانعها، سواء، ولم أكن على جرأتهما في الاستهانة بدماء البسطاء، فأقضي ساعات الحرب سكران.

كنتُ أشرب القهوة في مجلسي في الكراج، أتأمّل القرية، ولا أراها، فما كنتُ مُهتمَّاً برؤيته لم أره، وما كنتُ أشتهي رؤيته من نصر يستحقّه جيلي، لم يسعدني الحظّ بنواله. وفجأة، وقبل أن أنفض رأسي محاوِلاً الرفض، أو التّأكّد ممّا أرى، رأيتُهُ أو بالتدقيق لم أره، بل رأيتُ غباراً يتحرّك على طريق المخفر القادم من القرية، غباراً يصعد إلى الأعلى، ويثيره شيء ما يمشي على الدرب التّرابيّ، خرجتُ من لامبالاتي ونعاسي، أحاول التّأكّد ممّا أرى، وفي عصفة ريح عابرة كشفتُ الغبار، فرأيتُهُ، كان كلباً ضخماً، كلباً؟ لا، بل كان أكبر من الكلب، بل هو أضخم من الكلب، ولم أستطع

الجزم، فقد اندسّ في الغبار الذي أهاجه ثانية، وأخذت كتلة الغبار في التّقدّم نحو المخفر.

اهتممتُ لمرأى الكلب الضخم يتقدّم باتّجاه المخفر، وبحثتُ عن سلاح أدفعه به عنّي، ولكنْ، لا سلاح، فانحنيتُ إلى الأرض، وحملتُ حجراً ضخماً كما كنّا نفعل صغاراً، وفجأة سقط الحجاب الغباري، وبدا الكلب، كان كلباً جميلاً قوياً، وكان يدلي لسانه نحو الخارج في ظمأ واضح، قرّرتُ سقايته، سكبتُ من برميل في الكراج ما يملأ سطلاً صغيراً، وحين سمع صوت الماء يكركر في السطل اهتمّ، وانتبه، حاولتُ تجاهله، حين التفتُّ إليه، رأيتُ تكشيرته المرعبة عن أسنان صفر، فوضعتُ السطل على الأرض بعد خَضِّ الماء فيه، ولكنه شخر بقوّة وهرّ، فارتعبتُ، فلو قرّرعَضِّي، فليس هناك مَنْ يدفع عنّي، وليس لديّ في الكراج سلاح، أيّ سلاح بما فيها السّكّين.

قرّرتُ الانسحاب، فالمواجهة خطيرة، وشديدة الخطر، وما يدريكَ أن من الممكن أن يكون مسعوراً مكلوباً، وعضّته تعني الموت البطيء في هذه الصحراء الخضراء الخاوية من كل حياة، فالأحياء الوحيدون فيها سكارى كالأموات؟!

كنتُ قد قرأت مرَّة أن التحديق في وجه الحيوانات المفترسة قد يؤدّي إلى هجومها عليكَ، فالتحديق في العيون تحدٍّ على السيادة، ولم أنظر في وجه الكلب مباشرة، وإن تخيّلتُ حجمه وتقاسيمه، فخطر لي أنه ليس كلب رعاة، بل كلب من سلالة طيِّبة مُقدَّرة عند مربيِّ الكلاب، وبرز السؤال: ولكنْ، ما الذي جاء به إلى هذه القرية التي رأيتُهُ يخرج منها؟.

سمعتُ صوت لعق متعجِّل، فالتفتُّ لأكون في اتّجاهه، ورأيتُهُ يلعق الماء بسرعة العطشان من السطل، فكّرتُ بإطعامه، ولكنْ، ليس لديّ

ما يصلح لأكله إلا علبة مارتيديللا، تُرى هل سيستطيبها؟ وبدأتُ زحف الأقدام خارج الكراج، ولكنه شعر بحركتي، فرفع رأسه عن السطل، وأطلق هريراً، سمعته شديد القوّة، ما دفع الرعشة إلى عمودي الفقري، فتوقّفتُ مرعوباً، أنتظر خطوته التالية، ولكن ذلك الكلب لَمْلَمَ نفسه، وخرج إلى البعيد، حيث اختار جذع شجرة صغيرة، واستلقى تحتها وهو ينظر إليّ، حينها أحسستُ بأنه لن يغادر، وبأنه سيتحوّل إلى عنصر أساسي من جماليات هذا المخفر البرّيّ.

الحمائم ترفض عقابيل الحرب

تمطّيتُ سَئِماً من الأرق الطويل، وصوت الانفجارات تغطّي الأفق السّوريّ فقط، ولو بعيداً في الأرض السّوريّة التي لا أراها، رفضني السرير، فقمتُ، وأعدتُ التّمطّط، ثمّ خرجتُ من البَرّاكَة، وتأمّلتُ قرية جباتا الخشب التي فرضوا على سكّانها الهجرة إلى الداخل السّوريّ، والتّخلّي عن أشيائهم البسيطة وحيواناتهم وطيورهم شبه البرِّيَّة، وكأنها لم تسكن من قبل.

لاحظتُ أن الانفجارات قليلة باتّجاه قرية جباتا الخشب، فعدتُ إلى البَرّاكَة، أعدّ لنفسي فنجاناً كبيراً من القهوة بالحليب، وربّما استهلك تنظيف فناجين النسكافيه وكؤوسها وقتاً، لم أحسبه قبل وَضْع الماء البارد ليغلي على البوتو غاز، فحين خرجتُ من البَرّاكَة أحمل فنجان القهوة بالحليب، كانت الشمس أو نورها المنكسر قد أضاء الحقول أمامي، فاتّجهتُ إلى غرفة الكراج المَحميّ جيِّداً براية الأُمم المتّحدة. جلستُ على الكرسي العتيق، وبدأتُ رشف قهوتي.

نظرتُ ثانية إلى القرية المهجورة، حيث تتبدّى القرية، كانت الحمائم الكثيرة، والتي لم يستطع سكّان القرية اصطحابها، فتركوها لنصيبها،

كانت تطيرُ طيرانها الصّباحيّ على عادتها، وكانت أصداء الانفجارات قد توقّفتْ لسبب ما، فانتهزت الحمائم من بيض، وسود، وحمر، ومختلط الألوان، لتطير سعيدة بالسلام والهدوء، كانت تطير في مجموعات كبيرة، تُرى هل استعادت سلامها الخاصّ؟ ترى هل للحمائم سلام بعيداً عن تدخّل الإنسان، وتدريبها الذي يجعلها تُنهك الحمامة الضّالّة عن مطارها، ثمّ تحطّ، فتحطّ الحمائم جميعاً، بما فيها الحمامة الضّالّة، مطيعة لصاحبها الذي أطعمها وجوَّعها للأنثى، وأطلقها مُقيَّدة بشهوتها لشيء واحد فقط، للأنثى؟

فجأة انفجرت القذائف والقنابل والصواريخ دفعة واحدة، واستجاب الطرف الآخر، واندلع تبادل القتال من جديد، تُرى كيف يفكّر السّكّان الآمنون في سوريا الآن؟ كيف يتصرّف البسطاء الساعون إلى جَلْب الخبز لأطفالهم الآن؟ الفول؟ الحمّص؟ فطور الصباح العادي؟

يبدو أن أُذُنيّ اعتادتا التفجيرات، واعتادتا تجنُّب الطَّرَفَيْن لمواقع الأُمم المتّحدة، فلم تقربنا حتّى اليوم قنبلة ضالّة، ولا رصاصة عيار خمس مئة طائشة، ولمفاجأتي كانت غيوم الحمائم تعلو مرعوبة من انفجارات لا عهد لها بها، كانت تعلو، وتعلو حتّى تصبح لطخة ملوّنة في السماء الصّباحيّة، لا يمكن تمييزها، جرعتُ جرعة مطمئنّة في مخبئي في الكراج المؤقّت لسيارة قوّات الطوارئ، ثمّ تحوّلتُ بنظري إلى الغيمة الملطّخة باللون الأحمر المبكّر حين رأيتُ قطعة صغيرة تتسلّل من الغيمة، وتهوي باتّجاه الأرض، تهوي وتكبر وتهوي وتكبر حتّى استعادت حجمها الحمامي، وتوقّفتُ عن جرع النيسكافيه مشدوداً إلى مغامرة الحمامة المنفصلة عن الغيمة، وفجأة غابتْ عن ناظري، وقبل أن أقف لأتابع حركتها الغريبة، سمعتُ صوت ارتطام بالصفيح المغطّي للكاراج، ولم أستطع فَهْم ما جرى حتّى

رأيتُ الحمامة تهبط ساقطة عن باب الكراج المفتوح على طريق جباتا الخشب، اقتربتُ من الحمامة الساقطة، أحاول تهييجها فتطير، ولكنها كانت ساكنة، فتجرّأتُ، ورفعتُها عن الأرض، ولكنها كانت دافئة دفء الموت القريب، وفزعتُ من لقاء الموت على هذا الشكل، ولكن استمرار الانفجارات والقذائف جعلني أنظر إلى غيمة الحمائم في خوف، وإذ بي أرى الشهب تنفصل عن الغيمة، وتهوي، وارتعبتُ ممّا أرى، فدخلتُ إلى الكراج أحتمي من شهب الحمائم التي لم تخيِّب ظنّي، إذ علت فجأة أصوات ارتطام الحمام الميت رعباً وتعطّشاً إلى الأرض، بالسقف الصّفيحيّ، ثمّ صوت ارتطامها بالأرض، بالبساتين البعيدة، بالحقول المهجورة، وظلّت تتساقط وتعلو هاربة غريزيّاً من القذائف والقنابل، والصواريخ حتّى لم أعد أراها في السماء الصافية تُلطّخ نقاءها الأبيض المُزرَقّ.

كانت تلكم هي المرَّة الأولى التي أشاهد فيها حُلْماً سورياليّاً حقيقياً، لن تراه لا في فيلم سينما تلّ بونيول، ولا في لوحة تلّ سلفادور دالي، ولا في قصيدة لأندريه بروتون، كان كابوساً سورياليّاً ممّا تنتجه الحروب عادة في وضح النهار.

سكبتُ ما تبقّى من النيسكافيه على التراب، وغادرتُ الكراج إلى البرَّاكَة، لا أعرف ما أصنع، وعندئذ سمعتُ صوت عَدْوٍ لاهث على الطريق من جباتا، فخرجت مُستطلِعاً لأرى فَرَساً حمراء رائعة تعدو متّجهة إلى المخفر، وكان يتبعها عن قرب مهرٌ يماثلها لوناً إلا أن نهاية ساقَيْه الأماميَّتَيْن كانتا محجَّلَتَيْن بالبياض، وقفتُ مشيراً إليهما بالقدوم وأنا أُصفّر صفيراً خافتاً، ومُلوِّحاً بغذاء لهما في ذيل قميص بيجامتي المَطوِيّ، وكأني أحمل طعاماً لهما مُتظاهِراً بامتلاكه، كما كنتُ أشاهد رعاة الماعز يتظاهرون لاجتلاب الماعز الضّالّة إليهم، كانا يعدوان مقترِبَيْن، وفكّرتُ بسرعة في إيوائهما في المخفر غير مبال بالسَّكرانَيْن الأُمميَّيْن.

وصلت الفَرَس الأمُّ قريباً من المخفر، وكان الذعر يسيطر على حركاتها، والقنابل التي اعتادت أُذُناي على وَقْعها تُثيرها حتّى الهلاك، وفجأة، وفي أثناء اقترابي منها مشيراً، بفضل بيجامتي الرّياضيّة أني أحمل إليهما الطعام، كشّرت الأمّ فجأة عن أسنانها، ووقفت على قائمَتَيْها الخلفيَّتَيْن، وأخذت في الصهيل الجريح، لم أجرؤ على مزيد من الاقتراب، بل وقفتُ مذهولاً أتأمّل هذا الجمال المتوحِّش الواقف على ساقَيْن خلفيَّتَيْن تصهل في ذعر من أصوات الحرب المميتة.

فجأة هبطتْ متّكئة على السوق الأربعة، وبدأت العَدْوَ، فعدا مهرُها من خلفها، حاولتُ اللحاق بهما، لأعرف اتّجاههما، ولكني ما إن وصلتُ إلى الأرض المتصلِّبة للدرب المؤدّي إلى جباتا الخشب حتّى كانا يتّجهان إلى ما خلف المخفر ككل، فَعَدَوْتُ في إثرهما إلى المرقب أرى اتّجاههما، ولكني ما كدتُ أصل إلى المرقب حتّى رأيتُ المهر يلحق بأُمّه، أي إلى الجهة الأخرى من المخفر.

رجعتُ إلى الكراج، أنتظر وصولهما، ولكنهما كانا يَعْدُوَان في اتّجاه الجيش الإسرائيلي، ثمّ انتبهتُ إلى أنهما يطوفان حول المخفر، يرجوان عوناً من إنسان ما، يطمئنّان إليه.

استمرّا في دورانهما اللّاهث حول المخفر، يقفان بين الحين والآخر، ليُطلقا صهيلاً متضرّعاً أن يتقدّم أحد ما إلى نجدتهما دون أن يستجيب لهما إنسان، ولم أفكّر ثانية في خداعهما المكشوف بالتلويح بطعام، لا أملكه، وأمان لا أدعيه، كانا يَعْدُوَان استجابة لأصوات القنابل وحسب إرعابها الصوتي، وفجأة وصلتْ وانفجرتْ قنبلة كبيرة ربّما كانت من عيار الخمس مئة كيلو، فتوقّفت الأمُّ مذعورة وهي ترى غيمة الحجارة والتراب تعلو، فتغطّي كل ما يرى، ثمّ، وبهدوء أخذت الحجارة الصغيرة الطائرة، والغبار في النزول على الأرض في استسلام.

استدارت الفرس الحمراء تعدو في اتّجاه القرية المهجورة "جباتا الخشب"، لاحقتُهما بأنظار زائغة، ولكنهما اختفيا في المَدّ الغباري المهاجم، وآملاً في رؤيتهما ثانية، وقفتُ في خضمّ الأصوات الجهنّميّة، والغبار القادم من الجحيم حتّى انجليا، وبحثتُ عنهما في كروم القرية، وبين أشجارها، ولكنهما اختفيا، ترى هل نَجَوَا؟ وكيف ستعرف إن نَجَوَا، أم هلكا؟ وسمعتُ نحنحة الميجور الذي استيقظ أخيراً، فألقى عليّ بالبونجورنو، ومضى إلى كابين التواليت، حيث غاب حتّى عدتُ إلى المرقب، واتّخذتُ مكاناً مَحميّاً، وبدأتُ في مراقبة ما يجري هناك في حقل يوم القيامة.

وكان يوماً عاديّاً لا يُميّزه إلا الانفجارات من العمق السّوريّ. كانت حرب تشرين التي انطلقت في السادس من تشرين الأوّل ١٩٧٣ تُبشّر السّوريّيْن بنصر وتحرير كبير للأراضي المحتلّة عام ١٩٦٧، كانت فرحة رؤية الدَّبّابات السّوريّة تتقدّم لعبور معبر آلون الفخّ، وتتقدّم عند سفح تلّ الشيخة، أو عند تلَّة الأرانب، هذه الفرحة كانت قد انقضت، وبدأت الإصابات في دبَّابات الجانب السّوريّ، وتخلَّيتُ عن مراقبة مسيرة الحرب الساذجة منذ أن أسقط أحمق في عشّ لطرد الطائرات المعادية في الجيش السّوريّ، طائرة سورية، كانت تقصف مصفاة نفط ميرون في إسرائيل، فطاردتْهُ طائرات الميراج الإسرائيلية بعد إنجاز مهمّته وعودته باتّجاه سوريا، فلمّا اقترب من الحدود السّوريّة أخذ يرفرف بجناحَيْه مشيراً إلى السّوريّيْن على الأرض، يُعلمهم أنه صديق حسب التعليمات الدّوليّة، ولكن جنديّاً سوريّاً كان في عشٍّ لرشاشات الخمس مئة، وهي رشّاشات لم تصبْ طائرة في أثناء تحليقها يوماً، فلقد كان أقصى ما يمكن لها القيام به هو طَرْد الطائرات المُغيرة بتهديدها بالإصابة.

هذا الجندي ما كاد يرى الطائرة المنخفضة الطيران حتّى رماها بصلية

من رشاشه، فأُصيبت في خزّانِ وقودها، ورأيتُها تتوقّف مصدومة في الهواء غير مُصدِّقة أن إصابتها كانت في أرضها وبين ناسها، توقّفت بعد إصابتها في الهواء، وكأنها عاقلة لا تُصدِّق، أو طير أصابه الصياد بمقتل، ثمّ تنقلب على قفاها، وتأخذ في الانزلاق الشّراعيّ المميت نحو الأرض غير الحنون، كان السهل محاطاً بالتلال الصَّخريَّة، ولا أمل للطَّيَّار في إعادة الصعود للنجاة من صدم الأرض. تابعتُها بنظري العاجز تبتعد، ورأيتُ اصطدامها بالأرض منقلبة على قفاها، رأيتُ ارتفاع موجة من غبار إلى السماء، تلاه وهج نار قوية، واستدرتُ مبتعداً، فلم أستطع تحمّل هذا المصير.

سوف أتذكّر هذه الحادثة المؤلمة في منزلي في دمشق، أي بعد الشهور التي قضيتُها في إسرائيل، والتي لم تجب عن أسئلتي الكثيرة، حيث زارتْني امرأة في السواد، وكانت أخت الطَّيَّار الشهيد، وسألتْني إن كنتُ أعرف شيئاً عن أخيها الشهيد، فكل ما تعرف وقد أخبرها بذلك عاملون في الصليب الأحمر بأن آخر عمل قام به هو ضرب مصفاة ميرون في إسرائيل، ولم أجرؤ على إخبارها عن نهايته المفجعة على الصُّعُد كلها.

إسرائيل التي لا أعرفها

كانت سيَّارة الجيب تتحلزن صاعدة التَّلّ الذي يجثم على قمّته مخفرنا، وكان صوت السَّيَّارة أوّل صوت نسمعه منذ أيّام، أي منذ اندلاع الصوت الأوّل لقنبلة، أو سماع صفير رصاصة.

كانت الحرب قد أحرقت سبعة أيّاماً لنا، ونحن في حصارنا بين الموت والحياة، بين القذائف والحمام المتساقط، هذا العبث كله الممتزج بالدهشة، كانت علامات العجلات من خلف السَّيَّارة تشير إلى أنها قادمة من المعبر الواقع بين تلّ وردة وتلّ الشيخة، وأُصبتُ بالارتباك، وتساءلتُ سرّاً: هل يمكن أن تكون سيَّارة الجيب هذه إسرائيلية؟ وإلا فكيف يجرؤون على السَّيْر دون قوّة عسكرية تحميهم؟ أو فلمَنْ هذه السَّيَّارة؟ وكيف تعبر المناطق الملغومة دون خوف؟ وذكرتُ السَّيَّارات الإسرائيلية التي كانت تقوم بتنظيف الحقل من الحجارة المتناثرة لأيّام مضت، والتي رأيتُها خلال اليومَيْن الماضيَيْن، وعرفتُ أن الطريق قد مهّدت لعبور السّيّارت التي تقوم بمهمّة ما. وذكرتُ ما حدّثونا به مراراً، أن كل موقع سيجده العاملون في قوّات الطوارئ، وفيه جندي سوري واحد، هو بمثابة فيلق سوري يدافع عن الأرض السّوريّة، وذكرتُ محاولة الأُمميّيْن إقناعي بالهروب في سيَّارة الأُمم المتّحدة، ورفضي لهذه المغامرة مُفضِّلاً تدخّل الجيش السّوريّ المسؤول عنّي لإنقاذي من فخ تلّ الهوى إلى حيث الوطن. وهرعتُ إلى البرَّاكَة، وعلى الطريق إليها، لم أر أيّاً من الرائد الإيطالي أو النقيب الهولندي،

فاندفعتُ أحلق لحيتي التي لم أحلقها منذ المتفجّرة الأولى عند الموقعة العظيمة التي دارت.

ثمّ خمدت الأصوات الحربية لاحقة بمواكب الدَّبَّابات الإسرائيلية في اتّجاه الداخل السّوريّ، وكان جزء من حاسة السَّمْع لديّ منصرفاً إلى الخارج يتسمَّع الأصوات الممكنة، ولكن سيَّارة الجيب ما تزال بعيدة.

غسلتُ وجهي ونشرتُ قليلاً من الكولونيا، ثمّ غيّرتُ الثياب الرّياضيّة التي أرتديها في المخفر عادة ببدلة عسكرية أنيقة، ممّا كنتُ ألبسه في الطريق إلى الجبهة، وسمعتُ من البرّاكَة صوتَيْن مختلفَيْن، أوّلهما صوت سيَّارة الجيبُ المقتربة، وثانيهما حركة أقدام على الحصى المفروش في الباحة.

في طريقي إلى الخروج من البرّاكَة، وقع بصري على صورتي النصفية. في المرآة، كنتُ أنيق اللباس أناقة تليق بمحاوركفء للإسرائيلي، وحليق اللحية كَمَنْ يمضي إلى لقاء عزيز، أو عزيزة، ويريد أن يبدو بالشكل الأجمل، وخرجتُ. كان الضابطان الأُمميان يقفان إلى جانب الكارافان يُدخّنان، والغريب أنهما فُوجِئا بأناقتي، بل برؤيتي أخرج لِلقاء الإسرائيلي.

حيَّيتُهما، فحيّياني في ارتباك، كان صوت سيَّارة الجيب يعلو مقترباً، أخذت الأفكار تهاجمني: كيف يبدو الإسرائيلي؟ أهو يشبهنا؟ أم أنه شيء مختلف؟

صوت السَّيَّارة الجيب كان يقترب، وحرصي على رؤية الإسرائيلي الذي لم أره من قبل إلا عبر المنظار المقرّب، ولم أعرف من اليهود إلا جورج أشكنازي في مصر وإبراهيم الذي نسيتُ اسم عائلته منذ تركتُ مدرسة العازارية في دمشق.

دخلتْ سيَّارة الجيب إلى المخفر، تحمل العَلَم الإسرائيلي، هبط منها عسكري يشبه السّوريّيْن في قامته، وفي ملامحه، وكان لا يضع رتبة تدلّ على كَتِفِهِ، بل كان يلبس زيّ العمل والتدريب فقط.

تأمَّلَنا بسرعة وكأنه يريد التّأكّد: أيّنا السّوريّ؟ وأيّنا الأُممي؟ وقبل أن يسأل، أو يخمّن تقدّم الرائد الإيطالي مُقدِّماً نفسه وشريكه في قوّات الطوارئ، فقال العسكري دون رتبة في عربية ملكونة متقدّماً منّي: أنتَ الملازم الذّهبيّ؟

ولمّا أجبتُ بالإيجاب، قال: أنتَ على أرض يحتلّها جيش الدفاع الإسرائيلي، ولمّا حاولتُ الاحتجاج قال: وسترافقنا الآن إلى مركز القيادة.

نظرتُ باتّجاه الضابطَيْن الأُمميَّيْن مستنجِداً، ولكنهما استدارا متَّجهَيْن إلى الكارافان، كأن لاعلاقة لهما بما جرى ويجري، أشار العسكري دون رتبة إلى سائق الجيب، فتقدّم مُسلَّحاً برشّاش عوزي، قال العسكري دون رتبة:

أرجو ألا تُسبِّب لنا أو لجيشكَ أيّ إحراج، فتفضَّلْ معنا، وهتفتُ فيما يشبه الهمس المحرج مخاطِباً الرائد الإيطالي:

ميجور، ولكنه أغلق باب الكارافان، واختفى.

تقدّم الرجل الإسرائيلي دون رتبة، وقال: أعتقد أنه من الأفضل تركنا نقوم بمهمّتنا دون إحراج لأحد. وأمسكَني من ذراعي بقوّة، فنظرتُ من حولي أبحث عمَّنْ يمكن له نجدتي، ولمّا لم أجد. كان الإسرائيلي دون رتبة يشدّ على ذراعي مانعاً لي من الحركة، ويشدني باتّجاه سيَّارة الجيب، حيث بدأتُ رحلة معرفة اليهود الذين لم أعرفهم من قبل.

تلفَّتُّ من حولي ناظراً أو مودِّعاً تلّ جباتا الخشب، والغريب أني

لاحظتُ اختفاء الكلب المخيف، وتقدّم منّي الجندي سائلاً إن كنتُ أحمل سلاحاً، وأجبتُهُ بالنفي، فمدَّ يَدَيْن مُدَرَّبَتَيْن فتَّشتا أجزاء الجسم كله حتّى العِجَان، بسرعة أكّدتُ له أني لا أحمل سلاحاً، والتقتْ عيوننا ثانية، فقال: أرجو أن تركب معنا بالسّيّارة.

التفتُّ مُجدّداً إلى ممثّلي الأُمم المتّحدة اللَّذَيْن عادا مُجدّداً، أطلب معونتهما، ولكن الهولندي قدّم لي كفَّهُ بوجه جامد لا يتسامح في إبداء التعاطف، وقال: ستنطلق إشارة بعد دقائق من مركز الـ إيسماك في دمشق إلى أورشليم ونيويورك وجنيف لتُبلغهم بأن الجيش الإسرائيلي اعتدى على حيادية مخفرنا في الجولان، وأنهم اصطحبوا معهم الضابط السّوريّ الممثِّل للجيش السّوريّ إلى حيث لا نعلم. وقال الإيطالي وهو يصافحني مُودِّعاً: ستتّصل المفوّضية بالحكومة السّوريّة، ليرسلوا مَنْ يستلمكَ من نقطة الناقورة اللّبنانيّة، ثمّ وقف وقفة انتصاب عسكرية مُحيِّياً، واستدار بحركة عسكرية، وانصرف. أحسستُ بـ كفِّ الجندي الإسرائيلي تلامس كَتِفي طالبةً منّي مصاحبتهم.

ودّعتُ المخفر السّوريّ بتنهدة داخلية، واصطحبوني إلى سيَّارة الجيب الكبيرة، حيث سارت بنا مباشرة إلى سفح محجوب عن أعين القائمين على المخفر، وعن أعين الأُمم المتّحدة، وقبل أن يعصبوا عينَيّ، نظرتُ إلى السائق الذي لم يغادر السَّيَّارة، واحتفظ بالمحرّك يعمل، وأحسستُ بيد تلامس زندي، لأكتشف أن الجندي دون رُتب يقوم بتقييد رُسْغَيّ بقيد بلاستيكي، ثمّ أسدل على رأسي كيساً أسود، حجب عنّي كل خارج، ودخلتُ إلى الجولان.

اللقاء مع الإسرائيلي مرَّة ثانية

سمعتُ صوت محرك سيَّارة قادمة إلى المخفر، وكما سمعتُ الصوت،

سمعه الكلب الذي بات رفيقنا الحاضر الغائب في جوار المخفر، التفتُّ إلى خارج الكراج بعد تحذيري بتكشيرة مرعبة، كشفت عن أسنانه القوية، واستدار عَادِيَاً باتّجاه القرية، ولكن طريق جباتا لم يكن عليه سيَّارة قادمة، وأحدثتُ السَّمْع، ولكن صوت المحرِّك ما يزال يُدوِّي، فدخلتُ إلى المخفر، وقفزتُ عدّة قفزات إلى السور المطلّ على السهل الواسع الذي دُمِّرت فيه عشرات الآليّات، وعندئذ رأيتُ السَّيَّارة تعبر الطريق الذي فتحوه بالأمس، وفرشوه بالحصى، ثمّ بالأسفلت سريع التّصلّب تحت أنظاري الغاضبة، كانوا يتصرّفون مطمئنّين إلى أن أحداً لا يراهم أو يعترضهم، وهاهم اليوم قادمون إلى مخفرنا، ترى ماذا يريدون؟

غيّرتُ ثيابي بسرعة، فلبستُ بزّة عسكرية سورية، كنتُ قد جئتُ بها من البيت، ونظرتُ إلى وجهي في المرآة، وكانت لحيتي لم تُحلَق منذ بداية الحرب واختفاء الضابطَيْن الأُمميَّيْن في الملجأ، وبسرعة حسبتُ المسافة الصاعدة من السهل أسفل التَّلّ وحتّى المخفر، فقرّرتُ حلاقة لحيتي بالسرعة المستطاعة، وبسرعة، كنتُ أبلّ لحيتي، وأبدأ الحلاقة، وسمعتُ حركة داخل المخفر، فتطاولتُ برأسي الملوّث بالصابون، فرأيتُ الإيطالي في ثياب الخروج العسكرية، صاحياً دون تمايل السكارى، ويبدو أنه سمع صوت الباب الصدئ المفاصل للبرَّاكَة يئنّ، فالتفتُّ إلى حيث الصوت، وفاجأني بوجهه الحليق يقول: بون جورنو. وفي ارتباك أجبتُ على تحيته، واختفيتُ في غرفتي، أُكمل الحلاقة.

وبينما كنتُ أُجفِّف وجهي، سمعتُ صوت سيَّارة الجيب تتوقّف عند المدخل، فوضعتُ حذائي العسكري النظيف، وغادرتُ البرَّاكَة، لأراهما يتهامسان، ولم أفهم ما يعدّان لي، بل وقفتُ في فتحة البرَّاكَة أنيقاً في كامل ثيابي العسكرية التي لايسمحون لنا بلبس غيرها إلى الجبهة.

سمعتُ حركة عند باب المخفر، فالتفتُّ. لأرى جنديَّيْن يسدّان باب المخفر ببنادقهما القتالية القصيرة، يمنعون الحركة من المخفرإلى الخارج، والخارجين من الدخول، كان يتقدّمهما جندي في بدلة عمل، لا يحمل شارة رتبة عسكرية. التفتَ القادم منّي، فقد لاحظ جمود حركة الإيطالي وهو ينظر إليّ، فتقدّم المتقدّم منّي، ووقف على مبعدة، تسمح له بإيصال الكلام إليّ دون مخاطرة، وقال، دون تحيّة، بالعربية، وبلهجة فلسطينية تعلّموها، بلا شكّ، من معلّمين عرب فلسطينيّيْن: "سيّدي، أنتَ تقف على أرض تحت الاحتلال الإسرائيلي، وأنا مضطرّ إلى اصطحابكَ إلى حيث قيادتي، ليروا رأيهم في هذه المخالفة"، والغريب أن ألاحظ أنه كان يشبه مُوجِّهاً في مدرستي في الحسكة التي تركتُها لألتحق بالخدمة العسكرية.

نظرتُ إلى الإيطالي مُستنجِداً، ولكنه استدار إلى حيث غرفة المراقبة الزّجاجيّة التي سقط زجاجها متأثّراً بصدى القنبلة الكبيرة التي نزلت بدورها قريباً من المخفر، وصعد الدرجات الثلاثة، ليختفي فيها؛ ولكنه ظلّ مَرئيَّاً بينما أشار العسكري في بدلة العمل إلى الجنديَّيْن يسدّان باب المخفر، فتقدّما في اتّجاهي، وفجأة سمعْنا صوت باب معدني يُفتَح، فيصدر الصوت القبيح للحديد الصدئ، فالتفتْنا جميعاً، لنرى الكابتين الهولندي في ثياب الخروج العسكرية الكاملة، وتقدّم في اتّجاهنا، فتنفَّست ملء رئَتَيّ: إذنْ، لن تتخلّى الأُمم المتّحدة عنّي، واقترب، فاضطرّ الإسرائيلي إلى تحيّته، بضرب حذاءَيْه ببعضهما البعض شادّاً صدره، وقال بالإنكليزية: لدينا مهمّة بنقل الضابط السّوريّ إلىَ معسكرنا، فلا يجوز بقاء سوري عسكري على الأرض المحتلّة من قوّاتنا الإسرائيلية، ورنّ كلامه في وعيي مُرعِباً: إذنْ، فقد تحوّلتْ هذه الأرض إلى أرض إسرائيلية؟ فأجابه الكابتين الهولندي غير مكترث لوجودي أَسْمَعُ: معكَ حقّ، يمكنكَ اصطحابه، ولكنْ، لا تنسَ أنكَ وهو تقفان على أرض أُمميَّة، ثمّ التفتَ إليّ مُطمئِناً:

ربّما سينقلونكَ إلى رأس الناقورة، حيث يعيدونك إلى أرض سورية، ومدّ كفّاً يُودِّعني، والغريب أني شعرتُ بالنفاق الكامل في لغته، وفي مدِّه كفّه يريد استخلاص غفران لخيانته لي، تماماً كما شعرتُ بالإيطالي الذي تهرّب من كل حديث معي، وفرّ، وما يزال، إلى عربة المراقبة المهشومة الزجاج.

كان صابون الحلاقة منتشراً على ما تبقّى من لحيتي، يغطّي وجهي، حيث لم أتمكّن من مسحه أو غسل وجههي بالماء لشدّة ذهولي وعدم قدرتي على استشراف كل ما يجري من خيانات الأصدقاء الأُمميّينْ المفترَضة، إلى مواجهتي لأوّل مرَّة بالإسرائيلي، إلى سماعي الإسرائيلي ينطق باللغة العربية وباللهجة الفلسطينية أيضاً، ولكن الأهمّ كان هو إدراكي أن كل ما كسبه الجيش السّوريّ من أراض، خلال الأيّام الأولى من الحرب، عاد وخسرها، بل وأن الجيش الإسرائيلي تقدّم مُتوغِّلاً في الأرض السّوريّة باتّجاه دمشق، ولم يتوقّف إلا عند سعسع.

هذا كله كان يجري والكلب يجري من اليمين إلى الشمال، بقلق وتوتّر في خلفية هذا المشهد العبثي، دون أن ينبح أو يفرّ هارباً، حينما سأصعد معهم إلى السَّيَّارة، سيكون آخر ما سأنظر إليه في تلك الأرض الخضراء هو ذلك الكلب الذي كان الوحيد الذي يزمجر غاضباً وقلقاً ممّا يجري معي.

معسكر صفد

توقّفت السَّيَّارة بركّابها الأربعة، وكنتُ منهم، في مكان يضجّ بأصوات الشّبّان، فعرفتُ تخميناً من الوقت القصير في المسير أننا قد توقّفنا في معسكر صفد، القريب من الجبهة السّوريّة، وأحسستُ بيد الجندي دون رتبة تمسك بيدي، وتساعدني على النزول من السَّيَّارة، ونزلتُ، لتستقبل عَضُدِي يد الجندي الآخر، يمسكني بشدّة، وكأنهما يتصوّران أنني سأقوم بعمل ما في عشّ العسكرية الإسرائيلية في صفد.

كانت ضوضاء تجمّع الشّبّان في الجيش الإسرائيلي تعلو مُعلِنَةً أن هنالك حالة من الارتياح لديهم، والتي لا بدّ أن تخلق مثل هذه الضوضاء.

تقدّم الجندي المصاحب، وشدَّني من ذراعي، فانسقتُ معه وبهدوء. ميّزتُ صوتاً نسائيّاً بين الأصوات الشّبابيّة، وما لبث الصوت أن تزايد، وعرفتُ بناء على قراءات سابقة أن النساء يشكّلنَ كمّيّة معقولة من الجند في الجيش الإسرائيلي، وفجأة تّذكرتُ أن هؤلاء الشّبّان والشّابّات ربّما لم يروا عسكريّاً سوريّاً من قبل، وأن صورة العسكرية السّوريّة لا ينبغي لها أن تكون في عسكري مُتهدِّل الثياب والجسم، يمشي خزيان في ضعف، ودون أن أقرّر، اشتدّ الجسم منّي في إعلان رجولي عالٍ، وأخذتُ أضرب الأرض بحذائي كما علّمونا حتّى تكاد ضربة القَدَم تفجّر المياه الجوفية وانبثاق الماء منها، كنتُ أمشي في اعتداد، كما كنّا نمشي في حلب في أثناء التّمرّن على المشي الاستعراضي، وكان صوت الرائد عزّام في مدرسة "طارق بن زياد" يحدونا: "وح اتنين وح اتنين". كنتُ أمشي مشية الفاتح، يستعرض قدرته وقوّته على الأرض المفتوحة، وكان صمتٌ غريبٌ قد أصْمَتَ الشّبّان والشّابّات، وسعدتُ، فها هم يتفرّجون على العسكرية السّوريّة التي لم تنهزم، وسعدتُ لصمتهم، فهاهم يترقّبون حدثاً كبيراً ما.

فجأة أحسستُ بيد تلمس مؤخّرتي، فعرفتُ أن واحداً أو واحدة يحاول أن يُنفِّس هذا البالون "أنا "، ودون أن أقرّر، أو أعزم، وجدتُني أضرب ما خلفي بشدّة، فدرتُ في المكان أكاد أسقط على الأرض، ولم أصبْ أحداً، وعَلَت القهقهات النّسائيّة والشّبابيّة. وأمسك العسكري المصاحب لي بي بشدّة، يمنعني من الحركة، وسمعتُهُ يهمس في توتّر إلى الفتاة:

"كفاكي، يا فتاة". "الآن عرفتُ أن الباعص لي كان فتاة"، وعَلَت القهقهات النّسائيّة من جديد، وشدّني الجندي المرافق بشدّة، يُبعدني

عن القهقهات والمقهقهات بينما علا صوت يطلب من العسكريات الصمت "شيكت"، والتي تعني اسكتوا أو اخرسوا باللغة العبرية. كان نوع من اضطراب يهزّني دون إعلان: أكانت هذه، إذنْ، نهاية العسكرية السّوريّة؟

دار الجندي المرافق بي حول مكان ما، وسمعتُ صوت جند جدد، وتنصتُّ مُتعمِّداً، فلم أسمع قهقهات نسائية، بل صوت شبّان يثرثرون كما في الازدحامات الشّبابيّة كلها، وعلا صوت الحارس دون رتبة يقول، وقد عاد: بأن الكولونيل نهاري قد خرج من الكارافان، وسيعود بعد قليل، وحلّ الصمت، وساد المكان سكونٌ بعد ابتعاد خطوات العسكري دون رتبة، وبعد قليل، تبعه السائق والجندي الجالس إلى يساري سابقاً في السَّيَّارة، وحلّ صمت ما.

أخيراً تعبتُ من الوقوف، وكنتُ قد تحسّستُ جذع شجرة قريباً، فجلستُ محتبياً مسنِداً ظهري إلى الشجرة، وعبر الصمت، سمعتُ من بعيد أصواتاً ناعمة طرية، كانت غريبة عن مسمعي منذ "الصدام اللعين" مع إحداهنّ.

كانت الأصواتُ المُصَهْصِلَة عذبةً، وكان من بين هذه الأصوات ولا شكّ صوت اللعينة الباعصة، وقد حفر عميقاً في أُذُنيّ، ولكني تغلّبتُ على الصوت غير المرغوب بسؤال أخذ يعبث بي متسلِّلاً: مَن الذي سيتقدّم إليّ باعتذار، ويأمر بنَقْلي إلى مطار بن غوريون، لأعود إلى بلدي؟

كان هذا هو الحلّ الذي تبدّى لي فجأة، إعادتي إلى بلدي مع اعتذار أن جنديّاً جاهلاً ارتكب خطأ القبض على واحد من المعيّنين ممثِّلاً للدولة المضيفة، والمَحميّ بالعمل مع هيئة الأُمم المتّحدة، ثمّ أقول في أسف: ولكنْ، مَنْ كان يتصوّر أن الحرب ستقع، ويتصوّر ما

سيحصل للضّبّاط السّوريّيْن الممنوعين من حَمل السلاح، ومن الانحياز لطرف في الحرب.

في تلك اللحظة، فجأة، انزاحت تلك الأفكار كلها من رأسي، وكأن غمامة ما يجري مرَّت، وأدركتُ أنني أجلس لأوّل مرَّة في حياتي على تراب الجليل الفلسطيني، أسند ظهري على شجر من أرض كنعان، من خلف ظهري، أمسكتُ حفنة تراب، أتحسّس فيها تراب صفد، كان مشابهاً لتراب الغوطة وحلب وحمص، ولكن ذلك الإدراك الجميل وإحساس أن ظهري مسنود بشجرة جعل عينَيّ تدمعان، هل كنتُ أذرف من دفق العاطفة؟ أم من حجم الخذلان الكبير الذي هبط على كَتِفي؟ هل ستسقط دمشق؟ ما الذي سيجري لزوجتي وابنتي الصغيرة؟ ما الذي سيجري لبلدي؟ ما الذي يريده منّي هؤلاء الشّبّان والشّابّات اليافعون، الذين يضحكون ويتراكضون، وكأننا في ملعب من ملاعب الصيف؟

كم تمنّيتُ أن يكون هذا حُلْماً سيِّئاً، أو غفوة عن الواقع، وأن تكون عيناي تلك المغمضتان بالـ "طمّاشة" مغمضَتَيْن في سريري في بيت القنوات الدّمشقيّ، أو تحت إحدى شجيرات المشمش في بساتين كفرسوسة الحبيبة في نهار ربيعي، ولكن ذلك الكابوس لم يبدأ بعد، ولم يكن هناك ما يُنذر به سوى زمجرات صديقي الوحيد الذي تركتُهُ في المخفر.

التبشير في المغاربة والعراقيّيْن وأخيراً السّوريّيْن

بعد زمن طويل، لا أستطيع تحديد طوله، أحسستُ بعطش شديد، فطلبتُ من واحد من القريبين منّي صوتاً كأسَ ماء، فلقد عطشتُ جدَّاً، لم يفهم ما قلتُ، أو أنه تظاهر بعدم فَهْم الإنكليزية التي أتحدّث بها، فقلتُ له بالعربية: أريد كأس ماء، ولكنه تظاهرأيضاً بعدم الفَهْم، فقلتُها له بالفرنسية، فكانت الدهشة في أنه قد فهم ومضى، وبعد أقلّ من دقيقة، جاءني بزجاجة ماء، فقلتُ له بالفرنسية "ميرسي"، وعندئذ لدهشتي أجابني بفرنسية ملكونة، ولكنها مفهومة، وبلغة عربية مغربية قال: صحّة.

جرعتُ نصف الزجاجة، أفكّر في مخاطبي، وأخيراً أزحتُ الزجاجة عن فمي، وقلتُ للجندي: أأنتَ ماروكان؟ أي مراكشي، مغربي. فقال في افتخار: نعم، أهلي وأجدادي من الماروكان.

فجأة اختفى العطش، وما سأكتبه الآن سيبْدو وكأنه رومانسية خيالية، أو تنطّع حمامة لم تجد صقراً تخافه، فباضت وصفرت، لكنْ، للقارئ أن يتصوّر الأمر وقد حدث في العام ١٩٧٣، ومَنْ قام به شابٌ في منتصف العشرينيات من عمره، وهو من الأجيال التي كانت مشرّبة بالنّاصريّة، وبالهياج القومي، والحماس المتوقّع لنصر قريب على المحتلّ، ولمَ لا؟ وقد انتصرنا على الفرنسيّيْن في تونس والجزائر، وعلى الإيطاليّيْن في ليبيا.

فجأة وجدتُ نفسي أبشّر فيه وأنا المعصوب العينَيْن، والمكبَّل بقيد بلاستيكي، يمنعني عن محاولة التّخلّص، وإلا فهو العذاب والألم

واللاخلاص، وسألتُهُ بصوت عالٍ تقريباً: كيف خدعوكم؟ كيف جعلوكم تتركون أهاليكم وأصدقاءكم وحارات طفولتكم؟ ومن أجل ماذا؟ من أجل خرافة، اسمها وطن الأجداد قبل آلاف الأعوام.

لم أكن أعلم حينها أن تلك التبشيرات لم تكن إلا نفخاً عميقاً في قربة مثقوبة، أو كلاماً بلا معنى ولا طائل، بل ربّما سمعوه، وكأنه تهريج مُسلٍّ، وسمعتُ حسيس أقدام الجنود يتجمّعون مندهشين من سماع تبشير كهذا، في الحرب، وفي المعسكر الإسرائيلي، ومن أسير سوري، معصوب العينَيْن. ضعيف حتّى الثمالة.

انطلقت الثرثرات القومجية التي أحسنتُ حفظها ليوم كهذا. وكانت تنطلق كرصاصات تُوقِظ أولئك اليهود العرب المخدوعين بالدعايات الإسرائيلية، ويبدو أن واحداً منهم، أو من الحارسين المبتعدين يراقبان عن بعد قد انسحب إلى حيث القيادة في المعسكر، يخبرهم عمّا يفعل الضابط السّوريّ من جَمْع للجنود المغاربة من حوله.

وسرعان ما جاء أحدهم يمسكني من ذراعي في خشونة، ويُوقِفني دافعاً بي إلى جانب آخر من المعسكر، كان من الواضح أن قادة المعسكر حائرون فيما يفعلون بي، فلم تأتهم تعليمات عمّا يجب عليهم فعله بالأسير السّوريّ الذي اختُطف من مخفر الأُمم المتّحدة.

وأعجبتْني الفكرة حتّى استولتْ عليّ، فقادة المعسكر المراقبون عن بُعد بانتظار عودة الكولونيل نهاري كانوا لا يعرفون كيف يتخلّصون من هذا المأزق بالثمن الأرخص، وهكذا دُفعتُ إلى مكان، وجدتُني فيه محاطاً بالجنود الذين نبّهوهم إلى أني أثرثر بالفرنسية، فحرصوا على وضعي قريباً من مجموعة لا تنتمي إلى الفرانكوفون. وسألتُ أحد المحيطين بي عن

مكان ولادته، فلمّا قال في أسف كما أردتُ الشعور: في العراق. أصابتْني الصدمة مُجدّداً، وبدأتُ رحلة التبشير الدّونكيشوتيّة من جديد.

كنتُ أشعر أنها فرصتي النفيسة في الدخول إلى بطن الوحش، والخروج منه، وقد عرفتُ عنه ما هو ضروري للكتابة، وهو لا يعرف إلا أني مجرّد ضابط مؤقّت، من المرتبة الثانية "دمشقيّ يؤدّي خدمته العسكرية، ولا شيء آخر".

كنت أجيب عن كل سؤال سألوه لي، بذكر اسمي ورتبتي ورَقْمي العسكري كما علّموني تماماً في المكتب دون زيادة أو نقصان، أو إضافات، كان كل ما حدّثتُهم به حياديَّاً غير مفيد لهم مخابراتيَّاً، أو معلوماتيَّاً في شيء.

وأخيراً، وربّما وصلتْ إليهم رسالة هاتفية تقول إني مجرّد أسير ككل الأسرى أو ربّما ضاقوا بحفلات التبشير العبثية التي كنتُ أقوم بها مُتبرِّعاً، فنقلوني إلى صالون كبير مغلَق، كان يحتوي على آخرين، حاولتُ الحديث إليهم، ولكنهم كانوا شديدي الذعر، لا يجرؤون على الحديث، أو حتّى على جريمة الاستماع.

انفتح الباب، أو هذا ما سمعتُ حسيسه، ودخل جندي إسرائيلي ما، فاقترب منّي بوقع خطواته يحمل شيئاً، وقال في عربية ملكونة بالمغربية: أتريد طعام الغداء؟

ولكني وقد كنتُ قد تغدّيتُ قبل وصول الإسرائيليّيْن إلى مخفرنا، فلم أشعر بجوع حتّى الآن بالإضافة إلى شعور بالعَظَمَة جديد عليّ، فقد قلتُ له في تشامخ من وراء اللثام المغطّي لعينَي "لا"، وأكملتُ بهمس مسموع:

ولستُ مَنْ يأكل من طعام سجّاني. كنتُ مطمئنّاً إلى أنهم سيكتشفون غلطهم، ويعيدونني إلى بلدي.

مضى المغربي، وعاد حاملاً ما لم أره، وسمّاه طعام الغداء، وأحسستُ بكوع جاري يلكزني، ويقول بسورية ريفية: "ليش، يا سيدي، ليش، كنتُ خدهم منه، وأعطيني إيّاهم، أنا جوعان، والله العظيم، لم أذق الزاد منذ أوّل أمس"، ووجدتُني بحُمْق الشبعان أردّ: وتأكل من طعام عدوّكَ؟

فُتح الباب، ودخل جندي آخر، ووقف قريباً منّي: سجائر؟ وكان من الواضح للسامع أنه يعرض عليّ السجائر.

وكَمَنْ لمس جمرة نفرت من العرض، فقلتُ بصوت عال: أنا لا أُدخّن.

وكنتُ أُدخّن، وسجائري ما تزال في جيبي الصّدريّ. وقال بلا مبالاة: طيّب، ومضى، وهبّ جاري اليميني يصرخ: "يا سيدي، حرام عليك، لا تريد التدخين، أنتَ حرّ، وأجاب في انكسار: لكني لم أُدخّن منذ ثلاثة أيّام، وأنا أشتهي الدخان. هل أناديه؟ وحلّت عليّ روح المحاضر، والتبشير ثانية، فأخذتُ متجاهلاً السجائر في جيبي العلوي، أُبشّر في خطورة السجائر، وخاصّة على الجائع، ورغم أني كنتُ أعرف أنهم يشتمونني قلبيّاً جميعاً إلا أني لم أتوقّف، بل استمررتُ في تقديم النصائح، إلى أن دخل إسرائيلي ما إلى الصالون الكبير، وأمر العساكر الأسرى بالوقوف، فوقفوا، وأخذ في تفتيشهم تفتيشاً كاملاً، بمعنى أن يفكّوا الحزام، ويخلعوا الحذاء، وفجأة، وكأنّ مَنْ دخل قد عثر على شيء خطير، فأخذ يشتم الجندي السّوريّ، ويرفسه في قسوة حتّى عَلَت نهنهات السّوريّ، فصرختُ في انفعال: مَنْ يضربكَ؟ مَن الضارب؟ ألا تعرف أن هذا ممنوع حسب اتّفاقية جنيف؟ ألا تعرف أنكَ ترتكب جريمة ستُعاقَب عليها؟ وتوجّهتُ إلى الجندي

المضروب، فقلتُ له: ما اسمكَ؟ أعطني اسمكَ، وسأُبلّغ عن الاعتداء عليكَ، وسأربّي هذا الـ ، وانطلق هذا الـ ، يعوي بعربية فلسطينية: أنا لم أضرب أحداً، ويمكنكَ أن تسأل، فقلتُ: وماذا كانت الرفسات التي كان الجميع يسمعها؟ وقال الإسرائيلي: لم اكن أضرب حتّى أسأل، كل ما كنتُ أفعل هو نفض حذائي على الأرض، هه، وأخذ يضرب قَدَمَهُ بالأرض، ووجدتُني أصرخ: أنتَ، أيّها المضروب، سأُبلّغ شكواك إلى المسؤولين عن اتّفاقية جنيف، قل لي اسمكَ فقط، ولكن المضروب اكتفى بنهنهات البكاء دون أن يجرؤ على الشكوى، وقال الإسرائيلي: شفت؟ وخرج من الصالون حاملاً السّكّين الصغيرة التي وجدها في حذاء الجندي السّوريّ المنهنه، فرأيتُ أن أُقدّم للجندي المضروب وللآخرين النصيحة: أنتم مَحميّون باتّفاقية جنيف، احفظوا أسماء السجناء جميعاً، والقرية، أو المدينة التي قدموا منها، وستُبلِّغون اللجنة بذلك، أو تُبلِّغونني، لأُبلِّغ لجنة اتّفاقية جنيف لحماية المحاربين.

كان الموقف هزليّاً بعض الشيء فالمبشِّر "أنا" كان معصوب العينَيْن، مربوط الرُّسْغَيْن، والمُبشَّر به كان يبكي من ألم الرفسات التي يعرف أنها ستتكرّر حين أغيب، كنتُ أفكّر في الموقف المضحك الذي وجدتُ نفسي فيه حين سمعتُ صوتاً قريباً يقول: قولك بيفلتونا، يا سيدي؟ والله، عندي سبعة أولاد، وليس لهم مَنْ ينفق عليهم غيري.

كانت الجلسة كوميدية بحقّ، فالجنود المعصوبون المساكين يعتقدون أن الأمل متعلّق بي، وأني شخصية قوية جدّاً، يستطيع إيقاف العقوبات والضربات التي اعتادوا عليها من المساعدين "صفّ الضّبّاط" في أثناء خدمتهم العسكرية، وهذا الغريب نسمع به للمرّة الأولى يستطيع تأمين ما يحتاجون إليه، فهو ببساطة يرفض سجائرالإسرائيليّيْن، وطعامهم، وقطع

هذا الحوار الكوميدي دخول الجندي الذي رافقني من المخفر، وحتّى المعسكر، فانحنى فوقي، وقال في صوت خافت: الكولونيل نهاري عاد، وهو بانتظاركَ، ثمّ ساعدني على القيام، وقادني إلى خارج الصالون الحافل بالسّوريّيْن المرعوبين، وبعد خطوات طويلة، لم أتمكّن من عَدّها توقّف في مكان ما، وقال لشخص ما كان يتبعنا شيئاً بالعبرية، ثمّ تخلّى عن عَضُدي، لتُمسكني من عَضُدي يد أخرى، ومضى، لم أحاول الثرثرة مع ممسكي من ذراعي، ولم يطلْ انتظارنا قبل أن أسمع صوت خطوات تقترب منّا، قال العسكري دون رتبة على كَتِفِهِ: الكولونيل في انتظاركَ، تناول ذراعي "العهدة"، ومضيْنا إلى لقاء الكولونيل نهاري الذي سيعتذر منّي عن الغلطة التي ارتكبها جندي متحمّس، وسيأمر بتسفيري إلى سوريا عبر "رأس الناقورة اللّبنانيّ"، أو هكذا اعتقدتُ.

الكولونيل نهاري - مرَّة أولى -

حين خرج بي العسكريان المرافقان من صالون السّوريّيْن الأسرى يمسك كل منهما بذراعي في شدّة، إلى حيث العقيد "كولونيل" نهاري، ثمّ دخلا بي إلى ما يبدو أنها غرفته الخاصّة "الكارافان"، أحسستُ أني لستُ في كارافان، بل في بَرَّاكَة من بَرَّاكَات السّوريّيْن، فقد كان الصدى صدى البَرَّاكَة القديم، وكان وقع الأقدام على خشب البَرَّاكَة الأرضي يشبه تماماً وقع قَدَمَيّ على أرض بَرَّاكَتي في المخفر، وانتبهتُ إلى أن أثاث البَرَّاكَة قد عُدِّل، ليكون مريحاً للكولونيل، وليكون المكان الذي يتمّ فيه التحقيق الأوّليّ مع الأسرى السّوريّيْن أيضاً، وكان صدى أو امتصاص صوت كل حركة في البَرَّاكَة يوحي بأهمّيّة محتلّها، فهي المكان الذي يخلو الكولونيل، أو مَنْ يقوم مقامه في المعسكر، للراحة، أو للحوارات المسلّية مع أصدقائه المقرّبين أو خصوم الحُلْم الصّهيونيّ.

وكان هدوء في البَرَّاكَة وصمتٌ حين طلب منّي صوت قائلاً: ارتحْ. وسمعتُ صوت جَرّ كرسي، ثمّ بالكرسي يلمس ساقي من الخلف، وتحسّستُ الكرسي بواحد من كَفَّيَّ اللّذَيْن مططتُهما حتّى أتمكّن من الجلوس، كان أوثر من المقاعد المألوفة في بَرَّاكَاتنا.

قال بلهجة حُلْمِيَّة: كنتُ أحلم دائماً بشاب سوري مثقّف، أي قادر على التعبير عن نفسه، بحيث أستطيع فَهْم كيف يفكّر الجيل السّوريّ المثقّف في عودتنا إلى إسرائيل، وفي قيام دولة "مُصنِّعة" غلبت "الصناعة"

المتقدّمة فيها على الزراعة، دولة ديموقراطية إلى جوار سوريا الرّيفيّة التي تحوّلت إلى عسكرية مُتخلّية عن البرلمانية والحزبية وحرّيّة الصحافة.

كان السؤال مُفاجِئاً، وغير متوقّع أبداً، وسكتّ مُفكِّراً، فلقد عرفتُ أنهم نقلوا إليه عن محاضراتي التّبشيريّة بين المغاربة الماروكان والعراقيّيْن، وربّما بين السّوريّيْن.

صمت ينتظر جوابي، وكنتُ في اللحظة تلك أتمنّى النظر إلى وجهه، لأرى انعكاس قولي عليه، ولكن اللثام حالك السواد فوق عينَيّ منعه من رؤية انفعالاتي، كما منعني من رؤيته.

كنتُ أعرف أني أستطيع مخادعته بتلاوة النصوص النَّاصريَّة التي طالما قرأتُها في الصحف المصرية، وتلاوة النصوص البعثية التي كان علينا تلاوتها كل يوم على التلاميذ، وإلا فتقارير جيل شبيبة الثورة البعثية تنتظر الكتابة، وتنتظر الإرسال كتقارير مخرّبة للبيت، وأظنّ أنه لن يلحظ أني كنتُ أقرأ محفوظات، يحفظها التلاميذ كما يحفظها المُدرِّسون لكثرة تلاوتها، فقد كانت خطبة كل المناسبات، وما أكثرها في دولة البعث، كانت مكتوبة في الصحف، ومنطوقة في الإذاعة الوحيدة في الوطن، كما أظنّه لن يكتشف أن الشّابّ المثقّف الذي كان مفروضاً فيه أن يكون قد اكتشف الدّيموقراطيّة الأشكنازية في محيط من المماليك الحكّام.

قال وسمعتُ واضحاً: هل تحبّ أن نكون من الأصدقاء؟ لا تنسَ أني "شاميت" أيضاً. قالها بعاميّة عبرية، ويعني أنه شاميّ، قالها بلغة عبرية يومية، ولكن أهلي رجعوا إلى فلسطين مبكّرين، فكان أن نسيتُ أغلب العربية، وتابع: تكلّمْ، فأنا أصغي.

فجأة أحسستُ بالسأم لإلحاحاته السَّمْجَة، وذكّرني بالمختطف من

مخفري السّوريّ الذي حاول وعلى الطريق إلى هذا المعسكر فتح حوارات ليست حوارات، بل تحقيقات أوّليّة، ولكني صمّمتُ على قول واحد هو أني فلان، وأني أقضي خدمتي العسكرية مع قوّات الطوارئ، وأن رَقْمي العسكري هو كذا، وكرّرتُ هذا القول حتّى اضطررتُهُ إلى الانفجار يشتم قوّات الطوارئ، ويشتم الجيش السّوريّ، وأنا صامت كأبي الهول في مصر.

وبينما كان الطريق يمرّ بنا من المخفر القريب من جباتا الخشب متعرّجاً باخضرار طبيعة الجولان التي كنتُ أتخيّلها كانت الأفكار تمرّ برأسي بسرعة الرصاص المتطاير في أجواء هذه الحرب، التي أمتطي سيَّارة جيب فيها مُتَّجهاً من الجولان المحتلّ إلى قلب معسكر الطرف الآخر.

كنتُ أعرف أنهم قد وقعوا في مطبّ اختطافي من أرض ما تزال حسب القوانين الدّوليّة أرضاً سورية، ومن موقع لقّوات الطوارئ، وألا حلّ أمامهم إلا إبعادي إلى لبنان، من مركز رأس الناقورة، وكان هذا يناسبني جدّاً.

كانت الثرثرات بين ضبّاط الارتباط من السّوريّيْن في أثناء قضاء دورتهم في مدرسة المُدرَّعات تقول: إن التأمين على الضّبّاط يشمل السّوريّيْن أيضاً، وإلا فلمَ جرّدوهم من السلاح، وأرسلوهم إلى الجبهة عُزّلاً، وها هي الفرصة تلوح أمام الحكومة السّوريّة للمطالبة بتعويض عن اختطاف الضّبّاط السّوريّيْن من مخفر يحمل راية الأُمم المتّحدة، واستعادة التعويض عن مقتل الأيرلنديَّيْن اللَّذَيْن قتلهما جندي شبه أُمّيّ، لم يستطع التمييز بين أوربي أشقر وأشكينازي أشقر، وكلاهما لم يستجبْ لدعوته لهم إلى التّوقّف وإظهار الهوية.

كنتُ أعرف أنه سيُلّح على معرفة ما كنتُ أكتمه عنه، أو هذا ما تخيّله، أو أنه حبّ الاطّلاع للكتابة عنه فيما بعد.

كنتُ أعتقد حتّى تلك اللحظة أن الإسرائيليّيْن قد وقعوا في فخّ الاعتداء على قوّة تابعة للأمم المتّحدة، وهذا ما كان يحفّزني طيلة الوقت إلى الإصرار على لقاء الكولونيل نهاري الذي كان كل ضبّاط الارتباط يعرفون باسمه كما يعرفون اسم العقيد طيّارة كبير ضبّاط القوّة المسؤولة عن الجانب السّوريّ، وعن اختراق الهدنة القائمة بين الجانبَيْن السّوريّ والإسرائيلي.

ولكني فوجئتُ بعصب عينَيّ وتقييدي بقَيد بلاستيكي مع وعد عائم بأن الكولونيل نهاري سيلقاني. ومع إصرار منه، وإلحاح على أن أجيبه عن أسئلته المخابراتية المُستَعْلِمَة عن الجيش السّوريّ، وعن ضبّاطه، وعن مراكز التغذية بالماء والوقود.

كانت أسئلة شديدة الوقاحة والإصرار، كما رأيتُها، وكنّا ما نزال في سيَّارة الجيب على تحصيل ما أمكن من معلومات عن الجيش السّوريّ والعلاقة بين أفراده وضبّاطه.

تنحنح يحثّني على الإجابة، وكنتُ أعرف ألاّ حقّ له في استجوابي، أو تحصيل أيّة معلومة منّي، ولكنه تابع في إلحاح: كنتُ أتمنّى، وما أزال، على معرفة ما يفكّر به الشّبّان السّوريّون حين تُذكَر قضية إسرائيل أمامهم.

كان الاستحثاث واضح الضغط على الكولونيل نهاري، ولكن ذاكرتي التي تمطّطت، والتي استباحت في تأمُّل الماضي انفجرت من جديد:

"جزء من عقلي كان يعمل بتسارع عالٍ، كنتُ أبحث عن اليهودي، فلم أجد إلا إمراة تركض في ذعر، وهي تحمل طفلها قريباً من صدرها، وكلاهما يبكيان، وكانت تنظر بين الدقيقة والأخرى إلى السماء ما بين أصابع إبليس الضّوئيّة، تبحث عن الطائرة الإسرائيلية التي فاجأت جنودنا البواسل، فقصفتْهم، وها هي قد وقعت في فخّ البنجكتورات "البروجكتورات" التي

يستخدمها الدفاع الجوّيّ في اكتشاف طائرات العدوّ التي تقصف المُدُن، وتبحث عنها لإسقاطها في مصيدة المدفعية السّوريّة، كانت الأمّ "أُمّي" في الملاءة السوداء المتهدّلة تعدو وهي تقرأ المعوّذتَيْن ترجو الوصول إلى الملجأ في قبو الجريدة الرَّسميَّة قرب حَيّ القنوات، والتي أعلن رئيس المخفر أنها ستكون الحامية لنا، بملجئها تحت الأرضي، وانقفل الخزّان، وأخذت صورة الأشكنازي يربض فوق صدر الطفل الفلسطيني يصرخ في خوف، فيقول له: لا يخاف خبيبي، لا يخاف، مثل قرصة الزلقطة. يقولها وفي كفِّه سكّين كبيرة استعداداً لذَبحه. فيما بعد وفي أثناء مروري بمرحلة الشَّاعريَّة البلهاء وأنا شابّ، تلك التي تتصوّر الفتيات كلهنّ ملاكاً، وهو يبحث عن جنّة تؤوي ملائكيّته، كنتُ أنظر إلى ذلك البناء الذي فَقَدَ الكثير من شاهقيّته "الجريدة الرَّسميَّة"، فهو ليس إلا بناء من ثلاثة طوابق، يعلوها برج، عليه ساعة ضخمة، تتكرّر على كل وجه من وجوهه الأربعة، لتدلّ السّكّان "أو هذا ما كانوا يفترضون" على الوقت الصحيح، ولكن الساعة لم تعمل إلا لبضعة أسابيع، كانت فيها تدلّنا على الوقت، ولكنّا لم نكن ندري أكان الوقت هوالصحيح؟ ثمّ توقّفت الساعة بعدها، فلم تجد مَنْ يحفل بتصحيح الوقت فيها، وتركوها منذئذ إلى غير تصحيح، كنتُ أنتظر إصلاحها، لأعتمد توقيتها، ولكنها لم تدلّ على الوقت الصحيح إلا مَرَّتَيْن في اليوم كظلال عواميد الكهرباء في الشارع التي تدلّ على الوقت بظلالها. كنتُ أتأمّل البناء، لا جمال فيه إلا محاولة للحفاظ على بياض الحجارة، فحفروا على جدرانه الحجرية كلها نقرات صغيرة، يُفترَض أنها نقوش، ثمّ كسلوا عن إكمالها، فتُركَت بعض سطوحه بيضاء متّسخة حتّى التّوحّل، وسقط المطر المُوحِل على السطوح المنقوشة، فملأ النقوش، لتبدو مع تقادم السنين حُفراً من طين أغبر، يزيّن السطح بقُبحه، وبدا البناء عتيقاً كقطعة أثرية. كنتُ أمضي ذهاباً وأوبة على طول شارع خالد بن الوليد دون

توقّف يلفت نظر المارَّة إليّ، أنظر في لمحة إلى عقرب الساعة المتدليّ بعد عاصفة أزاحته من موقعه المتشبّث، وأحزن على الفرصة الرائعة التي أُتيحت للساعة لتدخل في تاريخ الحَيّ، فأخفقت.

كنتُ أشتهي دون القدرة على التنفيذ أن أدخل إلى الجريدة الرَّسميَّة، وأهبط حتّى الطابق تحت الأرضي، فأرى الكهف الذي حملتْني أُمّي صغيراً إليه أتأمّل، عند ما تتوقّف الانفجارات، السقف الخام الإسمنتي لم يُغطَّ بالملاط، وكان الكهف رعبي لسنوات كانت فيها أُمّي تدأب على تهديدي برميي فيه، كي تأكلني الضباع، فأتوقّف مباشرة عن البكاء، وما كنتُ أعرف أن البناء لم يُنجَز بعد.

بعد تجاوُزي للمرحلة الابتدائية، وتجاوزي لقسوة الشيخ بهجت وعصاه من خشب الزان المَجلوَّة حتّى لتشبه خدودنا نعومة، ما زلت أذكر بكاء الأطفال المذعورين من اليهودي يقتحم كهف الجريدة الرَّسميَّة عليهم، ويجثم على صدر الولد الأوّل منهم، وهو يهمس بصوت كالفحيح: لا يخاف خبيبي، لا يخاف، مثل قرصة الزلقطة، وعلى الأغلب، كان الطفل المهدَّد بالذبح أنا المتلوّي في فراشي وأُمّي تضمني إلى صدرها في طمأنة، وهدهدة".

سمعتُ الكولونيل نهاري يتنحنح، ليُخرِجَني من شرودي، فقلتُ:

وماذا تتوقّع من طفل قضى سنوات طفولته، ولا يخشى إلا اليهودي الجاثم على صدره يُهدِّد بذَبْحه، ولو سألتَ كل مَنْ في سنِّي، فلن يُخبركَ عن طفولة أفضل من هذه الطفولة المهدَّدة بالذبح والانفجارات، وبدأتُ أهذي لنفسي غارقاً في تأمّلات الذاكرة مُجدّداً:

لقد لمّح إليكَ بذلك الضابطان الأُمميان، وهاجت الكلمات تعاتبني،

وإن لم تستطع القول: أنتَ لم تعرف اليهود من قبل، فهل كان انتظارك لهم في المخفر من باب الفضول؟ أنتَ تريد معرفتهم دون أن تكون تحت رحمتهم وظلمهم، فجورج أشكينازي الذي عرفتَهُ في كافيتيريا الأميركين لم يكن يمثّل اليهود، بل كان مهاجراً عاديَّاً، فقيراً، كملايين الشرق أوسطيّيْن، يسعى وراء رزق ما كان له أن يحصل على مثله، لو بقي في وطنه. وما تمزّقه بين حبّه للبقاء في مصر والهجرة إلى بلد لم يعرفه "أشكينازيا" إلا تمزّق الشرق أوسطيّيْن عموماً بين البقاء في الوطن، والهجرة إلى أرض السمن والعسل، ألمانيا مثلاً، أو فرنسا أو أميركا التي لا يعرفون عنها شيئاً، لعلّهم يُغيّرون من واقعهم الاقتصادي والـ سياسي "إن كان واعياً"، ثمّ قلتُها في سرّي "جورج أشكينازي لا يمثّل اليهود ولا الصهاينة، ولا البالماخ وشتيرن"، بل مثله مثل أيّ سوري أو لبناني مهاجر إلى أميركا اللاّتينيّة وأفريقيا، لكن السؤال الجارح عاد ليضغط عليّ: كيف تُسمّي هذه الجيوش التي هاجرت من أوربا إلى فلسطين تدّعي أنها الوطن، وتذبح الآلاف من الفلسطينيّيْن تحت دعوى تنظيف الوطن من أعدائه، ماذا تُسمّي أولئك الذين كانوا يحرقون القرى الفلسطينية على أهلها؟ ماذا تُسمّي الراشين من الصهاينة والمرشوّين من القيادات العربية الذين تآمروا على اليهود من مواطنيهم، بحجّة أنهم صهاينة؟

وعاد السؤال يجرحني: واليهودي الذي تفكّر فيه، كيف يبدو؟

وأنتَ لم تره. حتّى وأنتَ ضابط ارتباط مَحميّ براية الأُمم المتّحدة، ما عدا بضعة جمل من الحوار التي تبادلتُماها أنتَ والعسكري دون رتبة، فقد عدتُ منذ ركبتُ سيَّارة الآسر إلى العمَاء القديم، وها أنتَ اليوم تتحاور مع الكولونيل نهاري، وما تتحاور إلا مع الدعايات التي أثقلوكَ بها منذ عام ٤٨، وأنتَ مُعمًّى تخاطب رجلاً آخر مُعمًّى بالأفكار المسبَّقة، وهاجمني

السؤال: لو أنكَ رحلتَ إلى سوريا بعد ساعة أو ساعات، فكيف ستصف اليهودي أو الإسرائيلي اليوم؟ هل عرفتَ عنه ما يكفي؟ أم تكتفي بتكرار المحفوظات التي تعلّمتَها وحفظتَها على يد عبد الناصر وحزب البعث؟ وهل تجرؤ على وصف اليهودي الإسرائيلي المعاصر وأنتَ لم تعرفه، ولم تحاوره، ولم تعرف مكنوناته وموافقته على قيام القيادة الإسرائيلية بدور العصا العالمية، ترهب وتبطش بالمحيط، ليعيدوا كتابة الرواية كما أرادها البطّاشون منهم في الأفكار والسلاح أن تصوّر؟ فلماذا يحنّ بسطاء اليهود ويردّدون "لان بروشان آجيروساليم" أو بالعربية "السنة القادمة في القدس"؟ وبعد أن كان هذا الدعاء يضرب وَتَرَاً جارحاً في قلبي، وصلتُ إلى قناعة أنهم كما تسعون بالمئة من يهود العالم استبدلوا القدس وزيارتها والحجّ إليها بقولة "لان بروشان آجيروساليم" أمّا أنا، فقد جعلتْني ثورتي على مقولتهم هذه أمضي إلى الحمّام في مقهى الأميركين، حيث كنّا جميعاً، ثمّ أغادر إلى الخارج منتوياً ألا أعود، ولكني أعود بعد أيّام، وأسمعه وكأنه يغيظني يقول "لان بروشان آجيرو ساليم" فلا أتحمّل بقية الكلام، وأنسحب معتذراً، وأخيراً انتهيتُ إلى هجر كافيتيريا الأميركين نهائياً، والتّحوّل إلى كافيتيريا حوريس، حيث أطلب فنجاناً كبيراً من النسكافيه بالحليب مع قطعة كاتو سعدتُ حين وجدتُها أكبرمن قطعة كاتو الأميركين.

وفي قفزة من قفزات الذاكرة الأخرى:

انتصب أمامي، إبراهيم الفتى المستضعَف في مدرسة كانت للمسيحيّيْن السّوريّيْن، وقد أضيف إليهم أثرياء المسلمين قبل أن يُؤمّمها البعث، فاسمها التّاريخيّ منذ القرن التاسع عشر في دمشق، أي منذ افتتاحها، كان مدرسة "سان فنسان"، وحين أمّمها البعث، قام بتعريب اسمها، فصار ثانوية المنصور، وهي ترجمة حرفية لكلمة فانسان، وكان

تلاميذها بأكثريتهم من المسيحيّيْن السّوريّيْن مع أقلّيّة مسلمة متقدّمة اقتصاديًّاً منذ بنائها.

انتبهتُ إلى أني، مع كثرة رحلاتي وقضاء أحلى السنين من عمري في فرنسا ومصر، لم أعرف ولم أعاشر من اليهود إلا جورج أشكينازيّ في كافيتريا الأميركين وشلّته من العجائز، وإبراهيم الفتى الطالب في مدرسة المنصور، وقبل أن أستطرد، فاجأني في عتمتي السوداء صوت الكولونيل نهاري يقول: ما الذي جعلكَ تنتظرنا في مخفركَ الأُممي؟ وحين أحسّ أني متردّد في الإجابة، كرّر السؤال في صرامة: ما الذي جعلكَ تنتظرنا في المخفر الأُممي؟ هل كنتَ تتوقّع مكافأتنا لكَ على محاولتك الاتّصال بغرفة عمليات الجيش السّوريّ تُخبرهم بأننا اخترقنا صفوفكم، وعن احتلالنا أراض سورية جديدة؟ وارتجف شيء ما في القلب: أكانوا يعرفون بمحاولاتي الاتّصال بغرفة العمليات في الجيش السّوريّ ومحاولاتي نسيان هذه المحاولات منذ رأيتُ العسكري الإسرائيلي في بدلة العمل دون رتبة تمُيّزه؟ وزاد من رغبتي في مَحو هذه المحاولة عجزي عن الاتّصال بغرفة العمليات، واكتفائي بنقل ما أرى من مرقبي عن تحرّكات الجيشَيْن إلى رَقْم غرفة العمليات الذي أحفظه عن ظهر قلب، لعلّ أحداً ما في غرفة العمليات السّوريّة يُنصت ويُبلّغ، ولكن حظّي السَّيِّئ أن العدوّ هو مَن استقبل تقاريري. أتراهم كانوا يتنصّتون على أسرار الجيش السّوريّ كما كانوا يتنصّتون على جهاز اللّاسلكي في بَرّاكَتي؟

قبل أن أجيب قفز إلى مقدّمة الخيالات صورة الضابط السّوريّ موثق الرُّسْغَيْن بقيد بلاستيكي معصوب العينَيْن وهو يضرب الأرض بقَدَمه في شموخ، يطلب انفجار الماء الكامن في أعماقها، وتذكّرتُ المشهد قبل ساعات ساخراً من أني سوري حقيقي، فالسّوريّون هم مَنْ يوصَفُون، في كثير من الأحيان، بأنهم أنفٌ في السماء، وقَدَمَان تسعيان في الخِرَاء.

قال يُخرجني من التوهان في الأفكار والذكريات: تبدو لي أنكَ لا تريد الحديث إليّ عن رأي الشّبّان السّوريّيْن الطامحين إلى وضع اقتصادي أفضل ممّا يقدّمه لهم البعث، أم أنكَ لا تعرف؟ أفلم تسمعهم يتمنّون الهجرة إلى الغرب؟ أفلم تتساءل: لماذا؟ وما الذي يُحفّزهم إلى هجر أرض الخيرات إلى مستقبل لا يعرفون أين يرمي بهم؟ أفلم ترَ أسراب الشّبّان والشّابّات يقفون في طوابير منذ ما قبل الفجر ينتظرون السفارة الأميركية، كي تفتح أبوابها، وتتقبّل طلباتهم للهجرة إلى أرض الكفر. وكدتُ أثور مُرتِّلاً على مسامع اليهودي الشاميت المحفوظات كلها التي نكرّرها: "أن لولا حماية أميركا لكم، لكنّا أكلناكم أحياء"، ولكن الصَّبِيَّة في الملاءة السوداء تضمّني مذعورة إلى كَتِفِهَا وهي تتنهنهُ باكية، فأبكي، وأصابع إبليس المندفعة من الدفاع الجوّيّ السّوريّ تطارد الطائرات الإسرائيلية كَمَنْ يطارد سمكة في ماء، فلا تتركها تهنأ بالقصف، ولا تنطلق المدفعية المضادّة للطائرات، فتُسقط العدوّ الجبان.

وبدأتُ القَصّ على اليهودي الشاميت الذي لم أرَ له وجهاً حكايتي مع الإسرائيلي الذي فجّر سكون جنّتنا، وفجّر العصر المملوكي في حياتنا، وسمعتُ صوت ورق يجرّ وصوت قلم حبر جافّ يكتب، فانتبهتُ إلى أني كشفتُ له عن نقطة ضعف كنتُ أتمنّى لو حفظتُها لنفسي، ولكنْ، سبق السيف العذل. أتراهم لم يعرفوا وهُم مَنْ درسوا التاريخ بعمق خيفة أن تتكرّر رحلة الصّليبيّيْن في الشام، كما تكرّرت في الجزائرالتي سمّوها فرنسية؟

لم أكن أنظر إليه، لأعرف انعكاس كلماتي عليه، هل العتمة مريحة للمتحدّث كما هي مريحة للسامع؟ كنتُ أثرثر وحيداً كَمَنْ يفكّر ولا يُخرِج الفكرة إلى العلن، وكانت الأفكار تنهال عليّ، كما كانت تنهال قبل عودتي من مصر، ونفيي إلى الحسكة، أكتشف البعث، وأستمع إلى

رجالاته الببغاوات لا يريدون إلا إبلاغ أسيادهم في المخابرات عن ولائهم غير المحدود. وأخيراً تنبّهتُ إلى أني كنتُ أثرثر خوفاً من العتمة والوقوع في الفراغ الذي أراه يتربّص بي.

هل كنتُ أثرثر عن الأشكينازي خوفاً من الحديث عن إبراهيم الذي يمكن أن يكون سرَّاً من أسرار الوطن؟ أم خوفاً من العتمة الخرساء؟ فكأنني الراجع إلى البيت في العتمة يعرف أن ضبعاً يبول على طريقه مُستدرِجاً إيّاه، فهو يثرثر بصوت عالٍ مُبلِّغاً الضبع أنه صاحٍ وواعٍ، وأنه غير خائف منه.

وبهدوء، اكتشفتُ أني لم أعرفْ من اليهود معرفة قريبة إلا جورج أشكنازي، والذي كنتُ أُحبّ ثرثراته مع أصدقائه عن تلك الفترة الملكية التي عاشوها، وكان أوّل ما لفت نظري في جورج حنينه الدائم إلى "شيه نو"، وكنتُ أثور عند سماعي له يقولها، فأستأذن ناوياً ألا أعود إلى مجالستهم أبداً، ولكن حنيناً ما إلى سماع حكايات رباعيات الإسكندرية و"لورنس داريل" من فم أبطالها كان يحفّزني إلى إعادة الكرّة، فلعلّهم ينفتحون، كما انفتحوا في المرَّة الأولى، ولكنهم كانوا كَمَنْ سئم الحديث عن رباعيات الإسكندرية قبل مجيئي، ولم أكن بالقادر على جَعْلهم يعيشون الفترة، ولو حكائيَّاً.

قال ويبدو أنه قد ضاق باسترسالاتي: هل تستطيع القفز فوق الطفولة والعبور إلى الشباب في مدارجه الأولى، وتردّدتُ قبل القول: وهل يعدّ المراهق في المرحلة الإعدادية أو في الثَّانويَّة شابَّاً مثقّفاً؟

قال: سنعدّه كذلك. هه، تفضّل:

وقفزت الذاكرة من جديد:

"في المقدّمة باحة المدرسة الثَّانويَّة، وقفز المدرس الفلسطيني

"حفظي" وهو يهدر بصوت جليل بالاتّفاق مع الإدارة: وكان العدوان الثّلاثيّ على مصر شاغل العالم والعرب، وكان المُدرِّس الجليل يحدّث عن المؤامرة العالمية على مصر، ثمّ على سوريا، وكرّر بصوت مجلجل: سوريا العرب، ثمّ تابع بصوت متعَب: وها هم يحاصرون ويقصفون بور سعيد، وسيقصفون اللاذقية ودمشق والجولان، فمعظم دول الطَّوْق أهداف شرعية للعدوان، شرعنتْها الإمبيريالية الصّهيونيّة، فهي تعرف أن المعركة بين الشام وبين الصّهيونيّة قادمة لا محالة، وما قتل العمّال والعاملات من بسطاء الوطن إلا تخلّص ممّنْ سيلاحقهم في أوكار فلسطين حتّى الفناء، وهذه الجرائم كلها ضدّ الشعوب العربية، لماذا؟ وتابع في صوته المتعب، وكأنه سينهار في اللحظة التالية حتّى شعرتُ بالشفقة على هذا الرجل الجليل الذي ما تنازل أبداً عن استرجاع فلسطين وطرد شراذم الأشكيناز منها، ثمّ تحوّل إلى الهمس الذي جعل صغار الطّلّاب يتشهّون كلمته الأخيرة: هذا كله من أجل استحلال نهب فلسطين، وطرد الفلّاحين والبسطاء منها.

انطلق التصفيق عارماً "كان الأستاذ حفظي خبيراً في الوقوف حيث يجب الوقوف، وفي الجلجلة، حيث تجب الجلجلة"، وأخيراً قال فيما يشبه الهمس الذي كان الميكروفون المضخّم يوصله إلى الصفوف الأخيرة في الباحة: كانت مؤامرة عظمى على بلادنا، وكان من ضحاياها اليهود الشرقيون أو العرب، كما كان العرب يسمّونهم عموماً".

توقّفتُ عن الذكريات، وكنتُ أتمنّى لو أستطيع تأمّل وجه الكولونيل نهاري، لأعرف كيف انعكست عليه هذه الذكريات.

سمعتُ صوت الكرسي يبتعد عن المكتب، وصوت الكولونيل يقول بصوت متعَب: ليفتنانت، أحبّ أن أُحذِّركَ، فأنتَ لو احتفظتَ بهذه الكراهية كلها ضدّ إسرائيل، فستعاني كثيراً في حياتكَ، ليس على يد الإسرائيليّيْن، ولكنْ، على يد حكومتكَ نفسها. تلك الجملة اللعنة.

لقاء الكولونيل نهاري مرَّة ثانية

عند الباب، وفي أثناء الخروج من البَرَّاكَة، فوجئتُ بصوت يستوقف الحارسَيْن اللَّذَيْن ضربا الأرض بعقبَيْهما في تحية للقادم، فقال بالعبرية ما لم أفهمه: أتراها العبرية؟ أم اليديش الخليط من الألمانية والعبرية؟ فأنا على عكس ما أعرف عن نفسي، لم أفهم منها شيئاً على الإطلاق، وشعرتُ بالجالس في الداخل متلبِّساً ثوب الكولونيل نهاري ينزلق عن الباب ضاحكاً وهو يقول للداخل: شالوم، وهذا ما فهمتُهُ فقط، ثمّ يبتعد صدى حذائه العسكري.

وقال الوافد الجديد بإنكليزية هجين ما بين الإنكليزية وأصوات ذات مخارج عبرية يخاطبني: ارجعْ، فأنا في حاجة إليكَ، فالهواتف لم تتوقّف عن إبلاغي بأنكَ تطلب اللقاء بي، ورغم أنه كان سليم اللغة إلا أني شبّهتُهُ بسرعة بنيجيري تعرّفتُ إليه في مصر، وكان مخزونه من المفردات الإنكليزية محدوداً جدَّاً، ولكنه كان قادراً بشكل رائع على التعبير عمّا يريد ببضع مئات من المفردات فقط.

قال لي بعد تنحنح مفتعَل، وبعد أن ساعدني الحارس على الجلوس في مقعدي الذي غادرتُهُ منذ قليل وهو يُحدِّق في وجهي المغطّى بكيس أسود، لا يسمح لي بالرؤية، قال: كنتُ أحلم بلقاء سوري مثقّف، يستطيع تفسير ما أريد معرفته عن السّوريّيْن المعاصرين بعد ربع قرن من إنشاء إسرائيل، وما هي أحلامهم، وكيف يفكّرون.

صمت ينتظر جوابي، وكنتُ أفكّر: أليس لديكم سؤال آخر تسألونه؟ ولماذا هذا الحرص كله على معرفة فيمَ يفكّر الجيل السّوريّ الشّابّ بـ إسرائيل؟ وتمنّيتُ رؤية وجهه بعد قولته هذه، ولكن الكيس الأسود حجبه عنّي، كما حجبني عنه. كنتُ أعرف أني أستطيع خداعه وإلقاء محفوظاتي النّصّيّة كما علّمها لي عبد الناصر مُجدّداً، ومدرسته الدعائية، ومدرسة البعث القاسية كحجر مغلّف بالصّوّان، وقلب من ثمار الصّبّار، فالبعث لا يهتمّ لتأثير مقولاته على السامع، وهي "المقولات" بدورها لا تهتمّ له، ولن يلحظ ما إذا كنتُ أقول الحقّ، أو ما جعلوني أحفظه لكثرة التكرارفي الإذاعة والتلفزيون، والصحافة الراضخة لحكم العسكر، قال، وبدوري سمعتُ: همم، هل تحبّ أن نكون أصدقاء؟ أنا "شاميت" أيضاً، ويقصد أنه "شاميّ"، قالها بعبرية متسرّبة من اللغة اليومية، وانطلقتُ أُقهقه ذهنيّاً من اتّفاق الاثنَيْن على طريقة التّقرّب الكاذبة من السّوريّ الملثّم بالسواد، وتابع: لكني عدتُ إلى فلسطين منذ الطفولة، وقد نسيتُ العربية إلا القليل منها.

ثمّ تابع: تكلّمْ، فأنا أصغي.

وفجأة أحسستُ أني قد ضقتُ ذرعاً بإلحاحاته السَّمْجَة، فالمختطِف الإسرائيلي الذي جعلني أنزل من مخفر يوك، والذي لا يضع على كَتِفِهِ رتبة عسكرية حاول أيضاً جرِّي إلى التحقيق بأسئلته الملحّة رغم إجاباتي المتحفّظة في أني الملازم فلان الفلاني، وأني أعمل ضابط ارتباط سوريّاً مع قوّات الطوارئ الدّوليّة إلا أنه ألحّ في أسئلته، يريد إحراز معلومات ما يتفاخر بها أمام رؤسائه، وبعد صمت قصير، أكملتُ طالباً اللقاء بالكولونيل نهاري الضابط الإسرائيلي الأعلى في القوّات الإسرائيلية المكلّفة بالعلاقة مع قوّات الطوارئ الدّوليّة، ومع ضبّاط الارتباط لدى الجانب الإسرائيلي.

كنتُ أعرف أنهم وقعوا في ورطة الاصطدام مع قوّات الطوارئ حينما اختطفوا ضابطاً سوريّاً أعزل من موقع لقّوات الطوارئ الدّوليّة، وكنتُ أعرف أن العاملين في قوّات الطوارئ أي (حُماة الهدنة والسلام)، هؤلاء الناس كان كل منهم يحمل وثيقة تأمين بقيمة ربع مليون دولار ضدّ الحوادث والموت العنيف، وقد اضطرّت الحكومة السّوريّة عندما أطلق جندي سوري النار على مجموعة منهم في أثناء مرورهم في طريق ضيِّق في حوران، ولعدم استجابتهم إلى طلبه بالتّوقّف للتفتيش، فتظاهروا بعدم الفَهْم، وتابعوا سَيْرهم، فأطلق الجندي عليهم النار، وهو يظنّ أنه أطلق النار على اليهود الأشكناز، كما فسّر الأمر للقضاء العسكري، وقال كلهم شقر أجنبي أو أشكنازي، وقال الكولونيل نهاري "رَقْم ٢"، أو مَنْ قدّم نفسه لي على أنه الكولونيل نهاري، ذلك الذي كنتُ ألحّ على لقائه. قال في ضيق من الصمت الذي كانت البَرّاكَة السّوريّة البسيطة البناء، والبسيطة التركيب، والمترفة الأثاث كما لاحظتُ، والتي جعل الإسرائيليون منها مركزاً للتحقيق الأوّليّ مع الأسرى السّوريّيْن، وهذا ما سأتأكّد منه فيما بعد في القواويش التي سيجعلونها لنومنا، فالأَسِرَّة الحديدية ذات الطابقَيْن كانت من الغنائم التي غنموها من الجيش السّوريّ قبل بضعة أعوام في حرب الأيّام السّتّة، والأزياء المبرقعة التي يُلبِسونها للأسرى كانت من الغنائم التي غنموها من معسكرات الجولان، كانت الأفكار تضطرم فيّ، وأنا أفكّر في هذه الـ "علقة" التي تورّطتُ فيها: هه، لم تجبْ بعد، وعرفتُ أنه لن يتوقّف عن سؤالي، ما لم أجب، وكان لا بدّ أن أجيب.

كنتُ أفكّر في هذه المواجهة المفروضة عليّ الآن. "أهي المواجهة بين العسكرية السّوريّة ممثلة فيّ أنا وبين "الكولونيل نهاري" ممثّل العسكرية الأخرى؟" وإلا فما هذا السؤال الاستخباراتي؟ ولماذا يريد هذا الضابط الإسرائيلي معرفة إلى أين وصل المثقّف السّوريّ الشّابّ اليوم بعد ربع

قرن من إنشاء إسرائيل؟ وذكرتُ أن الكولونيل نهاري الأوّل حام وظلّ يحوم لمعرفة جواب ينتظره، وأن الجيل الجديد قد سئم من حرب، لا نصر فيها، ولا مستقبل لها إلا تمكين العسكريّيْن من ركوب ظهر العرب المطالبين بالتحرير، حتّى ما قبل هذا السؤال غير البريء. كنت أعتقد أن القبض عليّ، واختطافي من المخفر الذي رُفع فوقه علم الأُمم المتّحدة، والذي تُجلِّله الاتّفاقية الموقَّعة بين الحكومة السّوريّة، وبين قوّات الطوارئ الدّوليّة "إيسماك" هذا الاختطاف كان غلطة سوف يدفع مَنْ قاموا بها ثمن خطيئتهم غالياً.

كنتُ أعتقد أيضاً أن الإسرائيليّيْن قد وقعوا في ورطة مهاجمة مخفر لقّوات الطوارئ الدّوليّة، أي للأمم المتّحدة لاختطاف رجل شبه مَدَنيّ، لا علاقة له بالعسكرية، فهو غير مُسلَّح، وليس له علاقة ما بالأمن السّوريّ، ولذا فقد كنتُ أطالب بإصرار، ومنذ القبض عليّ في المخفر الأُممي، بلقاء الضابط الكبير "نهاري"، وهو الذي يعرف اسمه ضبّاط الارتباط كلهم على جانبَي الحدود، كما يعرفون اسم الكولونيل "طيّارة" السّوريّ، فنهاري هوالمسؤول الإسرائيلي عن قوّات فصل القوّات، تماما كالسّوريّ العقيد عدنان طيّارة، ولكني فوجئتُ بهم يُغطّون عينَيّ، ويمنعونني من رؤية الكولونيل نهاري. تُرى هل اعتقدوا ولو لوَهْلَة أنهم عثروا على كنز يحمل في رأسه أحلام الشّابّ السّوريّ وأفكاره كلها، وأن عليهم احتلابه، فهو مثقّف، نادر، وشابّ لم يحارب ضدّ إسرائيل أبداً؟ ولذا فقد كان العسكري دون رتبة يحاول امتصاص أيّة معرفة منّي، والكولونيل نهاري الأوّل كان يُلحّ على معرفة فيمَ يفكّر السّوريّ الشّابّ المثقّف عن إسرائيل. تنحنح يحثُّني على الإجابة، ولم تكن الجلسة جلسة تحقيق، وهو يعرف ألا حقّ له في استجوابي، ولكنه، كما يبدو، قد استغلّ فرصة رعبي المفترَض، وتعميتي بالـ كيس الأسود، وبُعدي عن الجيش السّوريّ، فسألني: كنتُ

أتمنّى معرفة رأي الشّبّان المثقّفين السّوريّيْن بـ إسرائيل، وانكشف الغطاء أخيراً عمّا يريد المحقّقون الهواة معرفته منّي.

كان الاستحثاث واضحاً في نحنحته، يريد إيقاظي من الغرق في عالمي الدّاخليّ، وفجأة تذكّرتُ البنت الإسرائيلية المجنّدة والتي سمعتُ صوتها في المعسكر الذي توقّفْنا فيه في مكان ما في معسكر صفد.

كنتُ أنزل من السَّيَّارة في المعسكر الذي يضمّ الجنود والجنديات الإسرائيليّيْن، فلم أكن أعرف اليهودي الكابوسي الذي كنتُ أتخيّله أسود ذا أنياب طويلة بارزة من فمه، وهو يستعدّ لذَبْح طفل فلسطيني، والطفل يبكي مذعوراً، ولكن الوحش الأشكنازي كان يهمس مُقرِّباً السّكّين من رقبة الطفل: لا يخاف خبيبي، لا يخاف، مثل قرصة الزلقطة، مثل قرصة الزلقطة، وكان هذا آخر ما يسمعه الطفل، فالسّكّين كانت تذبحه مُخرِسةً له عن كل شكوى أو توجّع.

كانت هذه التعازيم هي كل ما أذكر من طفولتي المبكية الباكية من حكايات تتحدّث عن الاصطدام المروّع بين اليهودي الذابح والطفل الفلسطيني الباكي يَعول خائفاً من السّكّين في يد اليهودي، كما لُقِّنَّاها في الموروث الشعبي الرّسميّ المكرَّر في الإعلام والمدارس.

وقفز إلى مقدّمة الذاكرة المعسكر الإسرائيلي المختلط، وقهقهات النسوة والصبايا، وسماعي لكلمات تناثرت فيها الكلمات المشحونة بحرفيَ الشين والخاء، فأعجزتْني عن فَهْمها، وأدركتُ أن ساعة اللقاء قد حانت، ساعة اللقاء بيني مُمثِّلاً للعسكرية السّوريّة، وهاته البنات يمثّلنَ العسكرية اليهودية، ودون أن أقرّر، أو أفكّر، وجدتُني أشدّ صدري، وأمشي مشية عسكري نظامية: تريدون أن تروا العسكري السّوريّ؟ ها أنذا العسكرية

السّوريّة في الزّيّ الأفضل والكامل للعسكرية، كان شيء ما من عزّة قديمة، "انتهازية بشكل ما"، فقد كنتُ أعرف أني خلال ساعات سأكون بين أهلي في دمشق، وقد تجلّل اسمي بالفخار، فأنا مَنْ دخل إلى وِجَار الدّبّ، وخرج شامخاً لم ينقطع من قميصه زرّ، وبينما كنتُ أضرب الأرض بقَدَمي في قوّة حتّى أكاد "أُخرِج الماء من مراقده"، كما علّمونا في مدرسة هنانو لتدريب المستجدّين.

كانت القهقهات النّسويّة تتعالى، والثرثرات المحمّلة بأحرف الشين والخاء الكثيرة، والصرخات النّسائيّة الخفيفة تقترب منّا، وكان العسكري الذي يقودني إلى لقاء "الكولونيل نهاري" يحاول عبثاً إسكاتهنّ، بصرخة: شيكت، والتي تعني "اسكتوا"، أمّا الضابط الكبير، والمفترَض أنه "الكولونيل نهاري" رَقْم ٢، فكان ينتظر جواب المثقّف السّوريّ الشّابّ ورأيه في إسرائيل.

كان جزء من عقلي يعمل في إصرار على تذكّر اليهودي في طفولتي، فلم أجد إلا امرأة مثقلة بملاءة ملبوسة على عجل، وطفل يبكي مرعوباً من أيدي إبليس التي تخترق السماء، وتبحث عن الطائرة الشّرّيرة التي ستقصف، أو قصفت، البيت الذي كان يضمّني مع أُمّي، في مطالع حرب سنة ٤٨، فقد كان أبي دوماً على سفر بعيد، ولعلّه شيء مرعب ولا شكّ ما كان يدفعني إلى هذا البكاء الهستيري، والتّمسّك بملاءتها في ذعر.

كانت أصابع إبليس المتطاولة كما ستُسمِّي أُمّي "البروجكترات" تفتِّش في السماء باحثة عن الطائرات اليهودية ناشرة الرعب في الحارة الوادعة "وكنتُ أسمع من خلال نهنهاتها مضاعفة الذعر، فهي مذعورة لذعري، ولذعرها، وهي تُسرِع في خطوها على حجارة جادَّة القنوات السود، والتي زرعتْها فرنسا بديلاً عن الإسفلت" في طريقها، كما سأعرف منها فيما بعد إلى مبنى الجريدة الرَّسميَّة عند مدخل القنوات الغربي.

فيما بعد، وفي أثناء المرحلة الثَّانويَّة، كنتُ أمرّ بمرحلة الشَّاعريَّة. كنتُ أتأمّل ذلك البناء الضخم المجرّد من الجمال، أيّ نوع من الجمال، فقد تغيّر لونه الخارجي، فالشمس كانت قاسية عليه، والمطر الموحِل كان يترك آثاره على فراغاته المنحوتة على سطحه، لتعطيه الجمال كما افترضوا، ولكن هذا الجمال المنقوش كان يضيع تحت ضربات المطر المثقَلَة بالغبار الذي سيتحوّل في الثقوب المنحوتة إلى وحل عالق في خشونة الجدران التي أبدتْهُ مبقّعاً كحُفر الجُدَرِيّ على ظاهر كَفَّي أبو عدنان حلّاق الحارة.

كنتُ أمضي جيئة وذهاباً عبر شارع خالد بن الوليد متأمِّلاً دون توقّف، فأنا لا أريد لفت نظر المارَّة، كنتُ أتأمّل الساعة العملاقة التي تدلّى أحد عقربَيْها خارجاً عن دائرة الساعة السوداء بعد أن انتزعتْهُ عاصفة قاسية من مكانه على الساعة، وكان اقتلاعه عن الساعة نصيبه ونصيبي، أنا الذي كان ينتظره السنوات، كي تعمل الساعة، ويعمل العقرب، فيدلّني على الزمن الصحيح، ولكني، آسفاً، سأغادر دمشق دون أن أرى الساعة، ودون أن تدلّني على الوقت الصحيح.

وعلى العكس منها، كنتُ أمشي حتّى محطّة الحجاز، لأرى الساعة على العمارة الجميلة لمحطّة الحجاز تعمل وتدلّ على الوقت الصحيح، وأنا لا أذكر أن ساعة مبنى الجريدة الرَّسميَّة في القنوات، والتي تحوي في بنائها الكهف الذي حملتْني أُمّي اليه خوف أن تصيبني طيَّارات اليهود بأذى، هذه الساعة لا أذكر أني رأيتُها تعمل، بل كنتُ أحياناً أسمع رنين جرسها الدّالّ على الوقت، وحين أجري من البيت لأراها تعمل، كنتُ أصل متأخّراً، ثمّ انقطع الرنين، وأعلن وفاة ساعة الجريدة الرَّسميَّة رغم أن جثّتها ظلّت على برج الجريدة الرَّسميَّة تعلن خيبة آمالنا بساعة الجريدة الرَّسميَّة.

لمرَّات كنتُ أفكّر، ودون جرأة على التنفيذ، في النزول إلى القبو تحت

الأرض، لأرى الكهف الذي كان رعبي في طفولتي، الكهف الممتلئ بال باكين والجاعرين من الأطفال، الكهف المحتقن بالأُمّهات المذعورات يقرأنَ المُعوَّذتَيْن، ليحميهنّ الله، ويحمي أطفالهنّ، ولا يسقط عليهنّ هذا السقف العاري الذي لم يُكْسَ بالطين الإسمنتي أو بالمِلاط، أيّ مِلاط بعد.

كنتُ أعرف أن مبنى الجريدة الرَّسميَّة في طور الإنشاء، وحتّى بعد سنوات طويلة، فهولم يُنجَزْ بعد، وكان بناء الجريدة الرَّسميَّة الأعلى في المحيط من الأحياء بين حَيّ الحلبوني، وحَيّ القنوات، وحَيّ باب السريجة، فهو بُني إبّان الانتداب الفرنسي، ليضمّ مطبعة رسمية تابعة لمجلس الوزراء، مهمّتها طباعة جميع الأوراق الرَّسميَّة الخاصّة بالدولة من قرارات وفرمانات وبيانات ومحاضر.

فيما بعد، وبعد نضجي قليلاً، واختباري قسوة الشيوخ في مدرستي الابتدائية، كان كابوس المطبعة الرَّسميَّة وبكاءات الأطفال تلاحقني في نومي حين كنتُ أرى "اليهودي" وكان هذا هو التسمية الرَّسميَّة والشَّعبيَّة للإسرائيلي في فلسطين "يمسكني تحت ثقل ركبته، يضغط علي جسدي الصغير، فيمنعني عن الحركة، وهو يتظاهر بابتسامة المُطمئِنّ" لا يخاف خبيبي، لا يخاف، متل قرصة الزلقطة، لا يخاف، وكنتُ أستيقظ صارخ الذعر، أتحسّس رقبتي خائفاً أن يكون قد ذبحَني على غير معرفة منّي.

وقلتُ للكولونيل نهاري: ماذا كنتَ تتوقّع ممّنْ عاش هذه الطفولة الممثّلة لطفولة معظم الأولاد السّوريّيْن حين يتعرّضون إلى القصف والرعب، والذعر، والإجبار على دخول ملاجئ الموت.

وسمعتُ خطوات عسكرية تتقدّم منّي، فَصَمَتُّ، ولكني، بعد قليل، أحسستُ أصبعاً تلمسني في خشونة، وصوتاً، لولا اللمسة لَمَا ظننتُ أني

المقصود به يقول: الشاي، رفضتُ الشاي رغم تشوُّقي الصارخ لكأس ماء أو شاي، وقلتُ: لا، شكراً، أنا لا يناسبني الشاي.

قال مَنْ قدّم نفسه الي باسم الكولونيل نهاري بهدوء ساخر يراضي الجندي: هاتِه، أنا في حاجة إلى هذا الشاي، وبعد تردّد أضاف: واتركْ كأس الملازم على الطاولة، فلعلّه يُغيِّر رأيه، وسمعتُ صوت رشفته عالية. وفكّرتُ في انزعاج: إنه يغيظني بشرب الشاي الذ ي يعرف أني أتشهّاه، وسمعتُ صوت الزجاج يصدم الزجاج، فعرفت أنه وضع كأسه على المكتب، كان تخميني صحيحاً حين غيّر مسار الحديث فجأة: ما الذي جعلكَ تنتظر قدومنا في المخفر، وزملاؤك كلهم هربوا إلى العاصمة أو إلى مكان آمن؟ أكنتُ تعرف أننا قادمون بعد أن أصبح مخفر أممكم المتّحدة ضمن أراضينا الجديدة؟ وكأنه أحسّ بزلقته المتسرّعة، فقال: أقصد المحتلّة، ثمّ تابع في لامبالاة متظاهرة باللا اهتمام: لمَ لم تنسحب؟ وقال مداهناً في تملُّق: كي تنجو بحياتكَ؟

كان سؤاله هذا أشدّ وخزاً من السؤال السابق، وأخذ السؤال الجارح يضغط عليّ: فلمَ لم أنسحب؟ وبهدوء أخذتِ الصورة تتشكّل، صورة اليهودي الكاريكاتورية، القاتل للأطفال، والنساء، والمُهجِّر للعائلات "ترانسفير" إلى حيث لا يعرفون، الوطن الجديد؟ وهم لا يشتهون إلا العودة للوطن، هذا اليهودي، ما شكله؟ كيف يبدو؟ كيف انتصر على جنودنا؟ أهو أسود مُتوحِّش كما كان، في كوابيسي، شيطاناً بأنياب طويلة؟؟

وبهدوء، برزت أمامي الصورة، فأنا، لم أرَ يهوديّاً غير إبراهيم ذلك الطفل الصغير، ومنذ سنوات طويلة، وتجلّى غائماً مقهى الأميركين في قاهرة السّتّينيّات، حيث عجائز الخواجات يثرثرون ويمزمزون ما تبقّى في فناجينهم الكبيرمن الكافيه أوليه، وكانوا يثرثرون ذكرياتهم في فرنسية بلدية بعض

الشيء، وبرزت أمامي بعد عدّة إصغاءات عرضية شخصيات "لورنس داريل" في روايته الجميلة "رباعية الإسكندرية". وبعد أن كنتُ أصغي عرضاً، صرتُ أصغي متعمِّداً، فلعلّي أقرأ نسخة مختلفة عن نسخة داريل، ولكنهم كانوا يضيعون مع كل ذكرى ينجرّون إليها، حيث ترى عصراً دون الإمساك بشخوصه، وكنتُ أتمنّى الانضمام إليهم في الثرثرة رغم أن الفارق بين عمري ومتوسّط أعمارهم لا يقلّ عن خمسين سنة إلا أني كنتُ ممّنْ يرون أنفسهم متجاوزين للزمن.

كان يمكن لهذ التّلصّص أن يطول حتّى يموت واحد منهم، أو أنشغل بما هو أهمّ، لولا أن أحسستُ مرَّة بمَنْ يُربِّت على كَتِفي بلطف، فألتفتُ لأرى مَنْ سأعرفه باسم جورج أشكينازي، وهو يشير إلى القدّاحة على طاولتي قائلاً: أيمكن أن أستعيرها قليلاً، فغليوني قد أصرّ، وقدّاحتي ترفض، قالها مازحاً، فقلتُ: بكل سرور، تفضّلْ، أخذ القدّاحة، واتّجه إلى طاولتهم، بعد قليل، أدركتُ أن زمن التحاقي بالقنصلية البلغارية قد آن، فجمعتُ أشيائي متّجهاً إلى الخارج حين تذكّرتُ القدّاحة، فاتّجهتُ إليهم معتذِراً وسائِلاً الموسيو: إن كان سيحتاج إلى القدّاحة من بعد، وكان اعتذار عن النسيان، ودعوة إلى مشاركتهم الجلسة، واعتذار منّي بأن لديّ عملاً يجب إنجازه، ووضعتُ القدّاحة في جيبي، ومضيتُ، وكان هذا فاتحة التعارف على شلّة "رباعية الإسكندرية" كما سمّيتهم.

أذكر أني فجأة كرهتُهُ حين كان يتحدّث في حنين عن إسرائيل، فيقول: "شيه نو"، والتي تعني "بلدنا، وطننا" رغم أنه لم يدسّ أرضها يوماً إلا في دعواتهم التي يتبادلونها "السنة القادمة في أور شالم"، فكنتُ أهجر الطاولة في لطف منتوياً ألا أعود إليها أبداً، ولكني كنتُ أعود، راغباً في سماع ثرثراتهم عن مصر ما قبل الثورة النَّاصريَّة، راغباً في سماع أنّاتهم الكسولة

لزيارة فلسطين - إسرائيل، فهم مثل الثمانين بالمئة من اليهود قد ألفوا، وأحبّوا إحساسهم بالذنب في عدم هجرتهم إلى إسرائيل، كما يحلو لهم تسميتها، كان حنيناً حقيقيّاً، حنين مَنْ لم يرَ تلك البلاد، ولم يزرْها يوماً إلا في الحكايات و"لان بروشان آ جيروساليم" "السنة القادمة في القدس" تُرى ما هذا الطقس؟ هل يتحوّل الحنين إلى طقس؟ أم يتحوّل الطقس إلى حنين في أوقات الفراغ؟ أم أنه التكفير عن ساعات المتعة في البُعد عن جيروسالم؟ ولكن الحديث يقول: الجزاء على قدر المشقّة، وهل هناك مشقّة أكبر من التضحية بالوطن "مصر" والحرمان من مراتع الصبا، ومن المال الكثير للعجوز لم يعد يكسب مالاً جديداً؟

وجاءني صوته مصدياً في عتمة الغرفة أو هذا ما كنتُ أعيه. انسلَّتْ إلى الذاكرة على غير توقّع منّي صهصلة المجنّدات اليهوديات، وهنّ يرينَ الضابط السّوريّ مشدود الصدر يضرب الأرض بقَدَمه في اعتزاز رغم العصابة على عينَيْه، ورغم القيد البلاستيكي يقبض على رُسْغَيْه بشدّة، فيمنعه من محاولات التّفلّت، فكل محاولة تعني مزيداً من الشّدّ البلاستيكي الخانق على رُسْغَيْه. كنتُ أتأمّل خياليّاً الضابط المعنطز "أنا" وهو يستعرض عزّته معصوب العينَيْن مربوط الرُّسْغَيْن مقوداً بجنديَّيْن من الأعداء، وكان منظراً كوميديّاً بحقّ يحمل العنطزة السّوريّة كلها، وهم مَنْ يقال عنهم: أنف في السماء، وخطى في الخِرَاء.

كنتُ هناك لديهم، هناك في الداخل، ولم أكن هنا، لدينا، المسافة بين الـ هنا والـ هناك هي مسافة لا تقاس جغرافيّاً وحسب، حيث المسافة قريبة جدّاً حتّى درجة الإضحاك، ولكن المسافة بين الـ هنا والـ هنالك تقاس بملايين الروايات والخرافات والأساطير، بملايين المؤامرات والشهداء والخيانات والقتلى والشرفاء، ملايين الأغاني والقصائد، ملايين الدمعات

والدعوات والصلوات، المسافة بين الـ هنا والـ هناك لم تكن سوى حجم ذهنيتنا التي حرثناها خوفاً وإيديولوجيا وفشلاً وخيانة، بينما كنّا نتشاطر اقتسام السمكة الفلسطينية كانت المسافة تكبر وتكبر وتكبر، والجدار يعلو ويعلو، ولكن الأنفاق تُحفَر، والإنسان يُدفن، المسافة بين الـ هنا وهناك ليست أبعد من عَدْوِ حصان بين مدينَتَيْن، وليست أقرب من حرب لم تنته بسلام.

كنتُ أقصّ على الكولونيل صورة اليهودي الإسرائيلي كما بدا لي، وكما خمّنتُها، لم أكن أنظر إليه، لأعرف انعكاساته عن صورة اليهودي، كما عرفها المثقّف السّوريّ طفلاً، كنتُ كَمَنْ يثرثر وحيداً، يهلوس في ثرثرة، لا تبغي إلا إبعاد الخوف، والوحدة عنه، كنتُ كَمَنْ يغنّي في العتمة، لا يبغي طرباً، بل كل ما يبتغي إبعاد الخوف من الوحدة عنه.

قال ويبدو أنه قد ضاق باسترسالاتي: ألا يمكن القفز فوق الطفولة، والعبور إلى الشّابّ في مدارجه الأولى.

وتردّدتُ في القول: وهل يُحتسَب الطالب في المرحلة الإعدادية أو الثّانويّة مثقّفاً؟

قال متسامحاً: سنعدّه مثقّفاً، هه تفضَّل.

***

كانت بداية التعارف بين المعجَب بـ "رباعية الإسكندرية" والشّخصيّات الهاربة من غلافها إلى الحياة والمشاركة في الثرثرات بيني وبين مجموعة جورج أشكنازي من مخلوقات لورنس داريل في روايته الأروع "رباعية الإسكندرية" الذين كانوا خليطاً من عجائز البحرالمتوسّط وصلوا إلى

مصر يبحثون عن الرزق، فارتزق بعضهم، وعاش مستوراً، أو ثريّاً شديد الثراء، وحين أمّم عبد الناصر أملاك الأجانب، هاجر الشّبّان منهم، وبقي العجائز كارهين مغادرة البلد الذي قضوا فيه أحلى سنوات عمرهم متمنّين "وبعضهم يقولها وبعضهم يكتمها"، فلطالما تمنّوا في أعماقهم الموت على التراب المصري الذي عاشوا عليه أجمل أيّامهم، وكان جورج أشكنازي أوّل يهودي أعرفه في حياتي يفخر بيهوديته التي عرفتُها منذ الدقائق الأولى لمجالسة شلّته يحدِّث الحاضرين عن أيّام شبابه في حَيّ شبرا القاهري الذي ما يزال يسكن فيه، وقال: إنه من سالونيك، وقد وصل إلى مصر في فتوّته، يبحث عن ثراء، لم يكن سهلاً، ولكنه يجعل المرء يعيش في رفاهية، يعجز عنها المصريون.

لم يكونوا عموماً يكرهون المصريّيْن، أو حتّى يحتقروهم، بل كانوا يغبطونهم على الراحة النَّفْسيَّة التي كانت تجعلهم راضين عن كل شيء. وكانت رفقة مسلِّية لي حتّى إني فكّرتُ في كتابة فيلم عنهم، وكنتُ في ذلك الحين ما زلتُ أضع كتابي الأوّل "سوريا والاستسلام للعسكر منذ ألف سنة"، والذي وضعتُهُ تحت اسم مستعار "فقد كنتُ أعرف قسوة انتقامهم ممّنْ ينتقد أسلوبهم في الحكم أو في الفكر".

كانوا في شلّة الأميركين يدعونني، وأعتذر، إلى مرافقتهم إلى سينما أوديون، حيث كانت تقام مهرجانات السينما، وحيث كانوا يتشمّمون بقايا رائحة مسقط الرأس، وكان في كلامهم شوق إلى مكان آخر غير مصر رغم أنهم كانوا يتغنّون بحبّ الأرض المصرية. وكنتُ شديد التساؤل: ما الذي كانوا يتشهّونه؟ أهو مسقط الرأس فعلاً؟ أم أنه الوطن الذي صنعتْهُ السينما الهوليودية غازية العالم؟

استمرّت هذه الرفقة، فلم أكن قد وصلتُ بها إلى مرتبة الصداقة

بعد حوالي السنة نسيتُ فيها أن جورج أشكنازي كان يهوديّاً إلى أن قال مرَّة وهو يتحدّث عن أُمنيّاته: كم أتمنّى أن أُدفَن في أورشليم، ثمّ تمتم مُتراجِعاً، ولكنْ، وا أسفاه، فنفقات دفني فيها أكبر من طاقتي، وأعرف أن ذلك مستحيل على غريب مثلي في "شيه نو"، وعرف الجميع أنه يعني فلسطين، ثمّ بعد صمت ران على الجميع، قال: في لهجة حُلْمِيَّة: أور شليم.

ونظر إليه الجميع بمَنْ فيهم أنا في حَيْرة، فقد كانت المرَّة الأولى يذكر فيها أورشليم، أو القدس. في اليوم التالي لم أجالسهم في الأميركين: بل اخترتُ كافيتيريا حوريس القريبة منها والبعيدة عن جورج أشكنازي وأحلامه الأورشاليمية:

ثمّ بعد صمت قصير، تابعتُ: وتسألني عن شعور الجيل الجديد الذي عاش بعد اغتصاب فلسطين على يد الأشكناز الغربيّيْن؟!

وحلّ الصمت بعد الثرثرة الطويلة، صمت هضم ما قلتُ للراغب في معرفة رأي الجيل التالي للاغتصاب، وأخيراً أخرجني من سرحاتي الطويلة سماع ضربة حذاء، أعادتْني من قاهرة السّتّينيّات إلى معسكر الجيش الإسرائيلي في السّبعينيّات، وكأن مخاطبي قد وقف من جلسته وراء المكتب، وما لبثتُ أن تأكّدتُ من تخميني حين سمعتُ صوت مَنْ قدّموه لي باسم الكولونيل نهاري يقول: يبدو الحوار مع السّوريّيْن عبثاً، فهم مُثقَلُون بالحسّ بالضياع والخسارة، وكأنها خسارة شخصية لكل فرد منهم. وسمعتُ صدى الحذاء يضرب الأرض، فعلمتُ أنه يخرج من خلف المكتب، وأخيراً سمعتُ صوت باب البَرَّاكَة يُفتَح، وعلمتُ أن اللقاء قد انتهى حين قال: ليفتنانت ذهبي من أين تقبض راتبكَ الشّهريّ؟ فأجبتُ في آلية: من إدارة المركبات. فقال: أيْ من الجيش السّوريّ؟ فقلتُ منكسِراً

وعارفاً إلى أين سيصل بالحديث: نعم. فقد سبقه الكولونيل نهاري الأوّل بهذا الحديث.

قال: وإذنْ، فأنتَ جندي في الجيش السّوريّ، وصمت ليرى هزّة رأسي تحت الكيس الأسود تجيب بالموافقة، فتابع مُخاطِباً مَنْ لا أراه: يُضَمُّ إلى الأسرى السّوريّيْن.

الطريق إلى معتقل عتليت

كان مرافقي من بَرَّاكَة من سمّيته "الكولونيل نهاري" يمسك بي بقوّة من عَضُدي، وقد كان مشوارنا دون صوت، وعلى أرض ترابية، عرفتُها من اختفاء صوت أقدامنا، وأخيراً تغيّر صوت الحذاء على الأرض التّرابيّة، فلقد وصلنا إلى طريق معبّدة، تردّد صدى خطواتنا المكسوَّة بأحذية عسكرية. كان المكان الذي نتّجه إليه أبعد من صالون السّوريّيْن الذين كنتُ قد بشّرتُ فيهم، ولم أعرف باتّجاهنا حتّى توقّفْنا عند سيَّارة، كان صوت مُحرّكها جلياً، وتقدّم آخر، فأمسك بعَضُدي الآخر، فتركني الأوّل، ومضى إلى حيث السائق، وتكلّما بعبرية لم أفهمها، وأخيراً عاد وخاطب المُمسِك بعَضُدي بالعبرية التي اكتشفتُ أني لا أعرف طريقة نطقهم لها، ومضى، وقادني المُمسِك بعَضُدي، وحين اقترب من السَّيَّارة، طلب منّي بعربية فلسطينية ملكونة بالعبرية أن أصعد إلى السَّيَّارة التي اكتشفتُ حال صعودي اليها أنها مزدحمة بالسّوريّيْن، وكان واحد منهم يئنّ بشكل جارح، وسأعرف بعد قليل أنه من الطّيّارين السّوريّيْن، وأجلسني المُمسِك بعَضُدي في مؤخّرة السَّيَّارة، وعلى أرضها، ثمّ عبر الجالسين إلى حيث السائق، ليقفز فوق الحاجز، ويجلس إلى جانب السائق، وتحرّكت السَّيَّارة وأنا مصعوق دهشة، ولم أجد من مجالسيّ السّوريّيْن ما يشجّع على الحوار، فَصَمَتُّ، ولكن الأفكار أخذت تهاجمني: لماذا أجلسَني الحارس على الأرض، وفي مؤخرة السَّيَّارة، حيث ليس أسهل من دفعة رجل قوية ترميني إلى الشارع، حيث تكون سيَّارة مُتعجّلة على الطريق السريع، فلا تراني، وتدوسني، وربّما كانت

السَّيَّارة هي سيَّارة المرافقة نفسها، والمكلّفة بتخليص القيادة من جريرة اختطاف ضابط من مخفر تعلوه راية الأُمم المتّحدة، ويكون هذا التخليص باستحضار دورية من الشرطة، تصوّر الحادث الذي داست سيَّارة فيه أسيراً، حاول الهرب من سيَّارة الجيش.

احتلّ هذا الكابوس كياني، فمددتُ ساقَيّ، وثنيتُ ظهري حتّى يطول ساقاي الجانب الآخر من السَّيَّارة، وتثبتُّ في مجلسي بحيث لا تُوقِعني من السَّيَّارة رفسة، وحين اطمأننتُ إلى عجزهم عن إيقاعي من سيَّارة الجيب، سمعتُ أنين الجار الدّاخليّ يجرح الفؤاد، وعند مطبّ ما، قفزت السَّيَّارة، فسمعتُ صرخة الجريح، وتجرّأتُ على محاولة السؤال، لولا أن الجالس قريباً منّي وهو مَنْ سأعرفه عند وصولنا إلى معتقل عتليت باسم الرائد الطّيَّار إدلبي يقول بصوت خافت: لا بدّ من حمله سريعاً إلى المستشفى، وكأن الكلمات أعجزتْهُ، فتمتم مُتعَباً: لا بدّ أن ضرراً كبيراً قد أصاب ظَهْره. وصمت، فقال مَنْ إلى جواري أو مَنْ سأعرفه باسم النقيب هنيدي: الرائد أديب بطل حقيقي، وأحسستُ بالطّيّار الثالث يرفس النقيب هنيدي مُنبّهاً، وكأنه يشير إلى الحارس الجالس إلى جوار السائق، والمكلّف برفع التقرير عن مصاحبيه من الأسرى السّوريّيْن.

كان الحديث حميماً بينهم، وللمرَّة الأولى أحسّ بالغربة فيما بينهم، أولئك الذين يحملون المشتركات الكثيرة بينهم، وكان الحديث حديث مَنْ يعرف كل شيء عن الآخر، وسأذكر هذه المكاشفات كلّما سمعتُ أو رأيتُ الكابتن "أصفري" وهو يترحّم على واحد من أصدقائه الطّيّارين حتّى اضطررتُ مرَّة، أو زلقتُ، فقلتُ له: أكل مَنْ تعرف شهيد؟ فقال منكسراً: هذا نصيب الطّيّارين، أنتَ تطير ممسِكاً بشبابكَ وأحلامكَ تحت إبطكَ. ولكنكَ لا تعرف إلامَ ينتهي هذا كله، فربّما لن تعود سالماً من رحلتكَ في الطّيّارة، وربّما تعيش حتّى تسأم المئة.

كان الحوار المتقطّع، والخائف من الحارس المتنصّت، أو من جهاز تسجيل يحمله يرعب الجميع كلاًّ على حدة، ودون تواطؤ، وارتفع أنين الرائد أديب، ولم يكن بإمكان أي منّا مدّ يد العون له. أو حتّى التربيت على يده في تعاطف، نام الحارس. وعرفنا ذلك من شخير خفيف صادر منه، وهمس الرائد إدلبي أننا اقتربْنا من تلّ أبيب، ولم نكن في حاجة إلى الاستفهام منه، فقد عرفتُ أنه انتهز فرصة نوم الحارس، ليُسلِّل بصره عبر الكيس الأسود، ليرى ما يمكنه من تلك الفتحة، فتحسّستُ الكيس الذي يحجب الرؤية عنّي، وأزحتُهُ قليلاً، ورأيتُ للمرَّة الأولى شوارع مدينة إسرائيلية، وكانت نظيفة، لا حُفر فيها، أو تراب عند جانب الرصيف، كانت شرطة السير من النساء اللواتي لم يكنّ من الغربيات، واللواتي فاجأنَني بلونهنّ الأسمر.

هجمت ضجّة المدينة بعد صمت الطريق من صفد، وسمعتُ أزيز عجلات السَّيَّارات تستعجل العودة إلى البيت، حيث العشاء الدافئ، أو الشجار المتفجّر، وارتسمت على وجهي ابتسامتها هناك في البيت: ما أغرب ما مررتُ به منذ اختطافي من مخفر "يوك"! ثمّ قفزنَ أمامي: سميرة زوجتي الشَّابَّة، وسهير ابنتي البِكْر، فتساءلتُ: تُرى هل عرفت سميرة بحكاية اختطافي من مخفر الأُمم المتّحدة؟

توقّفت السَّيَّارة فجأة، فاستيقظ الحارس، وتنحنح، وكأنما ينبّهنا إلى وصولنا إلى نهاية الرحلة.

عتليت

تجاوز الحارس جلستي المتسمّرة إلى السَّيَّارة عبر إسناد ظهري بقوّة إلى جدار السَّيَّارة وقَدَمَيّ إلى الجانب الآخر، وقفز الحارس إلى الشارع، ثمّ إلى كُوَّة الحارس الذي كان يعرف بوصول الحمولة "نحن" إلى المعتقل.

مشيْنا طابوراً من العميان، يقودنا الجندي الحارس وأنين الرائد أديب، وسمعتُ صوت باب ضخم ينفتح. عرفتُ ضخامَتَهُ من أنينه المتحشرج، وسأعرف فيما بعد أنه الباب المؤدّي إلى سجن عتليت المخيف الذي جعل منه البريطانيون سجناً للمناضلين الفلسطينيّيْن قبل عشرات السنين.

عتليت كما قالوا لي في الداخل إنها بلدة قريبة من حيفا مهوى أفئدة السّوريّيْن سابقاً، حيث كان على كل مَنْ يرغب من الدّمشقيّيْن والسّوريّيْن عموماً عيش الحياة الصاخبة والحرّة، الذهاب إلى حيفا، وها أنذا قريب من حيفا، ولكنْ، في عتليت تلك، وفي سجنها الذي خبرنا اسمه طويلاً من أصدقائنا الفلسطينيّيْن، ومن إعلامهم القوي في سوريا ولبنان.

فصلَني الحارس الذي يمُسِك بذراعي عن الطّيّارَيْن الكسيرَيْن، وقادني إلى غرفة كان فيها رجل ذو رتبة مهمّة، عرفتُ أنه ذا رتبة مِن ضَرْب الحارس بقَدَمه الأرض مُحيِّياً، نزع الحارس الكيس الأسود الحاجب لي عن العالم، ورمشتُ طويلاً قبل أن أرى الغرفة المتقشّفة، والضابط المنحني على ملفّ بين يَدَيْه وراء المكتب، ولما طالت وقفتي، وكدتُ أجلس احتجاجاً على تجاهله لي، رفع رأسه، ودعاني إلى الجلوس على كرسي موضوع قريباً من مكتبه، جلستُ، وبدأ يتأمّلني بعينَي ثعلب، وأخيراً قال بعربية مصرية: هل كان المشوار متعِباً؟ كانت لغته العربية سليمة، وإن عرفتُ "عرفتُ؟" فلنقل حدستُ، كان في اللهجة ما يقول إنه يدَّعيها، وقال: مرحباً بكَ في إسرائيل، ثمّ غيّر من إيقاع لغته بعد تأمّل لي طويل، وقال في عادية: مَنْ أنتَ؟

فاجأني السؤال، فقد كان ملفّي على المكتب أمامه، وفيه كل ما وصلهم عنّي، وكرّر السؤال آمراً بلا كلمات، بل بصوت حلقي دون كلمات، صوت آمر فقط. وصمت يتأمّل انعكاساتي، طال الصمت حتّى أُحرجتُ،

فرأيتُ أن الإجابة خير من الصمت، وقلتُ مكرّراً ما اعتدتُ قوله لهم في التعريف بي من اسمي، ورَقْمي العسكري، ورتبتي، ثمّ صَمَتٌّ، فقال: كنتُ أتوقّع منكُ بذاءة كهذه، فلقد حذّروني ممّا قد يخطر لكَ من ألاعيب لفظية، وصرخ في صرامة: مَنْ أنتَ؟ ورَدَّدْتُ في آلية كل ما قلتُهُ قبل قليل، فقال: هذا التصميم والإنكار غير مفيد، وصلتِ التقارير عنكَ كاملة، وأنا أحبّ أن أسمعها منكَ، وفجأة وجدتُ لساني يقول دون تفكير مُسبَّق "الرائد أديب يعاني من ضربة المقعد لمؤخّرته عند قفزه من الطّيّارة بعد إصابتها، واستبقاؤه حتّى الغد دون علاج ربّما يزيد حالته سوءاً، وأنا أنصح بتحويله إلى مستشفى متخصّص فوراً. كنتُ أرى الدهشة تتجمّع على وجهه ببطء، ثمّ تنفجر فجأة في سخرية صارخة: "على عيني" قالها في لهجة سورية "أشكر لكَ تنبيهي"، وفجأة غيّر القناع الساخر على وجهه، وضغط على زرّ الجرس أمامه، فانفتح الباب، ودخل الموظّف الحاجب، فضرب الأرض بقَدَمه في تحيّة باردة، فقال له، بالعبرية التي فهمتُها، دون مقدّمات: يُحوَّل الطَّيَّار الميجور أديب إلى المستشفى فوراً. بعد انغلاق الباب، سمعتُ صوته الساخر: ولكنكَ لم تجبْني بعد، مَنْ أنتَ؟

التحقيق في عتليت

واضطررتُ إلى تكرار ما قلتُ سابقاً في ميكانيكية، تبدو مُملَّة، ولكنها ضرورية، وفجأة غيّر سياسته، وأظنّه فعلها لصدمي وإعادتي إلى الأرض، فصفعني في حقد، كانت الصفعة شديدة ومؤلمة، ولكني تماسكتُ، وظللتُ على جلستي في متناول كفِّه، ليصفعني ثانية، لم أصرخ، ولم أتفاجأ بتغيُّر سلوكه مع ضابط مجنَّد في لجنة الطوارئ الدّوليّة مختطف من مخفره في اختراق غير مسبوق للقوانين الدّوليّة.

رنّ الهاتف أمامه، واضطرّ بغير رغبة إلى رفع السَّمَّاعة والإصغاء في

استسلام إلى الهاتف، وضع السَّمَّاعة، وجمع ثيابه على جسده دون حاجة إلى هذا الجمع وهو يقف، ثمّ يتّجه إلى الباب دون تفسير أو اكتراث بتفسير.

كان صمت طويل، حرتُ في كيفية تجاوُزه، وتسلّلت الأفكار: فقد تحقّقت رغباتكَ في رؤية الإسرائيلي رأي العين، لا عجوزاً متقاعداً ضائعاً في بقايا الأوربيّيْن في كافيتيريا الأميركين ممّنْ حكموا مصر لعقود، ولا بائع "روبا بيكيا، أي ثياب أو أثاث عتيق" في حارات دمشق، ولا مديراً لمحلّ تجاري كبير، لا يطرح نفسه للرؤية، أو للحوار كما في عمر أفندي ودافيد عدس في القاهرة، أو الـ "المخزن الهندي" في شارع ٢٩ أيّار في "دمشق"، بل جنديّاً مهاجراً إلى فلسطين، وشرطية سير، ومحقّقاً "أهذا ما كنتَ تحلم به؟ أهذا ما كنتَ تطارده بمنظاركَ المعظَّم عبر وادي الرَّقَّاد في أقصى حوران والجولان؟ أو في اجتماعات مكتبي هيئة الأُمم المتّحدة لفصل القوّات بين سوريا وإسرائيل، والتي كانوا يستثنونكَ خارجها دائماً".

استيقظ البيت فجأة فيّ، وتسلّلت همومه إليّ في السؤال: هل عرفتْ زوجتي باختطافي من المخفر؟ أم؟ أتراها أطعمت عصافير الكناري والحسُّون؟ أم نسيتْها كالعادة؟ وتسرّب سؤال سخيف، ولكنه ممّا ألح عليّ كثيراً فيما مضى، والآن، مَنْ سيجلب الخبز من الفرن لهم غداً، إن نفد الخبز؟

تولّد سؤال ثانٍ عن الأسئلة السابقة: هل سيطول غيابي عن البيت حتّى لتنساني ابنتي الوحيدة حتّى اليوم، فتح الباب دون نَقْر، ولم ألتفتْ، كان المحقّق قد عاد، جلس وراء المكتب، فتظاهرتُ بعدم الاكتراث حين رأيتُ حركته، وادّعيتُ عدم الملاحظة، كانت يده تتسلّل إلى ما تحت المكتب، وتوقّعتُ شيئاً سينتج عن حركته، وكان الشيء في انفتاح الباب من خلفي ودخول الحاجب، كنتُ أحاول التظاهر بالانصراف عمّا يجري تماماً حين نطق المحقّق أخيراً، قال، وفهمتُ بصعوبة شديدة بالعبرية: الزنزانة ٣٦٠.

أدركتُ أنهم لم يحسموا أمرهم في طريقة التعامل معي بعد، وهل سيعدّونني أسيراً عاديّاً كالطّيّارين الذي صحبوني إلى عتليت؟ أم أنهم سيعدّون اختطافي من مخفر يرفع علم الأُمم المتّحدة اعتداء على أرض تابعة للأمم المتّحدة، فيحاولون التّملّص من غلطة كهذه؟ قال الحاجب، وأشار بيده يدعوني للقيام: لا كوم، وفهمتُ أنه يدعوني للقيام، وقمتُ، فأعاد وضع الكيس الأسود على رأسي، وقادني إلى خارج غرفة المحقّق.

كانت زنزانة عادية، وإن لم يكن فيها سرير، بل فراش متواضع مطروح جانباً، وسطل كبير لقضاء الحاجَتَيْن، وهذا كل شيء. وكان هذا هو كل الأثاث الفخم المقدَّم إلى مراقب للهدنة سوري.

جلستُ على الأرض العارية الباردة حرّ الكفَّيْن للمرَّة الأولى هذا اليوم.

كان المصباح الكهربائي العاري يفضح كل حركة في الزنزانة للمراقب، ولم أستطع معرفة العين "الكاميرا" التي يراقبونني منها، كان الضوء الفاضح لا يدع للضّحيّة "المقيم في الزنزانة" أيّة فرصة للقيام بأيّ فعل خارج عن مراقبتهم، مشيتُ في الغرفة "لن أُسمّيها زنزانة"، أحاول التّريّض العضلي استعداداً للقاء مع المحقّق الغاضب. كنتُ أعرف أنهم لن يدعوني أرتاح بالنوم، بل سيُعاودون الهجوم، والتحقيق المكثّف معي، ماذا يريدون منّي؟ وهل كانت الكلمة الأخيرة للكولونيل نهاري هي التهديد لي في أنهم لن يتخلّوا عن اتّهامي بالعمل مع المخابرات السّوريّة، وأنهم في اختطافهم لي سيُقدِّمون مَنْ يدَّعي الحيادية، كما يُفترَض في العامل مع هيئة حيادية كالأُمم المتّحدة، وفي أنه الضابط الحيادي، الأعزل من السلاح، وها هم يكشفون القناع عنه.

كان طول "الغرفة/الزنزانة" لايتجاوز الثلاثة أمتار، كما كان عرضها مترَيْن

ونصف تقريباً، وكانت كافية لما أنتويه من رياضة، أتجاوز فيها الوحدة، والبُعْد عن الأهل، بينما كنتُ أخطو وأستدير في عنف بعيداً عن الزنزانة والتحقيق، وبعيداً عن كون الغرفة هي زنزانة عند العدوّ.

القسوة

كنتُ أمشي بسرعة أُروِّض جسمي على النسيان، ولكن جسمي كان قد أُنهك تماماً بعد كل هذه الرحلة الغريبة ما بين مخفر تلّ الهوى، وبين المخافر الأخرى على طول الجبهة في الجولان للعامَيْن السالفَيْن، وبين الإسهال الذي هدّ قواي وما بين صفد وتلّ أبيب، وببساطة اكتشفتُ أن ما كنتُ أتمنّى التّعرّف إليه عن قرب قد أصابني بالخيبة، فهم "اليهود في إسرائيل" لا يختلفون عن السّوريّيْن الذين تركتُهم في سوريا إلا في أنهم يخشون، بل يحترمون القانون المفروض على الجميع "كانوا يُشبهوننا في الملامح"، ففيهم الغربي الملامح والتقاسيم، وفيهم الشرق أوسطي الملامح، أو مَنْ يشبه الأكثرية من السّوريّيْن، وفيهم الأسمر والأبيض والأسود، إلخ، وعبثاً حاولتُ اكتشاف المختلف فيهم عنّا حتّى يحقّ لنا تسميتهم باليهود، كانت ساقاي قد ضعفتا عن الخطو السريع، وبدأتا في التكاسل، فاخترتُ الاسترخاء على الفراش الممدود الذي مددتُهُ إلى جانب الجدار، والاستناد إلى وسادة موضوعة عند رأس الفراش، فجررتُها وثنيتُها، واسترخيتُ غير مدرِك أن النعاس والإرهاق قد أنهكَاني، لأني ما كدتُ أسترخي حتّى انقضّ النوم عليّ دون مراجعة.

لم أعرف كم تركوني أنام، فهم لا شكّ كانوا يراقبونني، وينتظرون لحظة استسلامي للنوم، ونمتُ غير مدرِك أني نمتُ، ولكنهم عرفوا بنومي، فلقد سمعتُ ضربات حذاء عصبية على البلاط العاري، لم أكترث، ولكن الحذاء لم يُراعِ نومي، فسرعان ما أحسستُ بمقدّمة حذاء تَخِزُني في خاصرتي،

فتحتُ عينَيّ، كان المحقّق اللئيم ينظر إلى ضعفي في شماتة، قال: قمْ، فلدينا ما نتحدّث فيه.

استجاب شبابي، فانتصبتُ قائماً، وإن تمنّيتُ لو أطيح به، وبلؤمه في ضربة واحدة، ولكنني تغلّبتُ على الخاطرة، واتّجهتُ إلى الباب، قال: حدِّثني عن انضمامكَ إلى المخابرات العسكرية في سوريا.

كانت الملاحظة لئيمة، بل شديدة اللؤم، فقد نزع عنّي كل صفة أُممية كضابط ارتباط مع "الإيسماك"، افترض، وأرادني على الموافقة على أني ضابط مخابرات مدسوس في قوّات الفصل، وأجبتُ إجابتي الميكانيكية التي اعتادوا منّي عليها في ذكر اسمي ورَقْمي العسكري ورتبتي فقط، اندفع غير مهدّد، بل ممتلئاً بالغضب والعنف يشتمني، ويشتم أُمّي، وأختي كأسوأ السَّفَلَة في السوق الشَّعبيَّة، وانتظرتُ وصوله إليّ، يزبد بالشتائم، وكنتُ أستعدّ لاستقباله بلكمة قبل وصوله إليّ، هل كنتُ مُحتمياً بمنصبي في قوّات الطوارئ؟ هل كنتُ أحتمي بالجيش السّوريّ الذي رأيتُ فلوله تنسحب من القطاع الشمالي متخلّين عنّي وراء خطوط العدوّ؟ هل؟ وهل؟

لكنه تماسك فجأة، ودار على عقبَيْه راجعاً إلى مقعده إلى جانب المكتب مبتعداً عن "خلف المكتب"، ليُمكّن نفسه من حرّيّة الحركة حين يشاء.

تنفّس بعمق كَمَنْ يهدئ تهيُّجه، وقال: كنّا نظنّكَ في بداية اليوم الضابط الأُممي الوحيد الذي سنسعد بلقائه "كانت السخرية تنزّ من بين ثناياه"، وأكمل: ولكن الله، "إلهنا نحن" سّرب في سخرية، قد أراد إسعادنا، فقبضنا على مَنْ يفترض أنه يماثلك في العمل ک ضابط ارتباط سوري أيضاً، ولم يحاول بشدّة خداعنا، فسرعان ما اكتشفْنا ما يخفي

تحت قميصه، وسعدنا لهذا الاكتشاف، وأكمل في رضا عن النَّفْس: أنتَ ضابط مخابرات، يا عزيزي، بشهادة شريكك في العمل، قلتُ في برود: أنتم أحرار فيما تؤمنون به، ولكنكَ لن تسمع منّي إلا ما هو مكتوب في هويتي العسكرية التي سلبتُمُوها منّي، وقال في مكايدة لا تليق بالتحقيق: بل أنتَ عامل بالمخابرات، وقد أرسلكَ قادة الفرع الأمني إلى هيئة الفصل "الإيسماك"، لتكون عينهم على شركائكَ في العمل، وعلى ضبّاط الفصل الأُمميّيْن، وتمتم في حَيْرة ساخراً: كنّا نتساءل، هل يمكن لهم "لمخابراتكم"، هل يمكن لهم الثقة في المثقّفين يعملون مع الأجانب:

- ولزمن طويل، كنتُ عاجزاًعن الجواب حتّى أتيتُماني به؟

- صَمَتُّ غير راغب في حوار معه، لن يؤدّي إلى نتيجة، ولمّا سئم هو الصمت، قال: لدينا مَنْ يعترف بأنكَ المسؤول الأمني عنه في المكتب، وقد اعترف بأنه يعمل مع المخابرات، وصمت بعد أن قال: ما ردّكَ؟

ولمّا كنتُ أعرف أن الأمر والحكاية كلها ملفَّقة، قلتُ: هو حرّ في ادّعاء العمل مع المخابرات، أمّا أنا، فلم، ولن أعمل مع المخابرات، ولو كان أمر بقائي مع المحقّق من عدمه راجعاً إليّ، لكنتُ قد غادرتُ في احتجاج، ولكنه هو مَنْ غادرني وحيداً بعد دخول الحاجب والحديث معه في عبرية هامسة.

استندتُ إلى ظهر المقعد مسترخياً، وربّما لو طال غيابه، لنمتُ نعساً، فتح الباب في انتصار بعد غياب ربع ساعة، يُلوِّح بورقة في انتصار، ورماها في حضني، وقرأتُ: أنا الموقّع أدناه "فليعذرني القارئ عن ذكْر الاسم" أقرّ بأني أعمل لدى المخابرات "فرع فلسطين" السّوريّة، وأني أقوم بكتابة كل ما يمكن لضباط فصل القوّات من إساءة إلى موقعهم الحيادي، وأقر بأن واجبي هو أن أنقل إلى القيادة كل ما يمكن أن يقوله أو يفعله زملائي ضبّاط

الارتباط، وعلى هذا أُوقّع، ورفعتُ رأسي متعَباً: وهل قبضتُم على "فلان الفلاني"؟ فقال في لغة مزيج من انتصار وزلاقة تحاول إخفاء الانتصار: نعم، وقد أقرّ بأنكَ المسؤول عنه قيادياً.

كنتُ أعرف بأن كل ما قيل ويقول هُراء في هُراء، وأن الورقة التي يهدِّدني بها ليست إلا ورقة ملفَّقة، ممّا يُستخدَم في التحقيقات، لجعل مَنْ يراد منه الاعتراف يعترف، فهم يلاعبونه هذه الملاعبة، فيعترف، ويقرّ بكل ما يريدون منه الإقرار به، ومزّقتُ الورقة في تحدٍّ، وقلتُ ساخراً: وها أنذا أُمزِّق ورقة إدانتي.

قفز في اتّجاهي، يحاول إنقاذ الورقة، ولكني رميتُها في سلّة مهملات قريبة مليئة بالقاذورات، فحدَّق فيها ممزّقة في غيظ، ومضى إلى خارج الغرفة.

نظرتُ إلى الحاجب الصامت، وكأنه يتفرّج في تسلٍّ على لعبة، وسألتُهُ بالإنكليزية: ما حكاية صاحبكَ؟ ولكنه لم يفهم. أو إن كان قد فهم، فقد تظاهر بعدم الفَهْم.

لم أحاول استعراض مقدرتي اللغوية، بل انطويتُ على نعاسي، وحاولتُ النوم، ولكن الباب انفتح بعنف، ودخل المحقّق، فرمى بين يَدَي ما تبدّى لي أنه صورة "فوتو كوبي" عن ورقة أخرى مختفية، أو مَخفية بعيداً عن متناولي. كانت الورقة لا تحوي وثيقة أو اعترافاً، بل إقراراً بأني أنا "المسؤول الأمني عن الزميل" الذي لن أضع اسمه ها هنا، وأنني مَنْ قدّمه إلى جهاز المخابرات، وزكّاه".

كانت الوثيقة إدانة صافية لي، واتّهاماً صريحاً لي بأني أعمل مع جهاز المخابرات، وأن اختياري للعمل مع ضبّاط الارتباط ليس إلا تغطية لعملي السّرّيّ في ملاحقتهم، وكتابة التقارير عنهم.

وفجأة عرفتُ ما المقصود من هذه المسرحية السوداء كلها، لقد أرادوا التّملّص من الفضيحة التي ارتكبوها باختطاف ضابط سوري يعمل ضابط ارتباط مع قوّات الطوارئ الدّوليّة، وليس أفضل من اتّهامه بأنه كان يخون الأمانة، ويتجسّس على زملائه في المخفر، وقد استحضروا زميلي الضعيف بعد القبض عليه، وهدّدوه، وقدّموا له وثيقة بتوقيعي، أعترف فيها بالعمل مُخبِراً على زملائي من ضبّاط الارتباط، وعلى زملائي من ضبّاط الـ "إيسماك"، وصفّرتُ في صمت. إذنْ، فقد كان هذا المحقّق الذي تبدّى لي أحمق ليس إلا المورِّط لي في هذه اللعبة العجيبة، وضعتُ نسخة الوثيقة التي ماكانوا ليهتمّوا لو أني مزّقتها، فليست إلا صورة، على المنضدة الصغيرة إلى جانبي، وأخذت الأفكار تعبث بي، ولكن المحقّق ما كان ليتركني أخطّط للوقوف في وجه خطّتهم.

قال في تعالٍ: أظنّ أنه ليس لديكَ بعد اعتراف صديقكَ الكثير من الخيارات، وأشار إلى الورقة الاعتراف. كان من الواضح أنه في شموخه هذا إنما يعبّرعن هزيمتي المُرَّة، ولكنّ ما لم يتوقّعه هو في ردِّي في لا مبالاة: فليعترف على نفسه كما يشاء، أمّا أنا، فلستُ مُهتمّاً بـ الكيفية التي حصلتُم فيها على هذا الاعتراف، وصَمَتُّ أتمالك قدرتي على القول، فقلتُ:

أنا لم أعمل يوماً مع جهاز المخابرات السّوريّة، ولا لثانية واحدة، ههه، وضحكتُ، بل لدي حساسية خاصّة من كافّة أجهزة المخابرات في العالم من فرنسا إلى مصر إلى سوريا، بل حساسية من كافّة الأجهزة المصمّمة للقَمْع والتّجسّس وانتهاك الحرّيّات والخصوصيات، وأنا مُصمِّم على أني فلان، وأن رَقْمي العسكري هو كذا، وأني الملازم فلان المجنّد للعمل مع قوّات الطوارئ الدّوليّة كـ ضابط ارتباط، وهذا كل ما يمكنكم الحصول

عليه منّي حسب اتّفاقية جنيف دون زيادة أو نقصان. استدار من موقعه دون ردّ، وخرج من الغرفة، وشعرتُ بكسبي جولة في هذا الحوار القاتل.

وبدأ الجحيم الذي كانوا يُخفونه عنّي تاركينه للآخرين، أو حتّى الوقت المناسب لهم، وربمّا لينتقموا فيه من تعاليّ عليهم، ويكرّرون قول: ليست كراهية إسرائيلنا بالأمر المغتفَر أبداً، وستدفع الثمن يوماً، وإن لم يكن على أيدينا، حتّى مع تاريخك العامر بالحوار مع اليهود الآخرين.

وكانت الاستضافة الأولى، بعد تعريتي تعرية كاملة في غرفة سينسخها عنهم السّوريّون بعد قراءتهم تقريري، هل كان هذا انتقامهم منّي، وممّا أمثّل؟

كانت مساحة غرفة التعذيب التي اختاروها لي حوالي المتر عرضاً، والمتر ونصف طولاً، والمتر ونصف ارتفاعاً، وكانت مفروشة بحصا مدبّب ومُثبّت إلى أرض الزنزانة بالإسمنت، وكان إدخالي إليها محجوب العينَيْن، حافياً عارياً من كل ثياب.

الحصيات المُدبَّبة عمودياً في الإسمنت كانت تعذيباً دائماً لقَدَمَيّ العاريَتَيْن، وباختياري الكامل، فقد كان كل نقل للقَدَمَيْن ليس إلا ضرباً بالسياط المرعبة، ولم يكن تفادي الحصى ممكناً، كما لم يكن الثبات في بحر الحصيات المدبّبة ممكناً أيضاً، وكان انخفاض السقف يُجبرني على الانحناء المؤلم للعمود الفقري، كما كان الانحناء تركيزاً للألم في وقع السياط على القَدَمَيْن، وكان التّخلّص من تشنّج الظهر مزيداً من ضربات السياط للقَدَمَيْن العاريَتَيْن. كان ابتكاراً جديداً للوجع غير القاتل، في وقت تتمنّى فيه الموت، فلعلّ التّخلّص من هذا العذاب ممكن. بعد عدّة جلدات على القَدَمَيْن، وضربات مهولة على العمود الفقري، لم

أعد أعرف الوقت، أهو الليل؟ أم النهار؟ نسيتُ الإحساس بالزمن، فلم أعد أُميّز في أيّ وقت يعيش العالم خارج السجن، وصار الزمن لي هو زمن الحاجات الطّبيعيّة من تبوّل وتغوّط أكتمهما ما تمكّنتُ، ثمّ أتركهما يتسلّلان منّي، فالطبيعة كانت أقوى من كل تهذيب وتحضّر، وكان لارتياح المثانة متعة تفوق متعة مضاجعة المرأة، أمّا متعة التّغوّط على الفخذَيْن المتهيّجَتَيْن من ألم الانحناء ومن ضربات السياط على القَدَمَيْن، واللّتَيْن تحوّلتا إلى مركزي ألم فقط، فقد ظلّت الذكرى الحَيّة معي حتّى اليوم. وبعد زمن لا أدري إن كان قد طال أو حتّى قصر، سمعتُ خطوات أحدهم تقترب من الباب، فتهيّجتُ أملاً، وكأن امرأة تقترب من الباب، ولكنّه لم يكن إلا الحارس الذي سأل في لغة عربية مهانة الأداء: جائع؟ واكتشفت أني جائع، فقلتُ: نعم، جائع، ثمّ خطر لي سؤاله عن الزمن، لعلّه يجيب: هل حلّ الصبح؟

كانت فلسلفة التعذيب عموماً حينما أتأمّلها فيما بعد، هي في تحويل الإنسان وإنزاله درجة في سلّم الدائرة الحيوية للطبيعة، إنزاله إلى مرتبة الحيوان، في كسر أَنَفَتِه البشرية، والتعامل معه على أنه عبد للغرائز التي ستهينه تلقائيّاً حينما يفعلها، الأكل والشرب والحمّام والبكاء والتعرية والمرأة والجسد المنتهَك، فلسفة قائمة على قدرة السّجّان على منح الإنسانية، وفي الوقت نفسه: سلب تلك الإنسانية، ولكَ الخيار في القبول مع السّجّان أو رفض ما يطلبه وبالتالي النزول إلى العالم السفلي، حيث (الايد) الفرويدي بكل ما يعنيه من قسوة وألم وإهانة نَفْسيَّة، لم يكن الألم الجسدي هو التعذيب، بل كانت العين الخارجية التي ترى الجسد وتقيمه هي مَنْ تُعذّبكَ.

هل حلّ الصبح؟

لم يكن لديّ من أدوات حساب الوقت إلا مواعيد الألم في الجسد،

وفي القَدَمَيْن، وفي العمود الفقري الملتوي منحنياً، قال وقد فاحت روائح العجز البشري مع فتحه الباب: ما هذا؟ وزمَّ أنفه في قَرَف. ثمّ تركني ومضى بعد إقفال الزنزانة على العجز البشري.

وعادت فصول السياط والتواء العمود الفقري، وكان الجسد قد نشف تماماً من بواقي الماء، والطعام، وتفرّغ الجسم للإحساس بالألم فقط.

عاد الحارس ومعه حارسان آخران، عرفتُ بأنهما اثنان من اختلاف الصوت، فأخرجاني من الزنزانة إلى الباحة، فتمطّطتُ قليلاً، ويا للسعادة عند عودة العضلات والعظام إلى وضعهما الطبيعي! ولكنهما لم يتركاني أُكمل متعتي، فلقد ربطني الحارس بقيدي الحديدي إلى حلقة في الجدار.

تمطّطتُ ما استطعتُ أتمنّى عودة العمود الفقري إلى استوائه، وسمعتُ من خلف الكيس الأسود صوت الماء يندفع عبر الخرطوم، يغسل آثار ما فعلوا بي، وكنتُ أتمنّى ألا ينتهوا، فقد كنتُ أخاف العودة إلى الركوع الكريه، ووقع سياط الحصيات المدبّبة على قَدَمَيّ العاريَتَيْن، وسمعت صوته بالعبرية الخشنة التي لم أسترجع ما أعرف منها بعد.

انتشر الهدوء في الباحة، وكنتُ أتخيّلهم يراقبون عُريي الفاضح، وأعضائي الذابلة من الرعب والبرد حين سمعتُ صوت لُهَاث ليس قريباً، ولكنه لُهَاث، حيواني، وانتفض الرعب: أتراه حيواناً بريّاً مُتوحِّشاً؟ وأمعنتُ في الإنصات، أريد سماع واحد من الحرس، ولكن أصواتهم اختفت، وهجم التساؤل: فمن أين تسلّل الصوت الحيواني، إذنْ؟ كان الصوت يحوم حول مسامعي، وكأنه يحاور فريسة ما، وعرفتُ مذعوراً أني أنا الفريسة. صرختُ من خلف القناع: يا حارس، "غاردس"، ولكن أحداً لم يردّ، وكان اللُّهَاث الحيواني يمعن في تشمّمه واقترابه، وكان الذعر يشتدّ، وكان البول الذي حرّضه الشرب الزائد، والظمآن حتّى الدَّنَف يموج في أحشائي، ولم أسمع

صوت إنسان يُنجدني، وبسرعة الضوء، كنتُ أفكّر: حين دخلْنا إلى السجن كانت الباحة ممتلئة بالأصوات، فأين اختفوا؟ تمنّيتُ سماع كلمة عبرية، فأعرف بوجودهم القريب، كلمة بالإنكليزية، فأعرف بأن المحقّقين قريبون، أمّا أن تكون والوحش وحيدَيْن، فذلك رعب أكبر، واللُّهَاث يقترب، والبول يضغط، وبول الرعب يتسرّب منّي على غير رغبة أو متعة، وفجأة انقضّ الوحش عليّ، على فخذَي وما بينهما، وانكمشتُ إلى الداخل، انكمشتُ حتّى أصبحتُ أمسح، متمنّياً أن يتحوّل الانكماش إلى اختفاء، إلى ضياع في البطن: ولكن ذلك معناه أن تتحوّل إلى امرأة: فليكنْ، فذلك خير من أن يأكله، ولم أحسّ بألم البَتْر أو الخِصَاء، لأن ذلك لم يحصل، كنتُ أتلوّى عاوياً، أحاول النجاة بنفسي، أو ببعض منّي بعيداً، لم أحسّ بألم البَتْر، لأن الخوف كان هو المطلوب، وليس اللحم، ولم أحسّ بالعضّة تُقضَم منّي، لأن ألم الفكرة كان أوقع من الفكرة، لكن الفم الواسع المبتلّ الدافئ كان يحيط به. سمعتُ صوتاً يُقهقِهُ في نعومة بشرية، وصرختُ أستنجد: كرمى لله، أنقذوني، أخرجوني من هذا الجحيم، أنتم مسؤولون عن حياتي، أنا ضابط ارتباط مع قوّات الأُمم المتّحدة، أنتم لا شأن لكم مع الأُمم المتّحدة، هل كان العناء الذي عشتُهُ للدقائق السابقة من أجل نزع الكيس الأسود عن رأسي، وعينَيّ بالتالي، واكتشافي عجزي عن الرؤية، هل كان ذلك كله شكلاً آخر من الكوابيس؟ أم أنه كان مزحة غليظة من حارس ما؟ ولكني تفحّصتُ بعينَي جسدي أو ما استطعتُ رؤيته منه، فاكتشفتُ أني، ما أزال كامل العُري أمام الجلّاد المحقّق والحارس الحيادي الذي لم يفتح فمه بكلمة، أمّا الجلّاد المحقّق، وهو مَنْ صفعَني في حقارة في بدايات وصولي إلى تلّ أبيب، فكان ينظر إليّ في شماتة مُترفِّعة، وبهدوء اقترب منّي: هل ستُوقِّع؟

وسألتُهُ صارخاً: علامَ أُوقِّع؟ فقال بالهدوء والبرود نفسَيْهما: على أنكَ ضابط المخابرات المسؤول عن جماعتكم في هيئة ضبّاط الارتباط. وقع

كلامه هذا عليّ وقع النكتة البليدة، فصرختُ: وكلّ هذا العذاب والتهديد والكلاب المهاجمة من أجل هذا التوقيع؟ وردّ بسخرية باردة: "وكل هذه الكلاب المهدّدة من أجل هذا التوقيع الذي وقّع عليه صديقكَ"، "وقرأتُ المانشيتات في الصحافة العالمية تحمل إقراري، وإقرار زميلي عن عملنا في المخابرات للتّجسّس على ملائكة الأُمم المتّحدة"، ثمّ وجدتُني دون تفكير أبصق على الحجارة السود الراصفة لأرض السجن، ثمّ أدير وجهي عنه في كراهية محتقرة. استدار مبتعداً عن المشهد حتّى الغياب، وسمعتُهُ يخاطب شخصاً ما على لاسلكي صغير، ارتبط بياقة قميصه الزّيتونيّ اللون، ثمّ اختفى وراء باب حديدي في الجدار المقابل لمربطي إلى الحلقة الحديدية التي كانت الخيول تُربَط إليها في فترة راحتها في سجن عتليت زمن الاحتلال البريطاني.

بعد قليل، دخل من الباب الذي خرج منه المحقّق اثنان في ثياب مَدَنيَّة دون كلام، فقام أحدهما بفَكّ القيد الرابط لي إلى الحلقة الحديدية القديمة للخيل التي لم تعد تجد مَنْ يركبها للحرب، وقام الآخر بوضع كمّيّة من الثياب إلى جواري، وقال شيئا بالعبرية التي كنتُ قد بدأتُ نسيانها منذ تركتُ الجامعة، حيث كانت العبرية جزءاً من موادّ التعليم لنا في دراساتنا الجامعية.

ساقوني إلى غرفة عارية من الأثاث، أي أثاث، وقال أحد الحارسَيْن ما فهمتُ منه أن ألبس الثياب التي جعلاني أحملها من الباحة، وكان على القميص الذي نشرتُهُ قبل لبسه كلمة "شيفوي" بالعبرية، والتي تُترجم عربيّاً بكلمة "أسير" أو "سبي".

بعيداً عن كلاب عتليت

لم تطلْ إقامتي في عتليت، حيث وجدتُ في انتظاري الطّيّارين السّوريّيْن ممّنْ صحبوني من صفد إلى المعتقل، وكان الرائد طيّار أديب

قد شُفي إلى حدّ ما من ضربة كرسي القيادة له على مؤخّرته بقوّة أكبر من الضّروريّ لقَذْفه خارج الطائرة، والحقيقة أنه كما سيعترف للمجموعة: لم يحسّ بألم الضربة إلا حين اصطدم بالأرض، فلقد كانت لمسة الأرض فاتحة الوجع المفاجِئ له، ثمّ الصراخ ألماً، ثمّ كان حمله من المعتقل حتّى المستشفى، ثمّ إعطاؤه المخدّر الذي أبعده عن الألم لفترة قبل انتهاء العملية التي قيّدوه فيها إلى مقوِّم بلاستيكي قوي، منعه من الاعتماد على عموده الفقري المصاب حتّى الشفاء، أي بعد شهر، وفكّرتُ وأنا أستمع دون إبداء الاهتمام: وهذا يعنى أني قضيتُ في معتقل عتليت ما يزيد على الشهر.

وفيما بعد سيقول على الغداء: كنتُ كما علّمنا المُدرِّبون أتوقّع ألماً سيزول بعد ساعات من قَذْفي خارج الطائرة، ولكنْ، أن يتحوّل الشّابّ إلى عجوز يصرخ من لمسة صديق، أو هزّة خفيفة للسرير، كما عشتُ للشهر الماضي، فقد كان خارجاً عن توقّعاتي كلها، وعن توقّع الطّيّارين ممّنْ كان معي في الدورة قبل التّخرّج، وفي أثناء التدريب.

أضاف الرائد إدلبي: ربّما كانت العبوة المهيَّأة للتّفجّر تحت كرسي القيادة مشحونة بكمّيّة من المتفجّرات أكبر من الضّروريّ، ثمّ أضاف: وكان حظّي طيّباً، وابتسم مُعتذِراً: إلى حدٍّ ما، حين انفتحت نافذة الطَّرْد من الطائرة في الوقت المناسب، ولابد أنكم تذكرون الملازم أوّل حسين الذي أُصيبت طائرته، وكان من الواجب عليه القَذْف بنفسه وبالمقعد تحته خارج الطائرة، لكن سوء حظّه، وحظّ الدورة جميعاً أن نافذة الانطلاق تعثّرت لثوان قليلة جدّاً قبل الفتح ربّما لالتواء في النافذة المخصّصة للإطلاق، ونتيجة الصاروخ الذي أصابها، وربّما كان لقلّة عناية من الميكانيكيّيْن في المطار، جعلها تتعثّر في الانفتاح لهذه الثانية، فاصطدم رأس الطَّيَّار بالسقف، فتحطّم عموده الفقري، وحين أخرجوه من بقايا الطّيّارة على الأرض، كان

"العمر الطويل لكم ولأولاده الصغار". ثمّ تمتم مخاطباً الجميع: الحمد لله على سلامتكم.

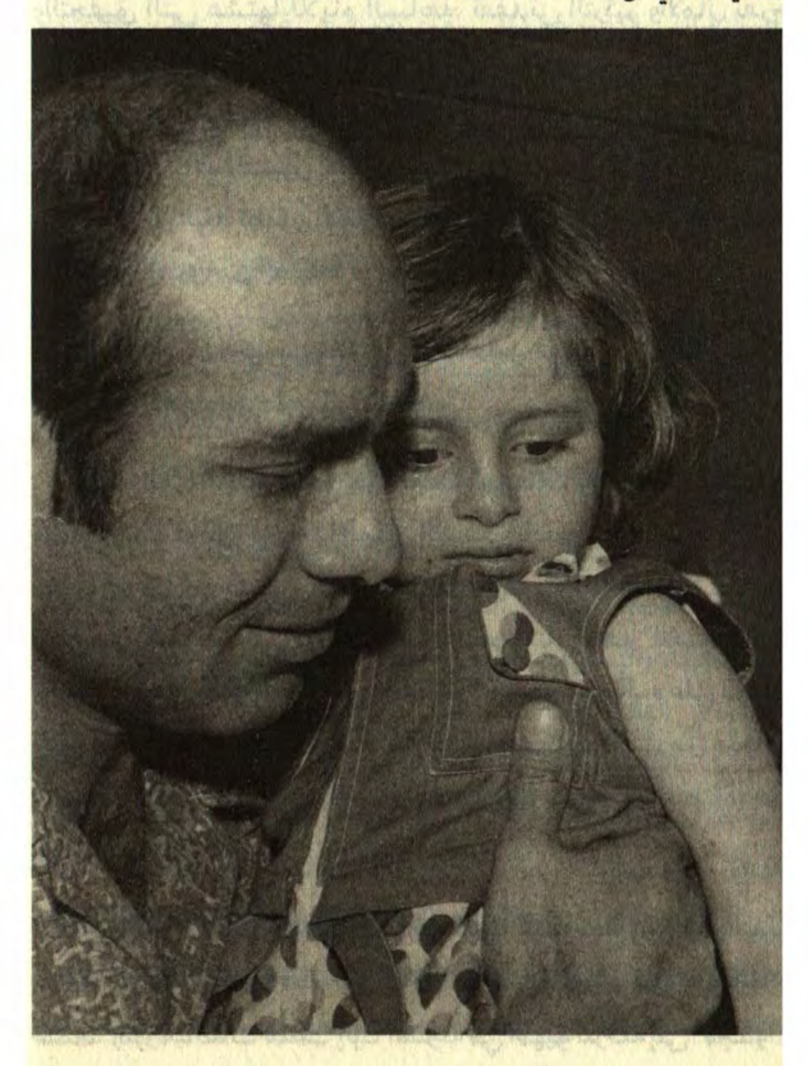
كان من الواضح أنهم كانوا ينتظرون نقلهم إلى معتقل آخر، أمّا أنا، فلم أكن أعرف، ولم أكن لأكترث، فما زالت "دُوِّخة" الاعتقال والتعذيب والتحقيق التي عشتُها للأيّام السابقة. تُفقدني التركيز والآمال بفرج قريب، كانت أيّام السأم، والرائد إدلبي يُحدِّث عن بقائهم لشهر وزيادة في المعتقل، كانوا يعتقدون في البداية أن حكومتهم سرعان ما تبادلهم على الطّيّارين الإسرائيليّيْن الأسرى، ولكنْ، ها هو شهر وزيادة ينقضيان، ولا رسائل من البلد تُطمئنُ الأهل عنهم أو تُطمئنهم على الأهل. كان لا بدّ من جمع الأسرى من الضّبّاط في سجن واحد.

وأخيراً وصل الحارس ينظر إلى المعتقلين في تشفٍّ، فقال: ضبّوا حاجاتكم، فغداً سترحلون إلى "مجدو".

كانت المرَّة الأولى نسمع فيها بكلمة "مجدو"، وعبثاً حاولْنا الإفادة من مخزونات ذواكرنا عن هذا المكان المسمّى باسم عربي أو يكاد، ولكنْ، كانت ذواكرنا قد خلتْ أو مُحي منها كل معرفة متوقّعة أو معارف كانت تضجّ على ألسنتنا، وفي ذواكرنا، وتساءلتُ صامتاً: أتراهم "الإسرائيليون" قد حقنونا بدواء ألغى معارفنا السابقة؟ أم أنه السجن، وتأثيره على ذواكرنا التي لم تعد تستجيب لمحرّضات الأسئلة؟ هه وضحكت من سخافة الفكرة تلك ذاتها التي كبرت الأجيال العربية فيها على مبدأ شيطنة الآخر، وأبلستهُ حتّى تكاده إلهاً.

في الصباح التالي، أيقظَنا الحارس طالباً إلينا جمع أشيائنا والتّهيّؤ لسفرة طويلة، طبعاً لم يجب على أيّ من استفساراتنا، واختفى، بعد قليل، سمعنا زمور الباصات تطلب إلينا السرعة في التّهيّؤ للرحلة إلى "مجدو".

خيري الذهبي مع ابنته عقب النزول من طائرة الصليب الأحمر



الطبيب والصيدلية الخارقة

كانت ليلة طويلة، حاول فيها الكثيرون من قدامى الضّبّاط الأسرى السّوريّيْن التّقرّب منّا، ومنّي تحديداً، فقد كان أثر التعذيب الروحي واضحاً عليّ، فحاول الكثيرون منهم جعلي أُحدّثهم عمّا جرى لي، أو معي، وممّا قالوا رابتين عليّ أنا المرتجف رعباً ممّا حدث لي خلال الشهر الماضي في معتقل الرعب "عتليت"، وقال واحد منهم: الهمُّ إن حملَهُ اثنان خفّ، وإن زادوا زادت الخفّة، إلخ، لكنني لم أستطع الحديث إليهم عن همِّي في ذلك الزميل الذي اختار الهرب من التعذيب، فاعترف للإسرائيليّيْن بما أرادوا، وتسبّب لي بالعذاب الشديد لشهر، والإدانة، ممّنْ يريدون النجاة من جريمة الهجوم على مخفر تابع للأمم المتّحدة.

كان قد طلب كما عرفتُ فيما بعد أن يُحتجَز مع الأسرى الأفراد حتّى لا يجتمع معي، وعرفتُ أنه ما طلب ذلك إلا خوفاً من الأسرى الآخرين ونظرتهم إليه، وكنتُ أخاف على سُمعتي وعليه من الإسرائيليّيْن الذين يمكن لهم نشر اعترافه في الصحافة، كي يؤذوني ويؤذوا مستقبلي بعد الإفراج عنّي، كان خوفي المريع من محاولة الإسرائيليّيْن نشر الفضيحة المفترضة، وإقرار زميلي الضعيف "لن أُسمّيه باسم آخر"، بالعمل مع المخابرات، في صحف إسرائيلية، أو غربية، فجأة رنّت لعنة الكولونيل نهاري يقول: إن ظللتَ على هذه الكراهية لإسرائيل، فستقاسي كثيراً في حياتكَ، وعلى يد حكومتكَ نفسها مُتجلِّية كلعنة العرَّافين الإغريق في الأساطير والمسرحيات اليونانية،

تلك التي تبدو ساذجة وسخيفة في بداية القصّة، ولكنها تصبح محكمة الخناق والضيق في لحظات القصّة المفصلية.

بعد عدّة أيّام من هدوء وطعام معقول وابتعاد كامل عن التحقيق، وصل الحارس الذي تبدّى لي، وكأنه أهمّ من حارس أخرس، لا يعرف العربية، ويكتفي بإصدار أصوات يعتقد أنها عربية مستغرباً عدم فَهْم السّوريّيْن لعربيته. وعلى أيّة حال، فقد وصل الحارس، ثمّ أشار إليّ أنهم يريدونني، وكنتُ طيلة الوقت أنتظر وفد الصليب الأحمر، أشكو إليه ما مررتُ به، فهو الوسيط الأُممي المقبول لديّ ولدى القيادة في مكتب الأُمم المتّحدة في دمشق، وحين تأخّرتُ على الحارس قليلاً، اقترب منّي: ألستَ مستعدّاً بعد؟ وقلتُ متمتماً: الحذاء يعذّبني. قال: لمَ لا تتقدّم بشكوى لتغييره؟ فقلتُ منحنياً على رباط الحذاء أشدّه: لا بأس. انسحب الحارس من رسميته قائلاً شيئاً ما للحارس البوّاب لقاووشنا الطويل. ومضى تاركي في حراسة الحارس.

أكملتُ لبس حذائي الضّيّق، ثمّ جلستُ على السرير السّوريّ الحديدي، وبعد أقلّ من ربع ساعة، عاد يحمل حذاء في كيس أعطاه لي، وقال: جَرِّبْ هذا الحذاء، فاعتذرتُ شاكراً، ولكنه أصرّ، وأصررتُ رغم تدخّل الميجورالطّيّار الإدلبي طالباً منّي لبسه. حاولتُ ثانية الاعتذار، ولكني ما إن وقفتُ حتّى ترنّحتُ متألّماً من عضّة الحذاء لقَدَمي اليمنى، فدفعني الرائد الطَّيَّار السّوريّ بقوّة، أوقعتْني على السرير فاقداً التوازن، وانحنى يخلع عنّي الحذاء متمتماً: وجعُ القَدَمَيْن لا يقارَن بأيّ وجع. كانت المفاجأة في أن مَنْ مضيتُ لمقابلته لم يكن إلا البروفيسور "سامي" أو صامويل من العاملين في جامعة هداسا، الذي قام لتحيّتي في احترام مصافِحاً: كنتُ أتمنّى لو كانت الظروف خيراً من هذه لِلقائنا.

هل رأى الحَيْرة في عينَيّ؟ أم أنه قصد المفاجأة في أنه يعرفني من خلال كتاباتي القليلة وقتها، والمترجمة إلى الفرنسية؟ قدّم لي كتاباً بالعبرية، وقال: أتمنّى لو تملك الوقت الكافي لقراءته، نظرتُ إلى الغلاف الرزين، وقرأتُ بصعوبة العنوان، فقد كان مكتوباً بالحرف الآرامي المزخرف، وكان العنوان: هل ستكون معركة اليهود الكونية في مجدو؟

أحسستُ بالريبة، فتمتمتُ بالإنكليزية: آسف، فأنا لا أعرف العبرية.

كانت خيبة الأمل شديدة الوضوح على وجهه، ولو أنه استطاع ابتلاعها، وقال: سأحاول الحصول القريب على نسخة بالإنكليزية، وأحضرها إليكَ، وبدأ حواراً طويلاً، وحاولتُ ما استطعتُ الاقتضاب في الإجابة، ولكنه استمرّ في محاولة زلقي لأحاورَه. كنتُ أتفحّصه باحثاً عن جهاز التسجيل الذي صحبه إلى لقائي، ولكنْ، لم يكن من الممكن الوصول إلى الجهاز دون تجريده من ثيابه، "وقهقهتُ سرِّيّاً من سخافة الفكرة"، ولكنها الفكرة الوحيدة التي خطرت على بالي.

كنتُ أتوجّس الوقوع في لعنة الكولونيل نهاري، كنتُ أخشى من أيّ حوار أو تفاعل مع الآخر، كي لا يُؤخَذ عليّ حينما أعود إلى الوطن، حيث ستتحقّق اللعنة.

ودّعني على أمل بلقاء جديد، وكان الوقت عصراً، ووجدتُهم في القاووش قد رفعوا لي صحناً من الطعام، وكان قرنبيطاً مطبوخاً، وصحناً من الأرز صغيراً.

كنتُ حتّى ذلك الوقت لم أعرف بالتقليد الذي التزمه زملاء الأسر، وهو أن إعداد الطعام يكون بالدَّوْر على الخبيرين بالطبخ، ولمّا لم يعترف واحد من الأسرى بأنه خبير بالطبخ، ففد كلّف دهاقنة المتقدّمين من

الطّيّارين صغار الطّيّارين ممّنْ كانوا قد تقدّموا إلى كُلّيّة الطيران دون شهادة ثانوية، فهم لا يحملون إلا شهادة الإعدادية، فتدرّبوا، وصاروا طيّارين، ولمّا كان أكثر الطّيّارين الأسرى من صغار السّنّ والرتبة، فقد همس واحد من المتقدّمين في الخدمة إلى واحد من الطّيّارين الشّبّان، ليقوموا بالعمل في المطبخ، إلى أن يفرجها الله، وقبل المرشّحون، والملازمون تكليف المتقدّمين الذين كانوا قد قبلوا باقتراح آمر السجن اليهودي العراقي في أن يكون طعامنا من طبخنا، ولا مسؤولية على قيادة المعتقل إلا لو كانت الموادّ المحمولة إلينا فاسدة.

انقضى الأسبوع الأوّل دون مفاجآت إلا في الرّزّ شديد الرداءة الذي لم يعرفوا طريقة طبخه في البيت، فهو إمّا حصى لا يُبتلَع، وإمّا شوربة لاحاجة للمعالق لأكله، وعليكَ أن تشفطه بالفم شفطاً. تجاهلْنا سوء الطعام متظاهرين بالاستمتاع بطبخ الهواة، لولا شجار عنيف لم يكن مألوفاً في قاووشنا، فحرد الطّبّاخ ومساعده، وكان صغر سنّهما ما أغرى الكهول والمتقدّمين رتبة بتكليفهما بالطبخ، وكانا من حملة الإعدادية الذين تخيّرتهم القيادة ليكونوا من الطّيّارين، فكانوا عمليّاً من أجود الطّيّارين، وأكثرهم اندفاعاً لتنفيذ الأوامر بالقصف والهجوم على الأهداف المطلوبة.

احتدمت الشجارات التي لم يكن منبعها الأساس في القاووش، بل كان من خارج القاووش، من هناك في الضيعة، في الحارة، البلدة، عند الحلوة التي كان زيد من الطّيّارين الشّبّان قد اتّفق معها على الزواج، أو المرشّح على الخروج معها إلى السينما، أو إلى المطعم في ضواحي حمص أو السويداء، أو بلودان، أو دمشق أو حلب.

وكان عشاء من الموادّ الجافّة، أو من بقايا الرّزّ الشوربة المتبقّي عن الغداء.

أتى الغد، وتجدّد الرجاء، وتجدّد الرفض والحَرَد، واقترب موعد الغداء، ولم يتّفقوا بعد، ولستُ أدري ما الذي جعلني أتنطّح للقيام بدور طبّاخ الجماعة، أهي الرغبة في الخلاص من المأزق الذي علقت المجموعة به؟ أم كراهية الطبيخ الذي كان صغار السّنّ من الطّيّارين يُهيّئونه، وهو ما لم أعتد على أكله حتّى في أسوأ أيّام حياتي؟

كان الرّزّ هو التحفة التي قدّمتُها لهم، فلقد اعتدتُ على الطبخ حين كنتُ طالباً في مصر، واعتدتُ على الطبخ تعاوناً مع زوجتي المُدرِّسة التي تتأخّر في المدرسة يومياً، وكنتُ أنقع الرّزّ لوقت كاف قبل طبخه، ليكون طازجاً عند حضورها، وكنتُ أعدّ السلطة وأتفنّن في إعدادها، وكانت مكافاتي في آيات الشكر والامتنان، على وجوههم، والسرور لطبخي الذي ما كانوا يتذوّقونه أيّام المستجدّين، كانت تلك لحظات سعادة بسيطة ارتسمت، وشعرتُها بسكون غريب على وجوه الجميع، وجوه نحيلة شاحبة، بدأت الابتسامة تغزو وجوههم، وذلك كله بسبب فرط تعلُّق السّوريّيْن بالطعام الجيّد، وتقديسهم له، وكنتُ أنا بينهم الأشدّ شحوباً، والأشدّ ابتساماً.

كان بين الضّبّاط واحد يحمل رتبة رائد "ميجور" وكان قبل القبض عليه آمر لواء مُدرَّع، فساق هذا اللواء إلى الدمار، وساق البسطاء العاملين فيه إلى القتل الكثيف لمَنْ كانوا يؤدّون الخدمة العسكرية دون معرفة بما سيجري عليهم، كانت المعركة السخيفة التي قدّر وخطّط لها خطأً قد انتهت بدمار اللواء، وتخلّيه عنه عند قرية تُدعى الخشنية، وهذا ما صرّح به للمتجمّعين من حوله، وقد قبض الإسرائيليون عليه مستسلماً دون جرح بعد أن أضاع على الشعب السّوريّ لواء مُدرَّعاً، وكانت سلامته الشَّخصيَّة أعظم لديه من لواء مُدرَّع، فيما بعد سأعرف منه أنه من خرّيجي

دار المعلّمين الذين منحهم البعث فرصة، ليكونوا من القادة بعد حملة طَرْد المحترفين من الجيش السّوريّ قبيل حرب الـ ٦٧.

كان "المستسلم في الخشنية" هو الرتبة الأعلى بين الأسرى، فصار الآمر حسب القانون العسكري العالمي في التعامل بين الآسرين والأسرى، وكان القانون العسكري العالمي يعطي الضابط الأعلى بين الأسرى الحقّ في عقوبة مَنْ يخالف أوامره دون مراجعة من السلطات الآسرة، وقد يصل الحكم حتّى إلى الحكم بالإعدام، وعلى السلطات الآسرة تنفيذ الحكم بعد إشهاد الأسرى على الحكم، وعلى القانون، وعلى تنفيذ الحكم بالمحكوم.

كان طول المفاوضات بين السلطات السّوريّة والإسرائيلية على تبادل الأسرى قد جعلهم يؤمنون بأنهم سيموتون في الأسر، ولمّا كانت السلطات الإسرائيلية قد منعت عنهم الصحف والمجلّات والكُتُب "أيّ كُتُب" والراديو، فقد عُزلوا تماماً عمّا يجري في العالم، كان مندوبو الصليب الأحمرقد منعوا من زيارة الأسرى، وحمل الهدايا أوالتّبرّعات إليهم، وطبعاً حمل الأخبار عن الخارج، فآمنوا أن أحداً لم يعد يهتمّ لمصيرهم، ولذا فقد صارت وسيلة معرفتهم بما يجري في العالم الخارجي هي قراءة الأحلام التي شهدوها في الليلة الفائتة، وكانت وسيلة تواصلهم صباحاً، وقبل كلمة: صباح الخير، هي: ماذا رأيتَ بالأمس من أحلام؟ وهل ما حلمتَ به كان بشرى خير؟ أم أنه تأكيد لما يعتقده الجميع في أنهم سيموتون هنا في المعتقل كالجرذان؟

فجأة ومن قلب هذا العَمَاء الإخباري عمّا يجري في الخارج تحرّك واحد من الأسرى، وكان طبيباً ريفيّاً من واحدة من قرى دمشق، فأعلن لهم في أحد الصباحات أنه قد رأى شيخه في المنام، وأنه ذكّره بنصيحة، كان قد نصحه بها يوماً عند استشارته لشيخه في كيفية تعامله مع القوّات

الساجنة، لو اعتقلوه يوماً، وتنفّس بصعوبة وهو يهمس: وتذكّرتُ أنه قال لي: "اقرأ ثلاثةَ آلاف مرَّة سورة (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ)"، وستسقط أبواب السجن عنكَ. وتنهّد الحاضرون في أمل، فالمتحدّث طبيب، يعرفه الكثيرون من الحاضرين، ويعرفون بإشاراته الطّبّيّة المشهود لها، وتابع: وأقسم أني ما إن بدأتُ القراءة، وكنتُ معتقَلاً في كركون الشيخ حسن حتّى انشرح صدري لمجرّد القراءة، ثمّ ما إن وصلتُ إلى ما يقرب من نهاية الثلاثة آلاف، إلا انفتح باب السجن، وقيل لي: أنتَ حُرّ، فاخرجْ. انسلّ واحد من الحاضرين، فاستخرج من تحت وسادته مسبحة، كان قد صنعها من بذور الزيتون، وجاء يُلوِّح بها في انتصار، لم يكن هناك أيّ تواطؤ بين الطبيب المعالج بقراءة القرآن، وبين الطَّيَّار الفتيّ من قرى حماة الذي كان يُلوِّح بالمسبحة، ولكن معجزة جرت وتجري أمام أعيننا فجأة. فالأسرى الممثّلون لكل القطاعات العسكرية، والقطاعات الطّائفيّة، والدّينيّة السّوريّة قد تحوّلوا إلى متديّنين مُفاجِئين من دروز، وعلويّيْن، وإسماعيليّيْن، ومسيحيّيْن وسُنَّة، على اختلاف مذاهبهم الدّينيّة، فقد تحوّلوا فجأة، أو بعد مناجيات ليلية مع أهاليهم البعيدين جدّاً، أو إلى مناجيات مع رجال الدين، إلى قراءة القرآن، أو قراءة: (قلْ هُوَ اللهُ أحدٌ اللهُ الصَّمَدُ لم يلدْ ولم يُولَدْ ولم يَكُنْ له كُفُوَاً أحدٌ)، ينتظرون سقوط أبواب المعتقل، وخروجهم إلى الحياة الطّبيعيّة مع الزوجة والأولاد.

استعاروا مسابح ممّنْ كان قد استغلّ الزمن الفائت، أي ما قبل اليأس من خلاص سريع في صناعة المسابح من بذور الزيتون الممصوصة على الفطور بدلاً من رميها في الزبالة، وأخذوا في حَكّها على الجدار الحجري الأسود الخشن، إلى أن ينكشف ما في داخلها من نواة طرية، يستخرجونها بإبرة، أو بدبوس، أو أيّة مادّة حديدية قاسية، فإذا ما استخرجوها ونظّفوها من الداخل، انتقلوا إلى تزيينها وزخرفتها بالحَكّ، ثمّ إلى رصفها في سلك

من خيطان البطّانيّة، أو القميص الدّاخليّ، وعَدُّوها مسبحة، يُسبِّحون عليها، ومَنْ لم يستفدْ من صناعة المسابح في الماضي، اضطرّ إلى تسوُّلها ممّنْ يملكون أكثر من مسبحة واحدة، وها هي الفرصة تسنح لصانعي المسابح لبيع ما لديهم من مسابح إلى المشتهي في دلال، ولا يقبل البائع ثمناً إلا سجائر، أو قوالب جبن الـ "لا فاش كي ري"، وكان على المشتري بالسجائر أو بالـ "لافاش كي ري" أن يدفع أملاً في التّخلّص من هذا المعتقل، فالخلاص من المعتقل أثمن من كل شيء آخر، والخلاص محجوز في المسبحة التي سيقرأ بها السجين الآية.

أخذتْ علائم الكارثة تتبدّى حين انتهى أوّلهم من قراءة النّصّ العظيم ذي الثلاثة آلاف مرَّة من "قُلْ هُوَّ اللهُ أحدٌ"، ولم ينفتح باب السجن، ولم يسقط باب القاووش.

القارئ الأوّل الذي أنهى القراءات الثلاثة آلاف ابتلع ملاحظاته، وانتظر ظهور قارئ بريء براءة الدكتور خالد، أو براءة الأطفال النّظيفين من الإثم والذنوب والجريمة، ولكنهم أنهوا جميعاً تلاواتهم بالتتالي، وتقدّموا بلا ترتيب، أوبترتيب مضطرب، وقد أنهوا قراءة الآلاف الثلاثة، ولم يسقط الباب، ولم ينشقّ حتّى لخروج مَنْ ليس بآثم، ولا مرتكب خطيئة.

ونظر الدكتور خالد في أرجاء القاووش يبحث عن الفاسد الذي أفسد قراءاتهم للصّمديّة، ورآني جالساً على السرير، أنظر إلى ما يجري في تفحّص، وفجأة نادى واحداً من طيّاري الإعدادية، كان الدكتور خالد قد أحسّ بأهمّيّته وأهمّيّة ما يمثّل من أمل تعلّق فيه الجميع، اقترب طيَّار الإعدادية مُتوجِّساً، فأشار إليه الدكتور أن يقترب، فاقترب، وقرّب رأسه منه، وهمس في أُذُنه شيئاً ما، وانتفض الطَّيَّار الفتى، والتفت إليّ، ورآني أُحدِّق في البعيد دون أن ألتفت إلى سخفهم، وكان اضطراب وارتباك وإحساس

بالضياع، والتفات من الأسرى في اتّجاه مَنْ أفسد عليهم سقوط باب المعتقل، والخروج المبكّر.

في المساء، وبعد انطفاء نور القاووش، اقترب أحدهم من سريري الحديدي، وكنتُ قد انسحبتُ منه تحسُّباً من العيون الكارهة والحاقدة، فحملتُ البطّانيَّة، ومددتُها على الأرض الباردة، ونمتُ عليها وعيوني تراقب خائفة ممّا يمكن أن يحدث، واقترب طيَّار الإعدادية، ومدّ يده إلى الوسادة يتحسّسها، وكانت عيناي اللتان اعتادتا الظلمة تريان ما يقوم به الطَّيَّار الصغير عمراً حين أمسكتُ بيده في شدّة، وعند ارتعابه، صرخ في خوف، فأمسكتُ به واضعاً كفِّي على فمه مُهدِّئاً. فارتعد، وسمعتُ أنينه المذعور، ولكني همستُ في أُذُنه القريبة: لا تخفْ. سأُفلتكَ الآن، ولكني لا أريد سماع صرخة أو أنّة منكَ، إن كنتُ موافقاً، فَأَحنِ رأسَكَ، وأحنى رأسه موافقاً، فقلتُ له: ما الذي كنتَ تريد فعله، أو قوله؟ وهمس حكمته التي تطابقت مع لعنة الكولونيل نهاري: لن نستطيع تركَكَ تمنع عنّا رحمة الله وبركات الصّمديّة، وتأكّد أنكَ حين تعود إلى سوريا سيعاقبونكَ، وسنشهد على وقوفكَ في وجه حرّيّة المساكين الذين ينتظرهم أطفالهم ونساؤهم، وحين يعودون سيرتّبون لكَ ما لا يخطر على بالكَ من أذى.

شردتُ أفكّر في ما قال لي، وفي هذه الأثناء، انسحب طيَّار الإعدادية، واختفى في عتمة القاووش، تحرّكتُ بوجهي وأُذُني، أحاول سماع ما يمكن له قوله لمُنتظريه، ولكني سمعتُ همساً مختلطاً، فلم أستطع تمييز ما يقال، وأخيراً سئمتُ، ويبدو أني نمتُ قليلاً، فلقد قدم الصبح عليّ نائماً تحت السرير، ولمّا رأيتُ النور المتسلّل، استيقظ شيء فيّ، وجدتُني أنتصب ماضياً إلى الحمّام، ولكن قارئي الصّمديّة، والمهتمّين بطريقة الخروج السهل من المعتقل، كانوا يُحدِّقون فيّ بوقاحة كارهة، وحقد غريب ممزوج بتوق للحرّيّة غبيّ، وبكراهية تلك النعجة الناشزة عن الموروث الدّينيّ.

بعد الحمّام، كان عليّ أن أمضي إلى باب الفسحة خارج القاووش لاستحضار مؤونة اليوم التي سأعدّها للحالمين بالخروج من المعتقل بهذه الطريقة السهلة، وأولئك المنتظرين الخروج إلى الحرّيّة، هناك تقدّم وفد من الأسرى المقتنعين بأصحّيّة ما يقومون به من دعاء، وطلبوا منّي رسميَّاً أن أشاركهم ولو من باب "المسايرة" بقراءة ثلاثة آلاف مرَّة "الصّمديّة"، وكانت صدمتهم هائلة بحدّة رفضي لمثل هذه الأمور، بل رفعتُ صوتي عالياً بأن هذا تحايل ولعب على عواطف السجناء، وأردفتُ أَعْمِلُوا العقلَ، يا أخي، أَعْمِلُوا العقلَ، فلو كان هذا صحيحاً، لما وجدتَ معتقلاً فلسطينيَّاً أو سوريَّاً أو لبنانيَّاً في السجون، لا في سوريا، ولا في إسرائيل.

لَمْلَمَ الوفد خيبته وغضبه، ومضى.

كان نهاراً شديد الغرابة، فالضّبّاط المنتظرون انفتاح الباب للعودة إلى ما قبل السقوط في الأسر كانوا ينظرون إليّ في مواربة، ولكنهم لم يكونوا يرغبون في انقطاع الطعام المطبوخ جيِّداً، والذي ذكّرهم بطعام أُمّهاتهم وزوجاتهم بإعلان عداوتهم واصطدامهم الفجّ معي، ولكنهم اختاروا الطريق الوسطى على عادة السّوريّيْن، فهم لم يرغبوا كما أعلن أحدهم صارخاً بالطريقة الوسطى، وهي في عدم فناء الغنم، أو موت الذئب جوعاً، فهناك دائماً طريق وسطى، وهكذا قاطعوني حوارياً، وأعادوا قراءة الثلاثة آلاف من الصّمديّة المُحرِّرة، ولكنهم لم ينقطعوا عن تناول طعامي، عالم ما بعد المقاطعة المتوافق عليها من الجميع إلا الذين كانوا ضحيته بحماقة، كانوا يتحاشون لقاء العيون، وكنتُ أتحاشاه أيضاً، ولكن الباب لم ينفتح، والسور لم ينكسر، فلقد انقسم القاووش عاموديَّاً بين المؤمنين والكافر، وقد باتت الاحتمالات مفتوحة ومتوقّعة في حال استمرّت تلك المهازل الناشئة في ذلك المجتمع المنغلق على ذاته.

صحيح أن كثيرين منهم ظلّوا على إيمانهم بأني السبب في انسداد طريق الحرّيّة من أمامهم، ولكن الكثيرين أيضاً بدأوا في التّشكّك بصوابية فتوى شيخ الدكتور، وكان الشوق إلى الزوجة والأولاد يُكرههم على البحث عن أيّة طريقة لإسقاط أبواب المعتقل، والخروج إلى حيث الزوجة أو العشيقة، أو الحبيبة. كان ما يتعلّقون به، بعد فشل قراءة الصّمديّة، هو التّعلّق بأمل ما، ودون تحريض منّي، أخذوا يتبادلون التعبيرعن الشوق إلى الخارج. كنتُ أهمس ببساطة إلى بعض طيَّاري الإعدادية عن وجوب إدخال البريد العائلي إلينا، وعن وجوب قراءة الصحف والمجلّات، ففيها مَنْ يتحدث عن مأساتنا، وعن مأساة الإسرائيليّيْن الذي أُسقِطوا فوق الغوطة، وقبض عليهم أسرى بين أيدي جماعتنا.

كانت حكاية الصّمديّة قد تنوسيت وخفتت، وتنوسي المسؤول عن حرمان السجناء من بركتها، بل إن البعض أخذوا يسخرون من هذه النكتة التي مرَّت على مثقّفين مثل الطّيّارين، وخرِّيجي الجامعات، وعاد الدكتور خالد إلى عزلته التي كانت تسبق حمّى الصّمديّة.

في تلك الأيّام، عادت المجموعة إلى التّعلّق بحبال الدين، ولكنْ، من باب التوبة والعودة إلى طريق الصواب، فصرتَ ترى عدداً من الأسرى يصلّي الفروض جميعاً، وصرتَ ترى البعض يصوم قضاء عن رمضان الفائت، وعن رمضانات سبقتْهُ، وهذه المرَّة أيضاً شهد السجن تخلِّياً عن الطائفة، وشهد السجن صلاة وصوماً للدروز والعلويّيْن والسُّنَّة، وكان الإمام في صلواتهم الميجور الذي كان السبب في دمار اللواء المُدرَّع عند الخشنية، والمتسبّب في قَتْل الكثير من المتطوِّعين فيه، ونجاة سيادة الرائد سالماً دون خدش.

كنتُ ما أزال مع الملازم حسن نقوم بالطبخ وإعداد الطعام لأكثر من

أربعين ضابطاً، منهم خمسة خارج المعتقل، ففيهم اثنان من الضّبّاط الكبار، وهما في المستشفى العسكري الإسرائيلي، فإصابات أحدهما بترت السَّاقَيْن معاً، وكانت إصابات الآخر في الجسد، ومنهم ثلاثة وُضعوا بناء على طلبهم مع الأسرى الأفراد، أي من غير الضّبّاط، وعرفتُ السبب مباشرة حين أبلغَنا به الحارس الإسرائيلي العراقي الكردي الذي تواطأنا على تسميته بال برزاني، واليوم أتساءل حائراً: هل كان اسمه أوريا برزاني فعلاً؟ أم أننا سمّيناه برزاني لمعرفتنا أنه كردي عراقي؟ وكان مَنْ عنيت بطالب الإقامة مع العساكر السّوريّيْن الأسرى الأفراد هو الزميل الذي تسبّب لي بأذى كبير حين اعترف كاذباً بأنه ضابط مخابرات، وأني المسؤول عنه في جهاز المخابرات، وأن مَنْ يقدّم له تقاريره عن الضّبّاط الأجانب هو أنا، وربّما كات هذه هي الحجّة التي تذرعت بها القيادة الإسرائيلية لاعتقالي، وتعذيبي للاعتراف بأني ضابط المخابرات المهمّ، ولكن صمودي، وتخاذُل الآخر، جعلاهم يكتفون باعترافاته وتأكيده أني المسؤول عنه.

حرب أهلية

كان سيادة الميجور قائد اللواء المُدرَّع عند الخشنية قائداً للتّوّابين أيضاً في القاووش، وقائداً للصّوّامين، لم ينقطع عن صوم منذ إخفاق الصّمديّة في إطلاق سراحه من المعتقل.

كانت موضة الصيام رجاء التّحرّر والرجوع إلى الوطن والحياة العادية قد انتشرت بين الكثيرين، وصار صيام القضاء شيئاً مفروضاً على الضّبّاط المفطرين، ولكن المؤونة اليومية من الخضار والرّزّ واللحم لم تعترف بصيام الضّبّاط الأسرى.

كان في طعام الفطور نصف قالب من جبن الـ "لافاش كي ري"، وكانت موضتها رائجة تلك الأيّام وبعض الزيتونات بمعدّل سبع إلى عشر زيتونات للسجين الواحد، ورغيف، ولمّا كان الرائد قائد اللواء المُدرَّع صائماً دائم الصيام، فقد طلب إلينا الاحتفاظ بحصّته من الـ "لافاش كي ري" بالإضافة إلى طعام الغداء يتعشّاه مع الصائمين، وكان يسألنا الاحتفاظ بخبز الفطور، ليأكله على السحور. وفي الفترة التي تاب الله فيها على عبده الرائد حدث أن كانت الكمّيّة المخصّصة لكل فرد، وهي نصف قالب من الـ لافاش كيري قد نقصت كمّيّة غير متعمّدة، أو أن النقص كان متعمّداً، فرأيتُ وأنا المشرف على توزيع الطعام أن أُوزِّع أنصاف القوالب من الـ لا فاش كي ري على غير الصائمين، على وعد بأن أُعوِّض الصائمين عنها غداً قالباً كاملاً منها، ولكن الميجور قائد لواء المُدرَّعات المُدمِّر أُصيب بجنون الصيام،

فأخذ يرغي ويزبد: جبنتي، أتريدون سرقة حصّتي من الجبن؟ أنا لن أسمح بذلك، ولن تُوزَّع على أحد حصّتي من الحبن، وأخذ يقفز من الغضب مُتملِّصاً من أيدي القابضين عليه: جبنتي، حصّتي، طعام سحوري، وكان أن غضبتُ أيضاً، وقلتُ له: سيأكلها الجياع اليوم، ولن تأخذ بدلاً لها في الغد، وانفجر غضبه: أليس كافياً أن حرمتَنا من الحرّيّة بكُفركَ الذي احتملناه؟ أليس كافياً أن جعلتَ زميلكَ في قوّات الطوارئ يتهرّب من مشاركتنا قاووش الضّبّاط؟ أتظنّ الناس لا تعرف ما صنعتَ وما تصنع؟

وفجأة تذكّر، وكأن أحداً ما ذكّره بالسلطات المعطاة له، وابتلع شيئاً ما كان في حلقه وصرخ: أنتَ محكوم، وسأجعل الحكم ينفَّذ عليكَ، خمسة عشر يوماً في الانفرادي، ولا أريد أن أرى وجهكَ من بعد، وانفلت غضبي، وكأن تهديده كان الإيذان لغضب مكبوت منذ زمن، وقد انفلت: إن كنتَ رجلاً، فنَفِّذ كلمتكَ، وأنا سأمضي إلى المنفردة بعد أن أُشهد الحاضرين "وأشرتُ إلى الضّبّاط الأسرى من حولي" سأمضي إلى المنفردة، وسنتقابل في سوريا، واللهِ، واللهِ، لأخربنّ بيتكَ، يا مُضيِّع لواء المُدرَّعات دون أن تُجرَح، أو تُصاب بأذى، سأفضحكَ في الصحف السّوريّة والعربية، وسيعرف الجميع أيّ متعاون مع العدوّ كنتَ.

كانت لعنة الكولونيل نهاري قد بدأت بالتماسك و"التعقيد" مثل مربىّ المشمش الذي يجب تركه على النار لفترات طويلة حتّى يتماسك، لعنة تنفيذ الانتقام من أبناء بلدي، ضدّي، اللعنة التي ستأخذ أوجهاً عدّة لتنفيذها، بدأتُ أرى أوّل وجه لها.

خاف الضّبّاط الأسرى من صوتَيْنا المرتفعَيْن، فأخذوا في تهدئتنا، وكان كل منّا يتحوّل إلى مارد رافض لكل استسلام أو مصالحة، وكان آخر ما قلتُ: أنتَ حكمتَ بمقتضى الصلاحيات المعطاة لكَ حسب القانون الدّوليّ، وأنا أتحدّاكَ أن تستطيع، أو أن تنفّذ، وأنا أعدكَ بأن أفضحكَ في العالم.

كان تهديدي الأخير ابن الغضب، ولكنه انفلت، وقلتُهُ، وكان الجميع يعرفون بعلاقاتي بمكتب الصّحّة العالمية، ومكتب الأسرى، ومكتب الأُمم المتّحدة، وقد انفجر يُزاود عليّ في الانفجار، ومضى إلى الباب الحديدي، وأخذ يصرخ: يا حارس، أين أنتَ؟ أيّها الحارس، لديكم حكم، وعليكم أن تُنفِّذوه الآن، الساعة، وحارّ الضّبّاط في القاووش مَنْ يُهدِّئون، ومَنْ يصمتون.

بدأ المجتمع السّوريّ المتعدّد المنغلق يأكل نفسه، ولم يكن لشيء أن يُوقفِه.

أسرع بعض الطّيّارين من جماعة الإعدادية إلى الميجور "الرائد" قائد لواء الدَّبَّابات، وأخذوا يُهدِّئونه، ويرجونه الصبر، وأنهم على استعداد للتنازل له عن الجبنة حتّى نهاية هذه المأساة التي جعلت العقلاء منّا يقاتلون من أجل قطعة جبن، وتجمّع بعضهم حولي يُهدِّئونني، ويمتصّون غضبي، وأن شرف العسكرية السّوريّ الآن على المحكّ، أيهون عليكَ أن ترفع القيادة الإسرائيلية تقريرها إلى الأُمم المتّحدة عن هياج الضابط الكبير رتبة بين السجناء، وأمره بحبس ضابط من أجل قطعة جبن؟ أيرضيكَ مثل هذه الإهانة؟ إلخ.

وكانت مصالحة إرضاء للحاضرين، مصالحة مخادعة في النَّفْس مخفية بحنكة، حيث وافقتُ على إعطائه حصّته من جبن الـ "لا فاش كي ري" الملعون يوميّاً وصباحاً على أن يحفظها بطريقته حتّى الإفطار، ووافق على عدم إبلاغ الإدارة العسكرية للسجن بالحكم الذي أصدره ضدّي، ووافق الجميع على نسيان حكاية الصّمديّة التي لم تنجح بإسقاط باب السجن، وتمتم الدكتور خالد: السبب هو وجود منافق بيننا، وابتسمتُ أنا ابتسامة صفراء.

بعد ما يقارب الأسبوعَيْن من سلام وتوتّر داخلي، وازدياد في عدد

المصلّين التائبين، وفي عدد الواقفين إلى جانب الجدار الحجري، يحكّون به بذور الزيتون لصناعة مسابح، يحملونها معهم إلى أرض الوطن، كـ "سوفينير" ذكرى الأيّام الفلسطينية.

تدخُّل من اليمين وتدخُّل من اليسار

دخل علينا الحارس بعد إبلاغنا بالاستعداد لإستقبال ضيف مسلم مهمّ، وأن علينا حسب طلب حاكم السجن، أن نستقبله بالاحترام الواجب له.

جاء الضيف، وكان شيخاً فلسطينيّاً، أُرسل إلينا قبل وصوله بـ صندوقي برتقال يافاوي، حاول البعض الانقضاض عليهما في نهم، لولا تدخّل الميجور مدمّر لواء المُدرَّعات، إذ منع الجميع عن الاقتراب من الصندوق، إلى أن يوزّع حصصاً على الضّبّاط حسب الأقدمية حسب العادة السّوريّة في اقتسام الغنائم، وكان الضيف دون دعوة مفتي الخليل كما عرّفنا بنفسه الشيخ "محمّد علي الجعبري".

كنتُ قد سمعتُ عنه حكايات لا أدري مدى صدقيّتها، ولكني أذكر أنهم كانوا حين يذكرونه يقولون إنه كان يُعلِّق فوق مكتبه، "مكتب المفتي" آية قرآنية تقول: (ادفع بالتي هي أحسن).

كنت أفكّر في اكتشاف هذا الشيخ لهذه الآية المفيدة لرجال العصر، والحكومة التي لا هَمّ لها إلا الجباية حين سمعتُهُ يقول بعد ثرثرات طويلة: (وإن جنحُوا للسِّلْم فاجنَحْ لها)، وقد كرّم القرآن بني إسرائيل حين قال عنهم: (كُنتُم خَيرَ أُمّة أُخرجَتْ للنَّاسِ)، وما كاد يُكمل الآية إلا وأصابتْه شحاطة بلاستيكية في عمامته البيضاء لا سوء فيها، فانكشف السوء من تحتها، وفي شَيبته المتخفّية، والجراح الملتئمة، والذعر البادي على عينَيْه، وما كدتُ أستوعب ما قال حتّى رأيتُ صينية الكنافة النّابلسيّة

التي اصطحبها معه هدية للمنقطعين في سجون العدوّ، وهي تطير كطيّارة ورقية، وتصيبه في جبينه، ثمّ تندلق، فتُفسد الجبّة الأزهرية التفصيل.

اندفع الجنود الإسرائيليون إلى القاووش، يحمونه بأجسادِهِم متحدِّين الضّبّاط السّوريّيْن الأسرى في أن يَضربوهم بالشّحّاطات التي تكوّمت عند قَدَمي الشيخ، وحين أصابت شحّاطة متأخّرة أحد الجنود، أخذوا دون أوامر يطلقون علينا الرصاصات الخلّبيّة، وهي رصاصات تنشر الذعر بأكثر ممّا تنشر الموت.

سحب الجنودُ الشيخَ المفتي، والضّبّاط السّوريّون يشتمونه على اختلاف مذاهبهم: تفو على لحيتك، يا كافر، يا منافق، إلخ... مما خطر على لسانهم العاجز الذي لم يدرّب على شتيمة رجال الجباب والعمائم.

بعد ربع ساعة، دخل إلينا مع ثلّة من الجند المدجّجين بالسلاح، والرصاص الحقيقي. آمر السجن، ودون مقدّمات، قال بعربية فُصحى، ولهجة عراقية: أهذا جزاؤنا؟ أشفقنا على عزلتكم، فجئناكم بشيخ، برجل دين منكم، الشيخ محمد علي الجعبري، مفتي الخليل، وهو ليس حاخاماً، ولا يهوديّاً، بل من مِلَّتِكُم أنتُم، مسلم، إن كنتُم قد أسأتُم إلى رجل دينكم، فكيف ستفعلون برجال الدين الآخرين؟

ومضى غاضباً، يُشعرنا أنه قد خُدع. انقضى على زيارة الجعبري لنا أكثر من شهر حين دخل إلينا عسكري الحراسة، وكان كرديّاً عراقيّاً، توافقْنا على تسميته بـ "أوريا البرزاني" وكما ذكرتُ لم أعد أذكر إن كان اسمه الحقيقي كما ذكرتُ، أم أننا مَن اخترع له هذا الاسم "هل كان هذا العراقي كما كان يحلو له تسمية نفسه، هل كان حقَّاً عراقياً؟ وهل كان حقَّاً كردياً؟ وهل كان فعلاً برزانيّاً؟ أم أن خيالنا ابتدعه "كله على بعضه"، وسمّاه بهذه الأسماء الغريبة كلها التي لم يجرؤ واحد منّا على مخاطبته بها؟"

دخل وأخبرَنا بأن ننتظر زيارة ضيف جديد، وكان الضيف هذه المرَّة مطراناً يُدعى "المطران كبوشي" كما دعا نفسه، ولم يعرفه أو يذكر عنه شيء، وحتّى حين قال: أنا المطران كبوشي لم تحرّك فينا هذه الجملة مسلمين ومسيحيّيْن، ما يخرج به عن دائرة "الجعبري" المنافق "وأضاف في رقّة، وكنّا متحفّزين، على غير اتّفاق، على تلقينه درساً أسوأ من الدرس الذي تلقّاه "مفتي الخليل".

قال: أتعرفون من أين أصلي؟ ومن أيِّ بلد أنا؟ ولم يحاول واحد منّا الإجابة حتّى لا يشعر بأننا متعاطفون، أو متقبّلون له، وهمس الدكتور خالد يسخر منه: إن كان المسلم عميلاً لليهودي؟ فكيف سيكون المسيحي؟ ونظر إليه ضابط سوري في استنكار، ولم يقل شيئاً.

وقال المطران: أنا من حلب. ونظر إليه البعض في دهشة: فما الذي أوصلكَ إلينا، إذنْ؟

وتابع المطران: أتعرفون ما أُمنيّتي الآن؟ ودون انتظار إجابة تابع: أن أضمّكم إلى صدري. أن أحملكم في قُفْطَاني هذا. وفَرَدَ جبَّته السوداء، فانكشف حزامه الملوّن، وخاتم المطرانية في أصبعه، وأحملكم إلى سوريا. ونظر الجميع إليه في دهشة، وتابع: السّيّد المسيح يقول: ((أكان لحبّة القمح أن تنبتَ وتحملَ السنابلَ إلى الجوعى، لو لم تُدفَن في الوحل؟))، في القذر، في الزبل، ولكنها بعد الإضاءة عليها في مجد المحنة، فإنها ستُنتج القمح للجياع، والفرح للضائعين، ثمّ بعد تنهّدة، أضاف: يا أبنائي، أنتم حبّة القمح التي دُفنت في التراب، والوحل، ولكنكم أنتم مَنْ سيخرجون إلينا يوماً سنابل من قمح، وخبزاً للجوعى إلى كل شيء.

كنّا نُنصت في متعة، وكان يتدفّق كنبع الفيجة أبيض مُتوَّجاً بالزبد،

والبُشرى، والأُمنيّات الطّيّبة، وأسقط الدكتور خالد فردة الشَّحَّاطَة من كفِّه، وتابعه في رمي الشحاطات والأحذية الكثيرون، وهجم الجميع على المطران يُقبِّلون يدَهُ وكَتِفَهُ في احترام، وقام المسيحيون منّا بتقبيل خاتمه المطراني، وقام بمباركة الجميع، واندهش الحارس المستعدّ إلى نداء الحرس لإنقاذ المطران من قَدَر الجعبري، فلم يحصد إلا خيبة الأمل، وكان عيد من بكاء، شاركنا فيه المطران الذي سنعرف فيما بعد أنه مَنْ سيقبض عليه الإسرائيليون لتهريبه السلاح إلى الفدائيّيْن الفلسطينيّيْن، ثمّ سيحكمون عليه بالدَّفْن في وحل المعتقل الذي سيخرج منه قدِّيساً، فلقد أهملتْهُ الكنيسة العالمية، أوأنها عجزت عن معونته.

لم يكن الأمر سوى أننا كنّا بحاجة إلى ذرّات متناثرة من عاطفة ما، تشدّ من إزارنا، دون أن تحاول المزيد من كَسْرنا وإذلالنا، فلقد سئمْنا.

هبوط الغيب مثل الغيم

انقطع التواصل بيننا وبين الخارج تماماً، وحتّى الصليب الأحمر، أومكتب الأُمم المتّحدة للدفاع عن المعتقلين، إلخ، كلهم انقطعوا عنّا، وصارت وسيلتنا للتواصل مع الخارج هي الأحلام فقط، فكنّا حال صحونا وبعد تبادل أو حتّى مع عدم تبادل جملة: صباح الخير. كان واحدنا يسأل الآخر: هه، ما ذا رأيتَ الليلة في المنام؟ وكانت منامات بعضنا مُبشِّرة بالإفراج القريب، أمّا كيف كانوا يُفسِّرونه بالإفراج، فكان عبر الإشارات، فأن ترى حمامة بيضاء، فهذا يعني رسالة بالإفراج"، ولم نكن نتساءل عن وصول الرسائل الممنوعة عنّا، "بل كانت رؤية الحمامة البيضاء كافية"، أمّا رؤية الأُمّ، أو عناقها، فكان شديد الوضوح والصراحة: الإفراج القريب، وكان لتناول اليبرق والكوسا المَحشوّ في البيت دليلاً شديد الوضوح والإثارة للحسد. فالفرح قريب أكثر ممّا يتخيّلون، ولكن رؤيتكَ واقفاً أمام باب البيت بعد اكتشاف أنكَ قد أضعتَ المفتاح، فقد كان الرعب الكامل والخزي الأعظم، والسواد الذي لا تفسير له إلا الضياع، وربّما الموت.

بعد شهر من زيارة مع وعد من المطران بالتكرار، وفشل في تنفيذها، كانت منامات لا تتحقّق، وزيارات لا تتمّ، وأحلام تنسكب على بلاط الحمّامات، قال الطَّيَّار الفتيّ من حاملي الإعدادية فقط لزميل طيّار آخر، وكنتُ أتسمّع إليهما جالسَيْن في ركن في باحة المعتقل بعد زيارة دورية من ممثّلي الصليب الأحمر خائبة كمعظم زياراتهم التي لا تحمل إلينا إلا

علب البسكوت والأماني الطّيّبة: لمَ لا نُضرب عن الطعام لإجبارهم على إدخال الصحف والمجلّات إلينا؟ ولمَ لا نُعلن الإضراب بعد إبلاغ الصليب الأحمر، ومكتب الأُمم المتّحدة بنِيَّتِنا، أو رغبتنا في الإضراب عن الطعام حتّى تنفيذ طلباتنا في إدخال الصحف العربية إلينا، وأننا لن نتوقّف عن الإضراب إلا لو تمكّنّا من التواصل البريدي مع الأهل.

انتشرت الهمسة المتردِّدة، لتتحوّل إلى دعوة صريحة، تُتَنَاقَلُ بين الأسرى الذين فقدوا كل أمل في معاملتهم حسب قوانين الأُمم المتّحدة، والصليب الأحمر، ولم تخفْ قيادة السجن ممّا نُقل إليهم عن رغبتنا في الإضراب عن الطعام من الحرَّاس المتنصّتَيْن، وعَدَّتْهُ هُرَاء ممّا يتبادله اليائسون.

اتّفق الجميع في مؤتمر صغيرعقدوه وهم يتلفّتون نحو الباب الحديدي للقاووش خيفة أن يصل الإسرائيليون إلى ما نخطّط له، فيقمعونه، ويحرمونهم من الإضراب الأوّل في حيواتهم، والذي سيعرفون من خلاله قوّتهم وقدرتهم المسالمة على اكتساب مكاسب حقوقية لهم في سوريا غداً. وعند قدوم الليلة التي سنبدؤها بإعلان الإضراب عن الطعام، وحتّى تنفيذ طلباتنا الرهيبة في إدخال البريد الشّخصيّ إلينا، وإدخال الصحف العربية.

كنّا نتوشوش خائفين من أجهزة تنصّت، تُبلغهم بما نعدّ له، ولكنهم لم يفتحوا الباب علينا عَنْوَة، ويهاجمونا بالهَرَاوَى المطّاطيَّة، كما حدَّثنا الدكتور خالد عن ليلته الأولى في كركون الشيخ حسن، ولِلَيَالٍ سبعة، كانت هذه حصّته من التحقيق الذي لم يكن يُراد له أجوبة حتّى مستسلمة، بل كان يُراد منه ألا تفكّر يوماً في الاحتجاج على شيء مهما عظم أو ضؤل، بل تُنفّذ حسب القانون العسكري لـ "لجيون ايترانجيه": نفّذ، ثمّ اعترض.

في اليوم التالي، وعندما لم يمضِ الأسرى المكلّفون بجلب مؤونة اليوم

من خبز وخضار ولحم وجبن، إلخ. جاء الطَّبَّاخ المساعد يذكّرنا بوجوب أخذ حصّتنا من الطعام النِّيْء قبل أن يغلقوا المطبخ، ولكن الميجور الذي قبضوا عليه سالماً في "الخشنية" تنطّع، وأخبرهم أن الضّبّاط، وأشار إلى الداخل، مضربون عن الطعام، ولم يُخبرهم بمطالبنا الكبيرة، فمساعد الطَّبَّاخ أصغر من الحديث إليه في أمر عظيم كالتعامل معنا على أننا بشر، يستقبلون رسائل الأهل، ويقرؤون الصحف والمجلّات، ويستمعون إلى الراديو، ليعرفوا بما يحصل في بلدهم، وفي العالم.

اختفى مساعد الطَّبَّاخ حائراً، ومكثْنا ننتظر قضاء الله، وما سيجلب إلينا، ولكنْ، وعند الظهر، ظهر مساعد الطَّبَّاخ، ومعه الخضار "طازجة بأكثر ما يجب"، بل حتّى كانت روائح الطزاجة تفوح منها، ويحمل شابّ، لم نره من قبل، اللحم النِّيْء الكثير، يذكّراننا بالغداء، ووجوب إعداده للضيوف الضّبّاط، فالحاكم العسكري للسجن في مجدو قلق على حياة الضّبّاط الموكولين إليه، ولكن الضّبّاط الأسرى على الجانب الدّاخليّ للباب لم يردّوا بجواب، بل أدار الكثيرون ممّنْ استلقوا على أسِرَّتِهِم ظهورهم للطّبّاخ ومساعده. مضى الطَّبَّاخ ومساعداه، وعاد السكون إلى مشهد الباحة الموزَّع بين العتمة والنور الشديد المهاجم عبر الباب.

كانت الفسحة خالية من الأصدقاء، وكان المشهد غير مألوف لنا، فقد ترك الحارس الباب مفتوحاً، يُحرِّضنا على الخروج للتّمشّي أو الهَرْوَلَة، والقيام بالتمارين الرّياضيّة، ولكن الضّبّاط السّوريّيْن كانوا أخبث من الوقوع في هذا الفخّ، فقد اكتفوا بالتّمدّد على السرير يُقنّنون في صرف الطاقة ما أمكنهم، فقد كنّا نعرف أن حاكم السجن كان يُروِّضنا على طريقته، فقد حاول استنزاف طاقتنا، ليُقلِّل من قدرتنا على الصمود، كما فسّر لنا "الدكتور خالد"، والذي استعاد مكانته المتميّزة ثانية بعد أن غفروا له أزمان

الصّمديّة الضائعة، وغفروا لي بالتالي تسبُّبي في عدم انفتاح الباب الذي يسمح لهم بالعودة إلى بيوتهم، فقد تغيّر فيهم شيء، جعلهم يتحوّلون إلى العمليّة، ويقبلون نصائحه الطّبّيّة التي ستُمكّنهم من الصمود حتّى وصول ممثّلي الصليب الأحمر، أو ممثّلي الأُمم المتّحدة، ليتدخّلوا من أجل السماح لنا باستقبال وإرسال البريد المراقَب جيّداً، وإدخال الصحف الفلسطينية العربية، الحُلم، أمّا الصحف العربية من لبنانية، أو مصرية، أو غربية، فقد كنّا نعرف متأكّدين أنهم لن يسمحوا لنا بها لما يمكن أن تحمل من أخبار عن الحرب التي انتهت على أرض الواقع دون معرفة لنا بانتهائها حتّى بعد شهور، أو عن الحلول الممكنة لأزمة الأسرى على كلا الجانبَيْن.

لم نكن مطلقاً على علم بما جرى بعد انقضاء أيّام الحرب، وكان كلّ منّا يروي الحرب من وجهة نظره، هناك مَنْ كان مقتنعاً بانتصارنا، وهناك مَنْ كان مقتنعاً بهزيمتنا، ولكن الحقيقة التي كنّا نُدركها أنه وبمجرّد وجودنا في المعتقل، فهذا يعني شيئاً، وشيئاً ليس بجيّد لنا على الأقلّ.

كانت الليلة الثانية من الإضراب ليلة غريبة، لم يستطع أكثرنا فيها النوم، كانت أحلام مَن استطاع النوم تدور كلها حول صواني الأكل المليئة بأطايب الطعام الذي أعدّتْهُ الأمّ أو الزوجة، وكانت اليقظة المفاجِئة من النوم فرصة للحديث عن تلك الأحلام الطّعاميّة، كان الكثيرون منهم قد توقّفوا عن الأحلام الجنسية، ليحلّ محلّها أحلام الأكل الشّهيّ من قوزي، وصفيحة، ومناسف، وحسرة.

وكان صباح اليوم التالي، وكان الضّبّاط يتقلّبون في أسِرَّتِهِم جائعين، وما كان لي المضيّ إلى المطبخ لاستحضار الموادّ الأوّليّة التي ستتحوّل إلى طعام سوري، يحبّه الجميع، كما كانت أعين الجميع ترنو إليّ راجية في صمت، فقد كنّا مضربين عن الطعام متحدّين السلطات المعتقلة

لنا، وكنتُ أفكّر في الطريقة التي سيتعامل بها معنا الحكّام السّوريّون لو أننا تحدّيناهم، ورفضنا الطعام المقدّم لنا حتّى لو كان فضلات بشرية.

نظرتُ إلى اليمين البعيد قليلاً، أنظر إلى الرائد الذي كان من "النُّبْل"، بحيث نجا بجِلْده دون جراح.

الأفكار بدأت تهاجمني، وتمنعني عن الاستسلام لمحاكمة الضّبّاط، والحكم عليهم حين سمعتُ صوت باب الفسحة المغطّاة بالشبك الحديدي القوي، والذي يسمح للشمس والرياح بالعبور الحرّ. سمعتُ صوت الباب ينفتح، ولاحظتُ قيام بعض الشّبّان من أسِرَّتِهِم، وإطلالهم مُشرئبِّين على الفسحة، توتّرتُ: فهل جاؤونا ثانية بالطعام، يُغروننا بالتعامل معه، وكأن شيئاً لم يحدث؟ وحلّ صمت ازداد معه التّرقّب، نحاول معرفة ما يجري حين اندفعوا بلباس المعركة إلى القاووش، يحملون مرشّات الغاز القوية، ممّا يُستعمل في الحقول لتبخيرها بالسموم القاتلة.

وصرخ واحد مُحذِّراً، وانتصب الكثيرون يحاولون التَّصرُّف، وهرب البعض إلى الحمّام الدّاخليّ يحتمي فيه، وانطلقت المرشّات تنشر الغازات المهدِّئة، والمحطّمة، كانوا يقبضون على مَنْ يعتقدون أنهم القيادة، ويربطون أرساغهم بالقيود البلاستيكية.

ثمّ لم يعودوا يهتمّون بالقائمة، فربطوا أرساغ الجياع جميعاً، وقام واحد من طيّاري الشهادة الإعدادية، وقد بال على نفسه رعباً ممّا يجري، وكان فتى في أوائل العشرينيات لم تخضرّ لحيته بعد، كان يختفي في أحد الحمّامات الدَّاخليَّة، يتظاهر بقضاء الحاجة، فرفس أحد الجنود المدجّجين عليه الباب، وأخرجه دون أن يسمح له برَفْع بنطلونه، ولكن القلّة هي مَنْ تمَكّن من رؤية المستور منه، فلقد أسدلوا الأكياس السود على عيونهم بسرعة، وساقوهم إلى الفسحة المسقوفة بالشبك الحديدي القوي.

انتشر الهمس بين القادرين على السؤال دون رَفْع الكيس المجلِّل لرؤوسهم، وعرف الجميع عبر الصمت السّيّد على الفسحة حين صرخ الآمر "شيكت"، والتي تعني السكوت فقط، ثمّ قام أحد الحرَّاس بِعَدٍّ الموثوقين المعصوبين، وصرخ يُبلِّغ الحاكم العسكري للسجن بأن العدد كامل.

بعد وقوف مرهِق لعضلات السَّاقَيْن استمرّ لأكثر من ساعة، جاء أحد الجند يبلغ الآمر بأن السَّيَّارات قد وصلتْ، وطلبوا منّا كعسكريّيْن الاصطفاف النّظاميّ، ووضع كل منّا يده على كَتِفِ المتقدِّم عليه، والاهتداء بخطوه، والسير، إلى أين؟ لا أحد يعرف.

عتليت مُجدّداً

كان السجن الذي حملونا إليه جديداً عليّ في عمارته وتوزيعه، ولكنْ، حين أخبرنا بعد أيّام أحد السجناء اليهود الإسرائيليّيْن بأننا في سجن عتليت، استغربتُ، فليس هذا ما أعرف عن عتليت.

في الفرصة الأولى، وكانت في اليوم التالي، خرجْنا إلى باحة السجن نتنفّس ونتريّض ونفقد بعض المدّخر من الطاقة في أجسامنا، فاكتشفْنا نقصان عدد المنقولين من مجدو إلى عتليت، ولمّا تساءلنا خيفة أن يكونوا قد عاقبوهم بعد إبعادهم عن عيوننا، أخبرنا حارس ليلي إسرائيلي عراقي بأنهم استبقوهم بعد تخويفهم في مجدو، وكان المنقولون لا يتجاوزون النصف تقريباً، وقد وُضعتُ في زنزانة واحدة مع ملازم مجنّد هادئ جدّاً، بحيث تكاد تشكّ في أنه من غير المعقول أن يكون ابن أخ لواحد من أشرس الضّبّاط السّوريّيْن العاملين في الجيش.

في السجن الجديد، لم يتوقّف الإغراء والتهديد بالأذى أبداً، ففي الصباح التالي، كان الإفطار المقدَّم لنا شديد الترف، ممّا لا يقدَّم عادة إلا في فنادق الدرجة الأولى، وكان فيه الحليب الطازج، والنيسكافيه، والبيض متنوّع الإعدادات، والبسطرمة، والأجبان على أنواعها، وكانت المفاجأة في تقديم السمك غير المقلي أو المشوي "النِّيْء"، ولم نكن نعرف اسم "السوشي" بعد، والكافيار، وكانت مختلطة تنشر مهرجاناً من روائح السمك النِّيْء، والبسطرمة الحِرِّيْفَة، والحليب الشّذيّ المغري، وكان من الصعوبة

بمكان أن تتجاوزها، ولكنّا تجاوزناها. وفي الساعة العاشرة، فُتح باب الزنزانة، وكان حارس القاووش الذي دخل إلينا ومعه تحية الصباح باللهجة المغربية، ورمق صينية الإفطار، وقال في دهشة عربية: ألم تأكلوا بعد؟ ولم يجبْ واحد منّا، فقد كنّا كسيرين، حزانى، وغارقين في المونولوغات الخاصّة بنا، والأحلام المصنَّعة الهاربة من سقف الزنزانة العالي، ولمّا عجز عن جَرِّنا إلى الثرثرة، انحنى على الصّينيّة الخشبية الكبيرة، وحملها إلى خارج الزنزانة.

بعد الظهيرة التي تأخّر فيها طعام الغداء، شاهدتُ بعينَيّ غيمة بيضاء تدخل من نافذة السجن السوداء، كانت الغيمة ما هي إلا سحابة موسيقية بصوت فيروز تغنّي بعيداً، وربّما بعيداً جدّاً عن السجن، في حقل ما أو في بيت أحد السّكّان العرب، ولربّما كانت صبية ما تحتسي قهوتها الصباحية مُطِلَّة على سهول حيفا الرائعة، ولربّما كان حزن الحبّ مُخيّماً عليها لشوقها لمَنْ تُحبّ، ولربما كنتُ كذلك، كانت فيروز تغنّي: يا جبل البعيد خلفك حبايبنا، بتموج متل العيد، وهمّك متعّبنا، وأحسستُ بدموع الأسى تتدفّق بقوّة من عينَيّ، كان الحنين إلى استعادة ماض سُرق منّي بسخافة، وباستسلام زميل في هشاشة زميلي في الخدمة، وانهياره أمام المحقّق، وتهويلاته، وتهديداته.

وتخيّلتُ تلك الغيمة الجميلة البيضاء تُحلّق نحو دمشق، وتمرّ عبر سهوب حيفا والجليل، وتمرّ من سهل حوران، ومنه إلى سهول ريف دمشق، وهناك، هناك حيث الجبل الذي يقبع خلفه "حبايبنا" جبل قاسيون الذي خلفه الأهل والحبيبة والابنة والأصدقاء والأحباب وكل ما هو مألوف وحبيب وغالٍ، كانت تلك الأُغنيَّة كافية بتحويل تلك الغيمة من غيمة بيضاء هادئة إلى عاصفة ماطرة، تختزن الحنين والألم كله، لتسقي به سهول البلاد الجائمة في قلبي.

كان ما نبّهني من سرحاتي أُغنيَّة تُذكِّر باللحظات الحلوة في الحياة، أُغنيَّة تُحرِّك في الروح حزناً وهَمَّاً، وفي القلب الحزين رقّة أقرب إلى البكاء. حاولتُ بإغماض العينَيْن النوم، لأتسلّى عن الطعام المتروك مغطّى جانباً جزئيَّاً، وكانت الروائح فوّاحة أكثر من المعتاد، بل طاغية غطّت على الأُغنيَّة التي تحوّلت إلى موسيقى ربّما كانت من صُنع الذاكرة بأكثر من وجودها الواقعي.

رفعتُ البطّانيَّة عن وجهي، أتأكّد من وجود الأُغنيَّة أو الموسيقى حين رأيتُ شريكي في الزنزانة، وابن أخ العميد، رأيتُهُ يقف كأنما للا هدف إلى جانب الصّينيّة الخشبية، تحمل أطباق طعام الغداء فوَّاحة بالروائح المهيّجة للجوع، وحين التفتَ في اتّجاهي اكتفيتُ بإغماض العينَيْن في نعومة غير مُتفاجِئة بالناظر المتحفِّز، أغمضتُ عينَيّ قليلاً، ثمّ لم أستطع الاستمرار في التغاضي، ففتحتُهُما جزئيّاً، لأراه يُقرفِصُ إلى جانب الصّينيّة، ثمّ يمدّ يداً لا تُرى، فعيناه كانتا تنظران في اتّجاه آخر، ويخطف ما تقع يده عليه، وينتصب متمشّياً، وكأنه يدندن لنفسه حتّى إذا ما استدار مُغطّياً على ما ستفعله يده، قذف بما احتمله من الطبق في فمه، وأكمل جولته البطيئة في الزنزانة، ثمّ يعيد الرقصة الكوميدية من جديد، من وقوف إلى جانب الصّينيّة الخشبية، إلى النظر، حيث كنتُ مستلقياً في هدوء، والقَرْفَصَة إلى جانب الطعام، واختطاف لقمة.

كان مشهداً مُؤسِياً جارحاً للروح، فهذا الضابط الذي يتحدّر من أسرة، لا شكّ أنها شبعانة، من المؤكّد أنه لم يجعْ يوماً، فأيّ قَدَر قذر قذف به إلى هذا الموقف؟

يبدو أن حواسّي كانت مُتوفّزة، فلقد تسلّلتْ على غير إرادة موسيقى أخرى أعرفها، موسيقى متأكّد أني أعرفها، ولكنْ، ما الأُغنيَّة؟ أغمضتُ عينَيّ

ثانية، أحاول المزج بين الموسيقى المتسرّبة، وبين كلمات، أيّة كلمات. واستيقظت الكلمات، فردّدتُها مغمض العينَين، وكانت تقول: وي شل اوفر كم، وي شل اوفر كوم، وكانت ترجمة الأُغنيَّة الأميركية التي ردّدها الأفارقة هناك: سننتصر سننتصر يوماً، دندنتُها قليلاً، ورأيتُ الكلمات تتشكّل في عتمة العينَيْن المغمضَتَيْن، وكانت تقول: سوف ننتصر، نعم، نحن سننتصر، في يوم ما قادم سننتصر،

أكملتُ مُدندِناً لنفسي دون صوت مسموع أو هذا ما ظننتُ، وكان شريكي في الزنزانة قد استلقى ثانية على السرير، تبدو عليه الاستكانة المسترخية، تنتظر أحلاماً سعيدة، فتابعني مغمض العينَيْن: وي شل اوفر كوم وي شل اوفر كوم، ون داي وي شل او فركام.

We shall over come... we shall over come

وانتبهتُ إلى أن شظايا من الأُغنيَّة كانت تتردّد من زنازين قريبة، وما لبثت هذه الأُغنيَّة أن عمّت صفَّي الزنازين، لتُصبح هديراً مُزلزِلاً، لأُدرك، فيما بعد، أن تأثير أُغنيَّة "يا جبل البعيد" التي، على ما يبدو، سمعها الكل، قد وصل للجميع، ولكل منّا جبله الذي يقبع خلفه أحبابه، وكل الأحباب هم أحباب، ولأجلهم تذرف العين، وتهدم أسوار التعب، الذي تبعه رغبة في التّحدّي، والوصول إلى أولئك الأحباب و We shall over come we shall over come...وفجأة سمعْنا صوت الحارس في آخر الزنازين يصرخ بصوت مصرصع: شيكت شيكت،

ساد صمت بسيط، استوعب معه الجميع ألا خوف من بعد اليوم، وأكملنا.

لم نسكت طبعاً، واضطرّوا إلى طلب العون، وجاء العون على شكل خراطيم محتقنة بالماء، تضرب الزنازين، ولكنهم لم يصمتوا، بل

اندفعوا يتحدّون خراطيم الماء، تهدّدهم بالنوم في ماء الزنازين الملوّثة، وعمَّ الاضطراب والجلبة والتراكض في أروقة السجن على خلفية من أصوات ذُكُوريّة ثخينة، تردّد أُغنيَّة أفارقة أميركا الأسرى في العبودية آنذاك: أننا سننتصر.

كان يمكن لهذه المبارزة غير المتكافِئة أن تستمرّ، لولا أن القائمين على المعتقل أدركوا أن الإضراب عن الطعام سيتحوّل إلى شيء أكبر من الإضراب عن الطعام، وفجأة توقّفت الخراطيم عن إصابتنا، وتقدّم آمر السجن، ليُبلِّغنا أن مندوب الصليب الأحمر سيصل صباح الغد، وفي الساعة الأولى للنهار، للاستماع إلى شكاوينا، وصمت قليلاً، وتابع: شريطة أن تسمحوا لعمّال النظافة بتنظيف الزنازين، وتغيير ملابسنا المبلولة لإحسان استقبال مندوب الصليب الأحمر ومجموعته صباحاً.

انتهاء الاضراب

اليوم التالي هو اليوم الثامن للإضراب، وكان الزملاء قد غيّروا ثيابهم المُبتلّة، وحلقوا لحاهم، وكنّا بانتظار فريق الصليب الأحمر، وأخيراً جاء معاون حاكم السجن، ليُخبرنا أن فريق الصليب الأحمر قد وصل، وأنه قادم لزيارتنا، فاستعدّ الجميع لاستقبالهم، وطرح مطالبنا عليهم، والشكوى إليهم، وكان الميجور قائد اللواء المُدمّر في الخشنية قد بقي معتقلاً في "مجدو".. ولم نسكت، فلقد عرفنا الآن أن بين أيدينا سلاحاً يخافون منه بـ الناصرة، فقد اكتشفوا أنه لا شوكة له، فاستبقوه مع حوالي العشرين، أي نصف المجموعة. بينما حملونا "المشاغبين" كما سمّونا، إلى سجن "عتليت" القريب من حيفا، وضاعف لهفتنا وتحضيرنا للاستشهادات على الظلم الذي يعاملوننا به، وعلى حرماننا من البريد العائلي، ومن الصحف والكُتُب، أوكل ما يصلنا بالعالم.

في الساعة العاشرة لليوم التاسع، وفي ما قبل اجتماعنا معهم، كان الضّبّاط الأسرى قد اتّفقوا على أن أكون المحاوِر مع فريق الأُمم المتّحدة بالنظر إلى صلتي معهم قبل الحرب، ولإتقاني الإنكليزية، ومعرفتي بالفرنسية، ولترداي طيلة الوقت تفاصيل اتّفاقية جنيف التي اتّفق على احترامها أقوياء العالم كلهم.

كان الاجتماع أخيراً مع فريق الصليب الأحمر، وكنتُ المتحدِّث إليهم عن الطريقة السَّيِّئة في التعامل مع الأسرى السّوريّين، وكدتُ أمعن في الحديث عن طريقة تعامل الإسرائيليّيْن مع المصريّيْن، لولا أن أوقَفني كبير مندوبي الصليب الأحمر قائلاً بأني لا يحقّ لي الحديث باسم المصريّيْن، فلهم متحدِّثوهم، وهم "مندوبو الصليب الأحمر" سيمضون للقائهم اليوم، أو غداً، وليس من الضّروريّ أبداً تحريض مندوبي الصليب الأحمر على طريقة تعامل الإسرائيليّيْن مع المصريّيْن.

استمع إليّ في صبر وأنا أُحدّثه عن اشتياق الضّبّاط الأسرى إلى أهلهم، وعن ضرورة معرفتهم بأخبارهم، وكتب كبير مندوبي الصليب الأحمرعلى دفتر أمامه ما قلتُ له، ثمّ سأل: هل من مطالب أخرى؟ وحدّثتُهُ عن حاجتنا إلى صحف مصرية ولبنانية، ولكنه اختصر الحديث بقوله: سنتحدّث إلى الإسرائيليّيْن عن الصحف، فقلتُ: والكُتُب والمجلاّت، فقال: سنتحدّث إليهم عن وجوب تقديم القرآن والتوراة إليكم، ولكني قاطعتُهُ: أنا لم أطلب كُتُباً دينية، بل كُتُباً تتحدّث عن مجريات الأحداث في الشرق الأوسط، وعمّا يعدّه لهم الأقوياء في العالم.

كنتُ خلال الحوار أستشهد، ولمرّات عديدة، باتّفاقية جنيف عن معاملة الأسرى، وعن وجوب احترام رُتَب الأسرى وإنسانيتهم، إلخ، فأخطأ المتحدّث باسم الصليب الأحمر مرَّة، وقال يردّ عليّ، وربّما نسي اسمي

ورتبتي: مستر جنيفا، والتزم الإسرائيليون بهذه التسمية، فلم تفارقني من بعد.

كانت المصالحة إذنْ، والترتيب لإعادتنا إلى السجن القديم في "مجدو" قرب الناصرة، والتي سأعرف عبر قراءات طويلة في سوريا بعد العودة اليها أن مجدو هو المكان الذي ستقع فيه الموقعة الكبرى بين قوى الخير وقوى الشرّ، وعرفتُ أن الأميركيّينْ، "يعرفون"، أن الموقعة الكبرى بين اليهود الصالحين وبقية الكفّار من الشعوب جميعاً ستكون في مجدو، ويسمّونها "هار مغيدون"، والتي ستُنهي طغيان البرابرة، وسيعود اليهود إلى فلسطين، ويقيمون دولتهم ومشيحهم، وبعد زمن طال أم قصر، سيكون يوم القيامة، أمّا المسلمون، فيؤمنون بأن طغيان المسيح الدّجّال سيطغى على العالم حتّى يصاب بنو الإنسان باليأس، وإذا بالمسيح الطّيّب ينزل من السماء على الجامع الأموي، وعلى مئذنة العروس تحديداً، ليقيم العدل، وينهي سواد الظلم، ثمّ سيلاحق الظالمين حتّى يفنيهم، وأخيراً سيُرفع المؤمنون الطّيّبون إلى السماء، حيث الفردوس، والسعادة الأبدية.

كان التسمين هو الخطوة الأولى قبل إعادتنا إلى السجن القديم، وللمرَّة الأولى منذ بداية الضياع في السجون الإسرائيلية أتذوّق الطعام الفخم الذي لا أطبخه، وأتذوّقه في أثناء الطبخ، فتضيع دهشة الطعم بعد تذوّقه لمرَّات، وكان طعام كثير، وغني، وكنّا نعرف أن المقصود منه هواستعادتنا للأرطال التي فقدْناها في أيّام الصيام.

لكن السعادة لم تطلْ، فقد هاجمَنا عسرالهضم والصداع الرهيب الذي أصاب أكثرنا من امتلاء المعدة بالطعام الثقيل بعد جوع تامّ لأيّام عشرة.

بعد تجاوز أزمة الصداع، وعسر الهضم الذي عالجه البعض المُدرَّب

على الحياة البرِّيَّة بالإقياء الصناعي، أو أن الجسد قام بعلاج النَّفْس بالإسهال الشديد، وكلا العلاجَيْن أعادنا إلى نقطة الجوع الأولى، وكان على الجميع الإصغاء إلى "الدكتور صمديّة"، ليدلّنا على أفضل طُرُق تناوُل الطعام بعد راحة المعدة القسرية لأيّام.

بعد تناوُل طعام الإفطار في الغد، كان لنا الخيار في الخروج إلى الباحة للترّيض، ولو بالمشي في دورات كثيرة في الباحة الصغيرة المغطّاة بالشبك الحديدي القوي.

في أثناء فترة الصيام الطوعي القاسي جدَّاً، انتبهتُ إلى واحد من العاملين على تنظيف الممرّ بين الزنازين وهو يكنس ببطء لا ضرورة له، ولكني لم يخطر على بالي أبداً أنه كان يقوم بمهمّة مراقبتنا في زنازيننا، والتّنصّت على ثرثراتنا الشحيحة جدَّاً، فلم يكن في إمكان الجائع حتّى الدَّنَف أن يهدر طاقة في ثرثرة لا جدوى منها، ولكنه كان شديد الحسّ بالنظافة، ينحني على ركبَتَيْه لإزالة وسخ ما مندسّ بين الأرض والباب، أو في زاوية غائصة في العتمة، ولكن هيئة السذاجة والانغلاق على النَّفْس التي يتلبّسها كانت تمنعني من سؤاله عن ماضيه، أو عن الثرثرة معه.

بعد يومَيْن، رأيتُ سجناء ليسوا من الأسرى زملاء القاووش، وليسوا سهلي الثرثرة معنا، وكانوا يقومون بالتمارين الرّياضيّة كثيراً، فلا يُمكِّنوننا من الثرثرة معهم، ومحاولة الوصول إلى الأخبار يعرفونها، فهم ليسوا ممنوعين عن الأخبار الخارجية، وكان أهمّ ماوصلنا إليه مع لجنة القيادة والتفاوض في السجن استمهالنا حتّى وصول الجواب من القيادة في تلّ أبيب، ثمّ أخذ يلعب على "وتر البيروقراطية في الشرق الأوسط التي تعرفونها جيِّداً " قالها وكأن الأمر مسلَّم به، وكان أقصى ما وعدنا به هو راديو معدّل، لا يمكن سماع إلا الأغاني العبرية والغربية الهابطة فيه. كما اكتشفنا حين وصل الراديو إلينا.

جرّب بعض خبراء الإليكترونيات واللّاسلكي من الأسرى تعديله، ولكنهم لم يفلحوا في تحويله إلى راديو عادي، فلقد اكتشفوا أن الخبراء الإسرائيليّيْن قد انتزعوا منه كل ما يصل من أحاديث خارج الغناء. وبعد استخدام كثيف للراديو المغنّي أخذ أنصار الراديو في صرف النظر عنه، فنحن لم نُضرب عن الطعام، ونُحمَل من معتقل إلى آخر، من أجل راديو، يغنّي أغاني عبرية راقصة فقط.

في الباحة، اكتشفتُ وجود الكنَّاس بين الزنازين في بدلة السجن وهو يتمشّى متثاقلاً محني الرأس، وكأن حزن الأرض قد حطّ على كَتِفَيْه، ولستُ أدري مَن، وكيف افتتح الحديث بيننا؟ أهو مَن استجرَّني إلى الثرثرة معه؟ أم أنني كنتُ البادئ في الثرثرة؟

تظاهر في البداية أنه لا يعرف إلا العبرية، وتوجّستُ شرّاً، أتراه واحداً من المدسوسين عليّ لمعرفة إن كنتُ أعرف العبرية التي استعدتُها تقريباً من أيّام الجامعة، وبذا يحصلون على ما يُثبت أني عامل في المخابرات العسكرية، وتلك التهمة الباطلة، أو أن الحكاية بريئة، وقد أعجزتْهُ الإنكليزية، فاستعان بالعبرية التي يعرفها، وبدأتُ ألاحظ أنه لا يُتقن الإنكليزية، كما ادّعى حين بدأنا الثرثرة معاً، ولكني وقد بدأتُ الشّكّ في أنه يعتمد على العبرية حتّى يستجرّني إلى الحديث بها، فقد كنتُ أنحرف إلى الفرنسية المحايدة نوعاً ما.

استمرّت لعبة القطّ والفأر طيلة فترة مكوثه في سجن عتليت، وفي إحدى المرَّات، أخطأتُ، فسألتُهُ عن كلمة بيتار التي نقرؤها كثيراً في الحديث عن النوادي الرّياضيّة الإسرائيلية، ومنها بيتار، ألها تفسير خاصّ؟ ورغم أني كنتُ أعرف معناها إلا أنه رفض أن يفيدني بالتفسير الذي أعرفه، وقال ربّما كان معناها هو الحروف الأولى للشبيبة اليهودية، وأبديتُ تفهّمي

لما قال، ولكني رفضتُ قلبيّاً عدم معرفته، وازداد تشكُّكي فيه، وفي دافعه إلى العمل كنّاساً في ممرّ زنازين الأسرى السّوريّين.

وكنتُ أظنّ أنه سيختفي في غياهب الذاكرة كالكثيرين ممّنْ نلقاهم، ولا يكون هناك اتّصال تال بيننا، فيختفي مَنْ كان يُفترَض أن يثبت في الذاكرة، ولكنْ، وبعد أقلّ من عقد ستكون المفاجأة المذهلة أن الرجل "وقد نسيتُ اسمه اليوم، وربّما كان ميخائيل" عاد مع قيام الثورة الإيرانية التي أسعدتْنا في قضائها على الشاه الإيراني الذي شكّل مع إسرائيل كمّاشة، حصرت بين نابَيْها دول المشرق العربية، وللحقيقة، فقد كانت ثورة أفقدتْني حسّ المحاكمة الهادئة، إذ تحمّستُ لها، وخاصّة حين قضت على الشاه وجيشه المهدّد كما ظننّا، مُشكِّلَتَيْن معاً الكمّاشة الإيرانية - الإسرائيلية ضدّ المشرق العربي، وعصرنا، فنختنق بين ضغط العدوَّيْن، ولكننا أبداً لم نفكّر في أن الثورة الخمينية ستقوم بتنفيذ التهديد الشّاهنشاهيّ بعد تحمّسنا لها.

التاريخ وقائع، وليس أُمنيَّات، فالثورة الخمينية، قامت بحصار السفارة الأميركية لشهور، فانحبس في مبنى السفارة العاملون من الأميركيّيْن، والعاملون المحلِّيُّون، ثمّ يُضيِّق الخمينيون بالحصار بعد محاولة الرئيس الأميركي كارتر الهجوم على إيران في عملية "كوماندوس" لإنقاذ الرهائن الأميريكيِّيْن، ولكن الطبيعة تأبى التسليم لـ كارتر، فتهاجم الطائرة الأميركية عاصفة رملية، ممّا يضطرّها إلى الهبوط في الصحراء، فتحاول الوصول إلى السفارة الأميركية بأيّ ثمن.

عند قراءتي خبر الهجوم الأميركي الكارتري على الثّوّار الخمينيّيْن، أُصبتُ بالغضب وقتها، فهل هان شرقنا على الغرب، بحيث يتجرّؤون ولو على شكل عصابات من "الكوماندوس" على الهجوم على عاصمة شرقية؟! وتهجم جموع الخمينيّيْن على السفارة، ويقتلون مَنْ يقاومهم،

ويُخرِجون مَنْ يستطيعون إخراجه إلى معتقل آخر، ويكون بين أسماء القتلى "ميخائيل"، وقد نسيتُ الكنية الآن، الكنَّاس في معتقل عتليت الذي لم يستطع، أو لم يرد تفسير كلمة "بيتار" التي أعرفها معتقِداً أنه يخفي عنّي سرّاً، ترى هل وصلت أجهزة الأمن الإسرائيلية إلى المستوى الذي يُهدِّدنا حكّامنا به؟!

في اليوم التالي لغياب الكنّاس الأوّل، ولا نعرف سبب تغيّبه، فوجِئنا بوجود كنّاس آخر في الممرّ الفاصل بين الزنزانات التي وضعونا فيها، وبين صفّ الزنزانات المقابل، وغاب الكنَّاس الذي كان يُتقِن الإنكليزية، بحيث انتقل إلى عمل أفضل، كما اعتقدتُ، فهو يُتقن الإنكليزية خيراً ممّا يُتقن العبرية.

كان الكنَّاس الثاني يعرف العربية باللهجة العراقية، "وكي لا يستغرب القارئ تكرار وجود اليهود العرب في المعتقلات، فلذلك سببان: أوّلهما معرفة هؤلاء باللغة العربية، وتقديمهم المساعدة في التواصل بين الطَّرَفَيْن، وثانيهما، بحسب رأيي، أن المهن مثل الحارس والناطور والعامل حتّى ذلك الوقت في إسرائيل كانت حِكْراً عنصريّاً على اليهود الشرقيّيْن بينما يتمتّع اليهود الغربيون بالمهن العليا، وإن كنتُ أعتقد أن الموضوع يتغيّر حالياً"، وقد حدّثني أن أهله هاجروا من العراق إلى إسرائيل حين كان فتى صغيراً، ولكن الأب سعى لجعلهم يحافظون على العربية لغة لعائلته، فصار يغنّي بالعراقية حين كانوا يتسمّعون ليلاً على الأسطوانات، ويسايرها بالغناء مع الأسطوانات الكثيرة التي صحبها الوالد معه في الهجرة اللعينة التي أُجبر عليها، وكان يُحسِن غناء المواويل العراقية، بحيث لا يمرّ حفل زواج في المدينة دون أن يُدعى إلى إحيائه، ثمّ استكمل نقص الأسطوانات بشراء ما استجدّ منها في السوق الإسرائيلية، وكان الوالد يتحدّث الكردية التي كان يدّخرها للحديث مع الوالدة ومع الضيوف من الأكراد.

وأخيراً، ولسبب ما، جمعونا ثانية في قاووش واحد، ترأس عليه الميجور الطَّيَّار الإدلبي، الوقور دون تعمّد، والصامت لأمر ما في كثير من الأحيان، والتقينا بالكنَّاس العراقي الكردي الذي ارتقى إلى مرتبة حارس ليلي على قاووشنا، وحين أدرك الزملاء تعاطف الحارس الكردي اليهودي اللطيف معنا، أخذوا في طلب الأشياء، أو طلب شرائها لهم، وكان الثمن يُدفع بالهدايا التي نصنعها من مسابح من بذور الزيتون، إلى أغصان منحوتة من خشب سمّيناه خشب الزيتون المقدَّس المنتزَع من جبل مجدو الذي ستقع على أرضه الحرب النهائية بين الطّيّبين المؤمنين والأشرار الكافرين.

وكنّا أحياناً نعطيه ثمناً لما يأتينا به بيضاً مسلوقاً، أو مكعّبات لا فاش كي ري، أو وعوداً بنقود، سنُسلّمها له عند خروجنا.

وكانت غلطة الشاطر حين طلب منه واحد من الأصدقاء راديو ترانزيستور، وأراه النقود التي سيدفعها له، وكانت النقود منحة، قدّمها له المطران كبوشي حين رأى فقره الشديد وثيابه المهترئة، كما اشتكى شارحاً، فوهبه سرَّاً بعض الشيكلات، وقال إنها هدية من رعية الناصرة إلى بسطاء السّوريّيْن، ولكن صاحبنا أخفاها على أمل الإفادة منها حين يؤون الأوان، وآن الأوان كما اعتقد صديقنا حين جاءه أوريا البرزاني اليهودي الحارس بالراديو الترانزيستور، ولما طالب أوريا النقيبَ الطَّيَّارَ برغبته في الثمن الذي استدانه لدفع ثمن الراديو، أعطاه الليرات الشيكل كلها ثمناً للراديو.

اعتزلْنا في ركن المهجع نتسمّع في شوق وسعادة حقيقية إلى الراديو، فقد كان مَن انقضت عليه الشهور لم يسمع غناء، أو نشرة أخبار متشوِّقاً إلى كل شيء، وسعد جيران صاحب الراديو من المتعطّشين إلى سماع خبر ما عمّا يجري في الخارج بوجود الراديو إلى جوارهم.

تماسكْنا قليلاً، لا نريد أن نظهر الخفّة، وكانت الشهوة تكاد تحملنا طائرين إلى جوار الراديو، نتسمع إلى أخبار الحرب، والبلاد، ومصيرهما، وهل مازالت تدور في الخارج؟ وفاجأتْنا الأغاني الخفيفة، والماجنة، وتساءلْنا مُنكِرين: أمَا يزالون يغنّون؟

وتأخّرنا في النوم في ليلتنا الأولى، ننتظر سماع خبر ما عن الحرب في سوريا، ولكن المحطّة لم تُفرِحْنا بخبر ما عن الحرب، وقال الميجور الإدلبي: المحطّة التي تستمعون إليها ليست من المحطّات الإخبارية، فطلبْنا من المستولي على الراديو الانتقال إلى محطّة إخبارية، وحاول أحدنا أخذ الراديو الصغير بحجم محفظة نقود من صاحبه، ولكن النقيب الطَّيَّار صاحب الراديو رفض، وتشبّث بقوّة بالراديو المغنّي.

استمرّت فرحتنا بالراديو، وخاصّة حين أفلح طيَّار من خرّيجي الشهادة الإعدادية بإقناع النقيب الطَّيَّار صاحب الراديو، بمحاولة البحث عن محطّة إخبارية، فهو كما قال "خبير إليكترونيات"، واستجاب صاحب الراديو بسرعة فاجأت الجميع، وعبث الطَّيَّار الشّابّ قليلاً بالراديو، فانفتح عن كنز أثمن من كنز علي بابا حين سمعْنا المذيع يعلن أن الأخبار التي يسمعونها هي من محطّة دمشق، وكانت نشرة الأخبار، ولكنْ، قرب انتهائها، ثمّ بدأت فترة الأغاني، كانت محطّة دمشق القريبة حدّ السخرية من مكان اعتقالنا، بأصوات مذيعيها ورصانة طبقاتهم الصوتية الأجشَّة، وكانت تلك الأُغنيّات الوطنية التي تُبثُّ عادة لتغطية الشعور الواهن العامّ، جميعنا أحسسْنا أنه لم يتغيّر أيّ شيء عمّا قبل الحرب، فَصَمَتْنا.

وبدت الخيبة على وجوه المنتظرين الذين كانوا يريدون معرفة مآلات الحرب في الخارج، وإلى أين وصلت.

اضطررنا غير سعداء إلى سماع أغاني الحرب، وإلى برنامج تحليلي عن الحرب وأسبابها الظالمة، ونتائجها التي ليست لصالحنا، وقد شهدنا الضحايا البسطاء يتساقطون.

فجأة حملتْني الذاكرة على جناح يمامة، ورمتْني في الجولان في مخفري، حيث كنتُ أراقب حرب تشرين التي انفجرت أمام عينَيّ، وكنتُ شاهداً على انتصارها، ومن ثمّ هزيمتها. كنتُ في مخفري، وقبل اختطافي على يدّ الإسرائيلي قد شهدت الدَّبَّابة الأولى تعبر الخندق العدوّ، ولكنها ما إن عبرت حتّى أصابتْها طلقة صاروخ معاد للدَّبَّابات، وهرع الجند مبتعدين عنها قبل انفجارها، ولكن دبَّابة أخرى كانت تعبر الخندق، فأصابها الصاروخ إصابة مباشرة، وهرع مَنْ نجا إلى الدَّبَّابة التي كانت تعبر الخندق لتوِّها، فتعلّقوا بها حتّى صارت الدَّبَّابة كالقُنْفُذ لكثرة مَنْ تعلّقوا بها، وأذكر أني قلتُ للميجور الإيطالي الذي لم يكن قد لجأ إلى السُّكْر هرباً من "حرب ليست حربه"، وكانت الانفجارات تغطّي على كل حوار، فرفعتُ صوتي، ليسمعني ضمن ما نسمع من طلقات مدفعية وطائرات ودبَّابات: أرأيتَ الشجاعة؟ أتراهم، وهم يتسلَّقون على الدَّبَّابة، ليُنفِّذوا مهمَّتهم؟ وعندئذ أجابني برصانة، لم أعتدها منه يوماً: الحرب الحديثة لا تُفضِّل الشجاعة الفردية، بل تُفضِّل عدم احتسابها ضمن سجايا المقاتل، وتردّد قليلاً، ثمّ تابع "الحرب الحديثة، يا عزيزي، تُفضِّل الانضباط لتنفيذ الخطّة الموضوعة من قبَل القيادة مُسبَّقاً، وتُفضِّل الالتزام بما وضع القادة الكبار للمعركة، وإلا فهل تُفضِّل أن يبادر كل جندي إلى القيام بحربه الخاصّة؟ وسمعْنا انفجاراً قويّاً، فاتّجهْنا بنظرنا إلى الدَّبَّابة الحاملة للجند حتّى بات منظرها كالقُنْفُذ، ولم نستطع سماع آهات الألم وصراخ المعذّبين عند الدَّبَّابة، فقد كنّا بعيدين، وكانت أصوات الانفجارات تغطّي ما يجري هناك، حيث سقط الشجعان الذين عبروا الخندق للاستيلاء على تلّ وردة في الجولان، وصَمَتُّ مُفحَماً، فقد كانت إجابته إجابة ضابط محترف، يعرف عمله.

وطال الانتظار على "الدكتور صمديّة" كما بتْنا نُسمّي الدكتور خالد، وعلينا، خاصّة حين عرض عليه "الميجور طيَّار" الإدلبي أن يقرأ على الراديو "صمديّة" ما، فلعلّ الأخبار تُطمئنكم عن مآلات الحرب، وصدمتْني الدهشة: وإذنْ، فهو منطقي غير مهتمّ بتعاويذ الطبيب، ولا يقبل بتفسير مآلات الحرب بالمنامات وتفاسيرها، وها هو يسخر من تحفّزنا، والتفتُّ إلى الكابتن طيّار أديب الذي تحسّن وضعه الصّحّيّ بعد القفزة المروّعة من الطّيّارة عند إصابتها في حرب، كانت ممكنة الفوز. أتراها كانت ممكنة الفوز لصالحنا؟ ورأيت نظرة السخرية المكبوتة على وجهه.

وفي الصباح التالي، حظيْنا بنشرة الأخبار، وكانت مطمئِنة تتحدّث عن "المجاهدين على خطّ كناكر" يضربون العدوّ حتّى الإدماء.

تبادلْنا نظرات الفزع، فالعدوّ قد وصل إلى كناكر، إذنْ، وماذا عن النجدات العربية؟ وماذا عن جيش العراق الذي أرسله إلينا صدّام حسين، إذنْ؟ وارتفعت أصوات شجارنا، فالبعض سعيد بنشرة الأخبار المطمئِنة، والحرب كرّ وفرّ، والبعض كان مذعوراً، في بيت جنّ؟ أوصلوا، إذنْ، إلى بيت جنّ وكناكر؟

واحتدم الجدال بيننا حتّى وصلت الأصوات إلى حارس القاووش الآخر، أي غير البرزاني، ومنه إلى قيادة المعتقل الذين لم يتوانوا، فسرعان ما هاجموا القاووش، وقبضوا على الجميع، وبعد التحقيق، صادروا الراديو، واختفى الحارس الكردي العراقي الإسرائيلي أوريا البرزاني، ولم نعد نسمع عنه خبراً حتّى سمعنا صوته يوماً يصدر ضعيفاً من إحدى الزنزانات، وهو يصرخ: أنفاكيد، أنفاكيد، (سيّدي القائد)، وقال الميجور طيَّار إدلبي: إنه يستغيث بالقائد لإخراجه من الاعتقال الفردي في المنفردة. وكان هذا آخر العهد به، فلم نره من بعد أبداً.

إبراهيم في مجدو

جمعونا بعد التّأكّد مِن وضع الكيس الأسود على رؤوسنا، والقيود البلاستيكية على أرساغنا، ثمّ جعلونا نصعد إلى باص كان في الانتظار، وانطلقْنا لا نعرف إلى أين، وكان بؤس، وكانت مرارة وانكسار، وكان إحساس بخيبة وهزيمة، وضياع، فها هم يعبثون بنا دون أيّة مراعاة للقانون الدّوليّ، أو لمشاعرنا، وها نحن نُنقل من سجن إلى سجن واضعين الثياب العسكرية السّوريّة المبرقعة "غنائم الحرب السابقة"، وقد كُتب عليها بحروف كبيرة تُرى من بعيد كلمة "شيفوي" العبرية، والتي تعني "سبي أو أسير".

طالت الرحلة حتّى أصابَنا السأم، وأحسّ البعض أن السائق كان يدور بنا لتضليلنا عن المكان الذي سنمضي إليه، وعمد البعض إلى رفع الكيس عن عيونهم، ليروا عبر النافذة الزجاجية ما كان الإسرائيليون حريصين على عدم رؤيتنا له، ولكني حين حاولتُ رفع الكيس الأسود، ارتكبتُ خطأ ما في تحريك اليَدَيْن في القيد البلاستيكي، وكان ألم عنيف سرعان ما اختفى، ولم أعرف أني قد آذيتُ عصب الحسّ في الرُّسْغَيْن حتّى وصولنا المقصد فيما بعد، وابتداء المعرفة بأني لا أحسّ ألماً أو راحة بالإبهامَيْن، وكأنهما غير موجودَيْن، هذا الإحساس الذي سيستمرّ معي حتّى العودة إلى سوريا، ولكن ضياع الحسّ في الإبهامَيْن لم يكن بالأمر الهامّ أمام ما رأيتُ عبر النافذة، فقد كانت قرى عربية، ظننّاها سورية، لولا أن المسافة الزَّمنيَّة في الباص لم تكن تسمح لنا بالوصول إلى الأراضي السّوريّة، كانت قرى مسقوفة بالطين، وأمام معظم البيوت ما يشبه زريبة للدّوابّ، ربطت فيها أبقار سود مبقّعة بالأبيض، المتّسخ بروْثها، وكانت سواقي المجاري تتعرّج أمام البيوت حتّى تخرج عن الباحة إلى الحارة، ولم نستطع رؤية الذباب والحشرات تعيث فيها.

كان منظراً كلاسيكيّاً عن القرى العربية التي لم تهتمّ الحكومات العربية بترميمها وجَعْلها معاصرة، وها هي مجسّدة هنا في الإدارات المحلِّيَّة للقرى "المخاتير، ورؤساء البلديات". تقوم بالمهمّة نفسها في التطنيش، وأخيراً، وبعد أن سئمت منّا العيون من مرأى الحطب على أسقف البيوت، والبقر يهشّ ذباباً جريئاً متحدِّياً للعيون، انحرف الباص، فوجدنا أنفسنا في حقول خضر وأشجار مقلّمة جيِّداً، كان منظراً مختلفاً تماماً، وكأننا في عالم آخر، السقوف القِرْمِيْدِيَّة، والحارات النظيفة، فلا مجاري مكشوفة، ولا حشرات أو ذباب، وسرعان ما استيقظ مرافقنا الحارس، ليكتشف مسارعتنا إلى إنزال الأكياس السوداء حول وجوهنا، فيعود إلى جلسته النَّوميَّة بلا مبالاة.

بهدوء، بدأ الطريق السريع يعلن عن نفسه في نعومة الانزلاق المريحة للسّيّارة ولأجسادنا، فعرفتُ أننا خرجنا عن الطريق الرّيفيّة التي كنّا نسير عليها في الفترة الأخيرة، وبعد قليل، فوجئنا بصوت الحارس يختلف عن الحارس الأوّل يتمتم، وهو يتفحّص الأكياس السوداء تغطّي رؤوسنا، وحين سمعنا صوت الحارس القديم بعيداً أدركتُ أنهما اثنان، وليسا واحداً، بل أحسستُ بالحارس الجديد وهو يشدّ الأسورة الخيطية أسفل كيس كل منّا، فكأنه أراد التّأكّد من أننا لن نزيحه، لنوصوص من الثغرة المفتوحة أمامنا برفعه قليلاً، ولم تكن المسافة على الطريق السريعة قصيرة، وربمّا اجتزْنا عشرات الكيلو مترات قبل أن يُهدِّئ السائق من سرعته، ثمّ يتوقّف، فنسمع صوت الحرَّاس يستقبلوننا، ثمّ نسمع صوت الحارس الأوّل، يطلب إلينا الوقوف، فوقفْنا، ونزلْنا من الباص، حيث ساقونا معصوبين إلى الباحة، لنقف في استعداد، وإذا بصوت حاكم السجن العراقي القديم يطلب إلينا رفع الأكياس، فرفعناها بالصعوبة التي يرفع فيها الموثّق بالقيد البلاستيكي الكيس الأسود، ورأيناه بعد عدّة رمشات، تحاول التأقلم مع النور الباهر، في مجموعة من الضّبّاط الأقلّ رتبة وبعض الجند.

طلب منّا الجلوس على الأرض المغطّاة ببلاط رمادي اللون، عرفتُ فيه بلاط سجن مجدو، التفتُّ من حولي، أحاول السؤال، أو اكتشاف المكان حين فاجأني صوت سوريّ اللكنة يصرخ في عربية ملكونة بالدّمشقيّة، يطلب إلى الجالسين عدم التّحرّك، أو الهمس. أحسستُ أني أعرف الصوت، فاللكنة سورية، ولكنه عاد إلى الصّفّ الثاني تاركاً الميجور العراقي حاكم السجن يقف وحيداً عند الميكروفون، وكانت المفاجأة في أن خطابه كان بالعبرية رغم أنه كان يُحسِن العربية، فلقد سمعناه يتحدّث إلينا بها، ولكن الجالسين على البلاط لم يفهموا من عبريته شيئاً.

كنتُ في جلستي غير المريحة، والتي عقدت كَفَّيّ فيها على ركبَتَيّ، وأحنيتُ رأسي إلى الأرض، أفكّر في القَدَر الغريب الذي رماني هذه الرمية حين سمعتُ الصوت السّوريّ الذي بدا لي مألوفاً، ولكني لم أتكلَّف رفع الرأس، لأسمع ما عرفتُهُ من الميجور قبل ترجمته، ولكن الصوت شاميّ، صوت أعرفه، رفعتُ رأسي فجأة، ففوجئتُ بعينَيْن أعرفهما، وفُوجِئ بعينَيّ، وتلتقي العيون، ويذعر، يذعر، ومن ذُعره ذعرتُ، كأنني أرى جاراً لي أو أخي أو ابني وهو يتحوّل إلى إبراهيم محميي في مدرسة المنصور، يذعر. من لقاء العيون في هذا الظرف، وهذا المكان، فيصفرّ لونه، وينعقد لسانه، ويلتفت إلى الميجور حاكم السجن، ويهمس شيئاً ما، فيلتفت الميجور إلينا نحن القاعدين على البلاط دون أن يتوقّف عندي، ثمّ يلتفت إلى إبراهيم، فيقول له شيئاً عجزتُ عن سماعه، وحينئذ ينسلّ إبراهيم كالشبح نعومة، ويختفي، ويتقدّم جندي آخر، فيُكمل الترجمة عن ورقة، ولكني، لتغيُّر مزاجي أحسستُ بكراهية لنفسي، وإن أخذت الذكريات تُلحّ عليّ، فأحنيتُ رأسي إلى قريب من فخذَيّ اللّتَيْن شكّلتْهما الجلسة على شكل الاحتباء المقيّد بالقيد البلاستيكي.

إبراهيم الضّحيّة أم المذنب؟

أخذت الذكريات تُلحّ عليّ، مدرسة المنصور في دمشق أواخر السّتّينيّات، والطّلّاب الفتيان يتحلّقون من حولي، وأحدهم يمسك برُسْغ مَنْ سأعرفه مستقبلاً باسم إبراهيم، فهو يشدّه باتّجاه التّجمّع، وكأنما يجرّه إلى المحكمة التي ستدينه وتجعله من المشكوك بأمرهم والمتّهمين بوطنيتهم، وبداية علاقتي مع إبراهيم مفصولاً عن طلّاب المدرسة الذين يغلب عليهم المسيحيون، وكان هذا يخالف كثيراً مع الشائع في شرقنا المحتقن فيما يُروّج له عن تحالف مسيحيي أوربا مع اليهود ضدّ سكّان الشرق الأوسط، والذين يغلب عليهم المسلمون.

كنتُ أعبر حنايا باب توما وشوارعها المرصوفة بالحجر وشبابيك بيوتها المحجوبة بالستائر المطرّزة بعيداً في العمق حتّى المدرسة العازارية، أو مدرسة فينسنت دي سان بول التي كان البعث قد أمّمها، وأعلن ذلك منذ شهور الصيف الأولى، ولمّا لم يكن لديهم معلّمون محترفون، فلقد رأى القائمون على شؤون المُدرِّسين إرسال مُدرِّسين من خارج الملاك التّربويّ، أي ممّنْ حمل الشهادات العليا في المادَّة التي سيُدرِّسونها دون أن يكون من ملاك المُدرِّسين النّظاميّيْن.

كانت حكومة البعث قد أمّمت المدارس كلها من دينية، أو علمانية، تُدار من قبَل هيئات أجنبية، فأمّمها، وأمّمت مناهجها، وأمّم حتّى اسمها، لتصير مدرسة المنصور الثّانويَّة، وأمّم جهاز التعليم، ولمّا كانت اللغة

العربية من الموادّ المهمّة لحزب البعث الحاكم، فقد اختارني المفتّش، كما أخبرني بعد الاختبار، مُدرِّساً للعربية في مدرسة المنصور، وكان عَليّ وأنا القادم من مصر والغريب عن تفاصيل المدينة أن أبحث عن تلك المدرسة الموجودة في حَيّ باب توما.

مضيتُ إلى المدرسة قبل افتتاحها بأيّام، أُدرِّب نفسي على الطريق إليها، ولم يكن الاهتداء إليها بعد سؤال سمّان الحارة، وبائع السجائر فيها بالأمر الصعب.

أوّل يوم لي في المدرسة مُدرِّساً للمرَّة الأولى في حياتي كان نقطة عالقة في الذاكرة، تماماً كما هو بالنسبة إلى التلميذ الوافد حديثاً إلى المدرسة، فاجأني المدير في كونه شديد العامّيّة في السلوك، وفي الخطابات، وفي استخدام المفردات العامّيّة، فقد خاطب أحد المُدرِّسين عند دخوله إلى قاعة المُدرِّسين متأخّراً: وين كنت زامط؟ وفهمتُ من السياق أنه يتحدّث عن تسلّل ما، فاستخدم تعبير "زامط" الذي لم أستخدمه، ولم أسمعه من أحد في حياتي قطّ. وحين سألتُهُ بِعَدِّه مُدرِّساً سابقاً، ويملك خبرة في تعليم الطّلّاب عن الكيفية التي سأتقدّم بها إلى الطّلّاب، قال لي في تبرّم: أنتَ مُدرِّس محترف، ودبِّر رأسكَ، وكانت الصدمة الأولى أستقبلها في المهنة الجديدة التي دُفِعْتُ إليها.

أمّا حين إلقائه خطبة الاستقبال للطّلّاب القادمين إلى التّعلّم للمرَّة الأولى في مدرسة المنصور، والتي كانت مخصّصة لدارسي الفرنسية للعام الدراسي السابق فقط، فكان أشدّ عاميّة، بل كان خطاب الاستقبال بالعامّيّة البلدية تماماً، وحين سألتُ عنه بعد الدوام المدرسي أخبروني بأن كل مزاياه هو أنه عضو في الحزب الحاكم، وأنه ممتاز في كتابة التقارير عن كل ما يجري في المدرسة إلى أجهزة الأمن، بل هو الأشدّ خطورة في

سوريا على مَنْ يحتكّ به، فهو القادر على الكتابة لرجال الأمن، وباللغة التي يفهمها رجال الأمن.

انقضى العام الدّراسيّ بين تعليم للأولاد وتطبيق للمناهج التّربويّة كما ندرسها في كُلّيّة التربية، وبين حماية "إبراهيم" من زملائه الذين أصرّوا على اضطهاده في الصّفّ، وفي الباحة، كان أوّل تعرّفي عليه في يومي الأوّل في التعليم، فقد كانت حصّتي الأولى موفّقة حسب ما أعتقد، وحسب تغاضيّ عن التدافع السّرّيّ بين التلاميذ الفتيان يظنّونني لم ألاحظ سلوكهم المشاغب، كان درساً "خطّة عمل" كما أردتُ لهم أن يفهموا، ولكن كل شيء خطر على بالي إلا أن يلحق بي اثنان من وديعي الصّفّ حتّى الملائكية (وديع وجورج)، ثمّ يشيران إلى ولد مهذّب ناعم حذر من العالم أن يصيبه بأذى، وأنيق حتّى المغايظة، فيقترب أحدهما منّي، ثمّ يهمس في تحذير: أستاذ، إبراهيم، الذي راعيتَهُ كثيراً في أثناء الدرس هو يهودي.

كلمة يهودي التي سمعتُها للتّوّ كانت مرعبة في الاتّجاهات كلها، فأنا لم أعرف يهوديًّاً طفلاً، وعلى العكس، كان كل مَنْ عرفتُ في الأميركين كما ذكرتُ في القاهرة عجائز جدّاً حتّى الارتعاش عند الكلام، وكان أكثر ما فيهم يهودية هوالإشارة إلى البعيد ونطقهم للكلمة المغيظة: "عندنا" ويقصدون بضمير "نا" "فلسطين" التي سلبوها من أبنائها.

وأخيراً تختارني المقادير لتجعلني في موقع المتحكّم بالقدر، يهودي، وطفل، وبريء، وقال أحد الفتيَّيْن يتملّق المسلم فيّ، فتحدّث عن اليهود الذين صلبوا السّيّد المسيح، واتّهموا أُمّه القدّيسة مريم بالزنا رافضين فكرة الولادة من غير دَنَس، إلخ، وبعد تفكير مكثّف وسريع، تحرّك الدّيموقراطيّ النّاصريّ فيّ، وتحرّكتْ شرعة حقوق الإنسان التي صَدَمَتْ صدمتي الحضارية أمامها في فرنسا، وليس أمام برج إيفل، قلتُ متهرِّباً: دعوني أفكّر، وسأخبركم بما يجب عمله غداً في الدرس التالي.

كانت صدمتي، في رؤية شبّان صغار، يمارسون اضطهاداً حقيقيّاً وتنمُّراً وقحاً لطفل في سنّ المراهقة، لسبب واحد فقط، ألا وهو دينه، جميعهم ضحايا، الطفلان المسيحيان لا يدركان ما يفعلان، بل يردّدان ما سمعاه ويسمعانه في الراديو الشارع والمقاهي، بالإضافة إلى إحساسهم بقوّة الدعم الخفية التي بحورتهم، إن هم تجاوزوا الحدّ، فذلك جزء من القضية من أجل تحرير فلسطين التي لم يعرفوها إلا في أدبيات المتاجرة بفلسطين، الجميع كانوا ضحايا، بمَنْ فيهم الأستاذ الذي يُفترَض أنه "مسلم"، وبأن أيّ مسلم هو كاره لليهود تلقائيّاً، هي، إذنْ، عدّة عصافير سمينة، ضربت بحجر واحد انتهازي، ولكن الرهان كان فاشلاً.

عام طويل انقضى عليّ وأنا أحمي الطفل الصغير حجماً وقدرة على الرّدّ على رفاق الصّفّ، والمظلوم من زملائه في المدرسة، خاصّة بعد إلقائي كلمتي التي أرفض فيها الاختلاف الدّينيّ والمذهبي، بل نحن نعيش على هذه الأرض المشتركة، فاتركوا مشاكل ما بعد الموت إلى ما بعد الموت، فأنتم لستم المنتقمين، أو المكلّفين بالانتقام ممّا وقع على أجدادكم من مآسٍ، وأطلقتُ حكمتي التي هزّتْهم، والتي سمعتُها فيما مضى من واحد من الدّيماغوجيّيْن في مصر: الدين لله، والوطن لجميع مواطنيه، وصمت التلاميذ المسلمون والمسيحيون مبتهجين بهذا الشعار، وازداد إبراهيم التصاقاً بي حتّى نهاية العام، فقد كنتُ حاميه تجاه الطّلّاب الصغار المشاغبين من مسلمين ومسيحيّيْن.

وازداد تقرّباً، ولكنْ، بغرابة وتوجّس، فالشّابّ الصغير، كان من سكّان حَيّ اليهود الملاصق للحَيّ المسيحي في باب توما، وعلى الدوام، وبمرور التاريخ، كان اليهود الدّمشقيّون والسّوريّون مندمجين بمودَّة في النسيج السّوريّ، دون أيّة إرهاصات أخرى، حتّى جاءت هزيمة ٤٨، وتلتْها هزيمة

٦٧، لتُسبِّبا خلطاً عامَّاً وكبيراً بين اليهود السّوريّيْن والإسرائيليّيْن، دفع ثمنه طبعاً السّوريّون من اليهود الأصلاء في البلاد، نتيجة جهل قيادات السّوريّيْن وعدم قدرتها على التفريق بين المواطن باختلاف مِلّته والغريب، ولربَّما كان لإعدام (إيليا كوهين) الذي سبَّبت قضية اختراقه للقيادة القطرية لحزب البعث، ووصوله إلى مناصب عليا في الحزب، سبَّبت أيضاً حالة من الظلم لبقية اليهود السّوريّيْن، حيث كان (جورج ووديع وبقية رفقائهم) يسمون إبراهيم على الدوام بالخائن المحتمل على طريقة المراهقين.

إنها نتيجة جديدة من النتائج الهامشية للصراع مع إسرائيل، وعلى الدوام يدفع الشعب السّوريّ الثمن.

أخرجَني من جلستي المحتبية رغماً عنّي العالم الخارجي لأتذكّر أني في سجن مجدو، وكانت نحنحة تشبه النَّقْر على الكَتِف، ولم أنتبه من شرودي، ولكنْ، حين لم تكفّ النحنحة تقدّمت الربتة على كَتِفي، لتُوقظَني من نوم ليس بالنوم، وسمعتُ النحنحة القوية بعد ربتة الرائد الطّيّار إدلبي الذي صار من أصدقائي في سجن عتليت، فالتفتَ إلى حيث الميجور العراقي حاكم السجن، الذي كان صوته يُلَعْلِعُ خطيباً بالعبرية، ولكني لم أرَ إبراهيم، ولم أسمع صوته المتردّد الخائف، فقد اختفى.

كانت حَيْرتي لاختفاء إبراهيم، عن المعتقل من بعد رؤيتي له شابَّاً ناضجاً، كبيرة، وكان السؤال الذي لم أستطع الإجابة عنه: هل كان المترجم المختفي هو إبراهيم فعلاً؟ أم أنني، وأنا المتعَب من الرحلة الطويلة معصوب العينَيْن موثوق الرُّسْغَيْن، عاجزاً عن الحسّ فيهما بعد توثيقهما الشديد بالقيود البلاستيكية الشرسة قد أصبحتُ مشوَّش الرأي غير قادر على الحكم، ولكن حسِّي بالمرارة لتجاهل من حميته طفلاً لم تختف، وكنتُ أفكّر، غير مهمّ إن كان إبراهيم ذاته أم شابّاً سوريّاً آخر، فالمهمّ هو

أن مَنْ حميتُهُ وربّما حمى آباءه من قبل ها هو يفقد القدرة على تحمُّل المهانة والتأثيم والتخوين، ويُلقي بنفسه من طرف إلى طرف، سائماً من وصفه بالخائن، ليصبح خائناً، ولكنْ، هل هو خائن حقّاً؟ من وجهة نظره على الأقلّ، هو يشعر بنفسه ضحية، وعلى الأرجح حتّى تلك اللحظة التي التقت عينانا كان يشعر أنه ضحية، وأن كل ما فعله من سفر من دمشق إلى الغرب، ومنه إلى إسرائيل هو انتقاله من دور الضحية إلى دور المواطن كما أراد، ولكن تلك الشرارة بين أعيننا، هي الحقيقة، وفقط هي الحقيقة التي يعرفها كلانا وكلانا فقط، بأن هنالك مَنْ يسمح لذلك أن يحدث.

كان إبراهيم نموذجاً مصغَّراً جدّاً عن إسرائيل، لأنه لم يكن خائناً، فمن المستحيل على تلك العينَيْن الخجولَتَيْن أن تصبحا خائنَتَيْن، ولكنْ، هناك على الجانبَيْن مَنْ يلعب بهؤلاء الضعفاء مثل الماريونيت، هناك مَن استغلّ شوقه للحياة الطّبيعيّة، كي يشتري منه عمره مثل "فاوست"، وهناك مَنْ أخرجه من حياته الطّبيعيّة رغماً عنه، كي يُثبت أنه وطني وقومي ومُحبّ للقضية.

طلب منّا صوت جديد لمترجم مغربي اللكنة القيام، فقمنا نشعر بأعضائنا تطلب التّمطّط للاستراحة من الشّدّ الطويل روحيّاً ونَفْسيّاً منذ خروجنا من عتليت، وفي الطريق إلى القاووش القديم، كنتُ أفكّر: ولكنْ، أين الوفاء من إبراهيم الطفل الذي حميتُهُ ورعيتُهُ طويلاً لعام دراسي كامل من فظاعات التاريخ وكراهياته.

كان رجال قاووشنا قبل النقل إلى عتليت ينتظروننا في حماسة، عبّروا عنها بالعناقات والملامسات الجسدية للاطمئنان على صحّتنا الجسدية والنَّفْسيَّة، وكانت سلطة المعتقل قد جهّزت البريد الوارد إلينا من سوريا، وجاءتْنا بنسخ من صحف فلسطينية محايدة تقريباً، ولم تُوصِل إلينا جريدة

"ها عولام هازيه" في نسختها العربية كما طلبتُ، ولا حتّى جريدة الحزب الشّيوعيّ الإسرائيلي الفاضح للعنف العسكري الأشكينازي المُمارَس على العُزَّل من الفلسطينيّيْن، والسّوريّيْن، والمصريّيْن، وفي تلك الليلة، وبعد انقضاء الاستقبال والحديث عن مغامرات كلّ منّا في التعامل مع السلطة الإسرائيلية، اتّجهتُ إلى سريري الحديدي، واستلقيتُ أطلب النوم، وفاجأتْني وأنا أحاول النوم صورةُ إبراهيم الطفل في العازارية وهو يلوذ بي مُتهرِّباً من الطّلّاب الآخرين الأشبه بالضباع التي شمّت رائحة الخوف في مَنْ سيكون العشاء لتلك الليلة. ولكن صورة المترجم الشّاميّ يقف وراء حاكم السجن يختفي ويتجلّى كصورة تليفزيون تتخبَّط على الشاشة، لم أستطع إزاحتها من ساحة تفكيري.

ربّما ظلّت صورة الترجمان الشّاميّ تلاحقني حتّى استغرقني النوم، وفي الصباح التالي وكان الضّبّاط الأسرى قد اختاروا طبّاخاً آخر، واغتنموا الفرصة الطويلة لتعلُّمه الطبخ، فتساهلوا في نوعية الطبخ، وفي الملح الزائد أو عدمه، فلم يشتكوا من دروس التّعلّم الفاشلة حتّى، قارب التّعلّم، ورجعتُ، ولكنهم لم يحسبوا حساباً أني سأرفض إكمال مهمّة الطبخ، فأنا لم أُصدِّق أني تخلّصتُ من مهمّة الطبخ، والاعتذار عن سوئه أو نقص ملحه، إلخ، وتناولتُ إفطاري صامتاً دون احتجاج، أفكّر في مفهوم الخيانة.

البروفيسور غيدو

كنتُ قد استحممتُ دون صابون، فلم نكن قادرين على شراء صابون لا يُسقِط الشَعْر، ولا يبدي لنا قدرتهم على الأذى، حين سمعْنا سلسلة المفاتيح عند باب القاووش، فالتفتُّ لأرى الحارس مصحوباً بآخر في زيّ سرايا الدفاع المبرقع، وكان ينظر إلى كل ما حوله في استهانة، كان عَضِلاً أسود الشَّعْر، قد اختفت مقدّمة الشَّعْر عن رأسه، ينظر في استهانة إلى

القاووش، وساكني القاووش، قال الحارس الإسرائيلي: ضيف جديد، ثمّ أضاف تعبيراً "سوريا" حين تابع: وديروا بالكم عليه، وأشار له الحارس بالدخول، وقد استعدّ برشّاشه القصير المُوجَّه إلى المستلقين على أسِرَّتهم القريبين من الباب.

كان وصول وجه جديد حدثاً مهمَّاً لدينا، فلابد أن لديه خبراً ما عن ما يجري في الخارج، ولكن الشّابّ ذا العضلات الضخمة اتّجه إلى السرير القريب من الباب، وجلس هامساً: معك سيكارة؟

كان دخوله القاووش مفاجأة لنا، فقد كنّا وصلْنا إلى قناعة أن ليس من مزيد من الأسرى القادمين إلينا، ما سبب هذه القناعة؟ لا شيء، إنما كانت هذه هي الفكرة السائدة لدينا لا نقطاع الأسرى الجدد حين فتح الحارس الباب علينا، وأدخل شخصاً مربوع الطول، ممتلئ العضلات بشكل مستفزّ، كان يسير وكأنما في استعراض لعضلاته، وقد حدّثنا فيما بعد عن لاعبي كمال الأجسام الذين يتدرَّبون في ناديه على كمال الأجسام، وكيف يقفون، وكيف يتحرّكون، وكيف يستدعون أصدقاءهم من بيوتهم في الطابق الثاني أو الثالث، وكيف يقف أحدهم شادّاً عضلاته لتبدو بارزة، ثمّ يشير إلى الصديق المستدعَى بأصبعه تاركاً لعضلاته الاستعراض الصارخ في انتفاحها، وكيف يأكل في الشارع، وكيف، كانت حياته كلها استعراضاً لإنجازاته في انتفاخ عضلاته.

لم يكن نور الدين مختلفاً عمَّنْ سيصفهم لنا فيما بعد، فقد دخل القاووش منتفخاً، وجلس قرب سريري، ثمّ قال: سيكارة. فأعطاه أحد المدخّنين سيكارة، أشعلها له، ولكن المدهش هو في أنه دخّن السيكارة الأولى في شهقة واحدة متطاولة، وما إن رمى العقب حتّى طلب أخرى، فقدّم له صاحب السرير التالي سيكارة جديدة، دخَّنها في نَفَس واحد

تقريباً، وهكذا قضى الزمن الأوّل لدخوله إلى القاووش في تدخين ما يزيد عن علبة، وأخيراً يبدو أنه قد اكتفى، فقال: هذه هي السيكارة الأولى أُدخِّنها منذ شهر.

ولم نعرف عن هذا النور الدين إلا بعد وصول الملازم الأوّل الـ جوجو، وسلامهما كل على الآخر في شوق واحترام، وكان لفضول المجتمع المغلق لدى الأسرى أن يشبع مع حكايا الملازم أوّل الرياضي أحمد، والذي كرّرمأثرة نور الدين، ولكنْ، ليس على السجائر، بل على الخبز، فلقد كان جائعاً جوع الدببة بعد خروجها من السُّبَات، وبعد راحة يوم، أخذ يحدِّث نور الدين، وأخذ نور الدين يُحدِّثه عن المأثرة الرائعة التي قاما بها حين هاجموا مرصد جبل الشيخ، واحتلّوه، وقتلوا، وقُتل منهم أصدقاء، يجب البكاء عليهم لما بذلوا من شجاعة في أثناء الالتحام، ولكنْ، ربّما لن يهتمّ الشعب السّوريّ بهذه المأثرة، لسبب بسيط هو أن الدولة لم تتغنّ بفعلتهم، فالدولة كانت عارفة بأنها هجرتْهم مباشرة بعد إذاعة الخبر المتلفَز على التلفيزيون عن استعادة المرصد دون الاشارة إلى هجرهم لأسبوعَيْن دون طعام أو شراب، نسوهم تماماً بعد الخبر المتلفَز، وتركوهم لقَدَرهم دون طعام أو ماء، لكنهم يقولون إنهم أرسلوا إليهم الطعام والماء والذخيرة على ظهور بغال مُدرَّبة، ولكنها مُدرَّبة على التهريب، فلقد استؤجِرَت من مهرِّبين محترفين، فما إن تسمع صفير قنبلة أو أزيز رصاصة حتّى تنتفض شبه واقفة كالإنسان، وترمي أحمالها، وتختفي في دروب الجبل عائدة إلى القرى التي تدرَّبوا فيها على تهريب السجائر والكحول من لبنان.

جاع المقاتلون الرائعون، فهاجموا كانتين لمستثمر إسرائيلي قريب من المرصد، مُعدّاً لاستقبال المُتزلِّجين على ثلوج جبل الشيخ الرائعة، وضحك نور الدين وهو يقول: عشْنا عشرة أيّام على الكولا شراباً، وعلى

شرائح البطاطا والبسكويت طعاماً على قمّة الجبل، ولمّا لم يُنجدهم جيشهم، وأنهكهم الجوع والعطش، فلقد نفدت الكولا، وأنهكَهُم الضعف، استجابوا إلى النداءات على الميكروفون، يُطلقها الإسرائيليون، يطلبون منهم التسليم، ويعدونهم باحترام ما أنجزوه، وقال الملازم أوّل أحمد: وها نحن معكم، وأطلق قهقهة رجولية، وهو يصرخ: أين الأكل؟ جوعانين.

بعد أيّام، وما كدنا ننتهي من طعام الفطور حتّى وصل الحارس إلى حيث الباب المشبك بالحديد الغليظ، ونادى على اسمي بصوت عال، ودون ذِكْر رتبة، بل قال: هناك مَنْ ينتظركَ بعد الإفطار، فلا ترتبط بأيّ عمل.

وكان البروفيسور غيدو أو، جدعون، وهو أستاذ في جامعة هداسا الذي انتصب لرؤيتي في احترام، ورحّب في حماس: كنتُ أشتهي التّعرّف إليكَ، ولكنْ، "قال في أسف" لم أكن أتمنّى هذا الشكل من التعارف.

وضحكتُ لهذا "الشكل من التعارف"، ولكني لم أُعلِّق، بل جلستُ حيث أشار، وطلب فنجاني "كافيه أوليه"، وأضاف: "دون سكّر طبعاً"، وأدهشتْني معرفته برغباتي، ولو لم أعلنها، قال: "لقيتُ الميجور الضابط في قوّات الفصل بيل بولش الذي كان على الجانب السّوريّ من الحدود"، وتوقّف متردّداً، ثمّ تابع:

"قبل أن يحضر إلى إسرائيل لقضاء الإجازة، وأخبرني عن سؤاله لكَ عن معنى كلمة فدايين التي انتشرت كثيراً في الصحافة العالمية هذه الأيّام، وتعليقات الصحافة والتلفزيون". توتّرتُ، فلقد تذكّرت سؤال الميجور بولش لي عن معنى كلمة فدايين، وتذكّرتُ إجابتي له عن أنها تعبير لغوي قديم قِدَم الحروب الصّليبيّة، وتسمية المسلمين والحكواتية للفدايين الذين يهبون أنفسهم رخيصة لتنفيذ الأمر الذي كلّفهم به الإمام، أو القضية التي

يُكلّفهم بها الإمام، أو مَنْ ينوب عنه، وهكذا تغيّر اسم الفدائي المتعارف عليه حاليّاً "الغويّاً " إلى كلمة فداوي التي نقلتْها إلينا السِّيَر الشَّعبيَّة، وخاصّة "سيرة الملك الظاهر بيبرس البندقداري" وهذا ما وصلَنا عبر السِّيَر الشَّعبيَّة عن الفداويّين، هززتُ رأسي في تهكّم: وكأنكَ لا تندهش من معرفتي بما تُبلِّغني به الآن. قال البروفيسور غيدو يهزّ رأسه في تفهّم: ردّكَ العلمي أثار ضجّة في الأوساط العلمية الإسرائيلية، ثمّ أكمل في انكسار: لا بدّ أنكَ لم تكن تعرف بالضجّة التي أثارها ردّكَ حتّى وصل إلى الإذاعة الإسرائيلية، ثمّ قال لي في تسامح: سمعتُها من الإذاعة الإسرائيلية، أليس كذلك؟

وحين أجبتُ بالإيجاب، رفع فنجان النسكافيه، وجرع منه جرعة كبيرة داعياً إيّاي إلى شرب فنجاني، ثمّ قام من مجلسه، وأتى بكتاب مطبوع بالعبرية، وطرحه أمامي، وقال: نحن في حاجة إلى حلّ محليٍّ للمأزق الذي تعيشه إسرائيل والعرب اليوم، وقرأتُ العنوان، وكان "مأزق اليهود في إسرائيل"، ثمّ في عنوان تالٍ وبخطٍّ أصغر " هل تواجه الصّهيونيّة اليوم ما واجهتْهُ الحركة الصّليبيّة قبل ثمان مئة عام"؟

وكان الحوار الطويل، الحوار الذي يخوض فيه المفكّرون الأشكناز اليوم، وأمّن على كلامي"صحيح ما قلتَ، ولكني أحتجّ على تخصيص الأشكناز بهذا المأزق"، فالأزمة تعمّ اليهود في العالم كله، واليهودية العالمية التي وقعت في مأزق رَفْض الجوار لإسرائيل، وتمتم محرجاً: وربّما وقع العالم الغربي أيضاً في الأزمة نفسها، وإن من وجهة نظر أخرى، وجهة نظر أرادت عودة الغرب إلى الشرق الأوسط، ولو تحت راية أصحاب قضية كاليهود. لاحظ نظرة الدهشة في عينَيّ، فتابع: الغرب الذي استجاب لحماقة تيودور هيرتزل في إبعاد اليهود عن الغرب الحاضن، وحضارته، إلى العالم العثماني الذي كان يحيا في المجمّدة العثمانية سعيداً.

واستمرّ الحوار، وطال، ولم يسمح لي بالمضي إلى القاووش لفترة الغداء، بل طلب من حارس القاعة، حيث كنّا، إحضار الغداء رغم اعتراضي باللغة الإنكليزية على الغداء خارج المعتقل، حيث الزملاء، ولقد حرصتُ على عدم الحديث بالعبرية، أو إعلان أني أفهم العبرية، وكان تواصلي معه إمّا بالإنكليزية، أو بالعربية، حيث إني كنت قد عانيت الكثير منذ بداية اعتقالي من الاتّهام بالجاسوسية، والعمل مع المخابرات السّوريّة، ومعرفة، أو إتقان العبرية دليل كافٍ في رأيهم على تعاملي مع المخابرات السّوريّة.

شربْنا القهوة بعد الغداء، ثمّ حمل فنجان قهوته، وأخذ يمزمز منه مفكّراً، وأخيراً اتّجه إلى المكتبة المواجهة، وانتزع منها كتاباً يعرفه "فلم يُخطئ بانتقائه" مجلّداً تجليداً حديثاً، فحمله إليّ، ووضعه في هدوء على الطاولة، وهو يقول: حتّى لا تتحامل على الإسرائيليّيْن، تصفَّح هذا الكتاب، وألقى أمامي بنسخة مصوَّرة ومترجمة عن كتاب "غروسِّيه" عن الفرنسية، وكان اسمه "الحروب الصّليبيّة وأسباب إخفاقها".

وضعتُهُ جانباً متحاشياً قراءة أكثر من العنوان، ولكنه اقترب من الطاولة، وقال: لسنا نحن الإسرائيليّيْن فقط مَنْ حاول أو يحاول الإفادة من تجارب الآخرين.

كان حوار طويل، تحدّث فيه عن موضوع ألقيتُهُ مرَّة في واحد من المؤتمرات الدّوليّة، فقدّم لي نسخة مصوَّرة عن المحاضرة التي ضاعت منّي منذ فترة، وقرأتُ بعد تصفُّح سريع: "مشكلة الإسرائيليّيْن أنهم تأخّروا كثيراً في تحوُّلهم إلى مُستعمِرين، والعالم اليوم لم يعد يتقبّل ذلك الشكل القميء من الاستعمار البشري، أي طرد السّكّان التاريخيّيْن لبلد ما، والحلول محلّهم، فهناك عصبة الأُمم، وهيئة الأُمم المتّحدة، والمحاكم الدّوليّة، وأولئك كلهم لن يقبلوا بمذابح

تزيح الكتلة الأكبر من السّكّان، ثمّ تحلّ محلّهم مهاجرين غرباء، لا صلة حقيقية بينهم وبين الأرض التي يحتلّونها، فلا هم بالفلاّحين المعتادين على الارتباط بالأرض، ولا هم بالسادة الطّيّبين الذين يجتلبون القلوب إليهم، فيُفضّلهم الفلاّح عن سادته القدامى المجلّلين بالظلم والمعتقلات، والإعدامات المجّانية دون خوف من عقاب".

قال غيدو: ما رأيكَ بكتابة مقال ما عن وضع الإسرائيليّينْ اليوم في، وتردّد قليلاً قبل القول، في "فلسطين"، ثمّ تابع مشيحاً عنّي: لمَ لا نُحسِّن الرؤية قليلاً؟! دعنا نَكُنْ عادلِين: ما الرأي في زيارة إلى واحد من الكيبوتزات الذي تختاره بمزاجكَ، وحسب هذا الكاتالوغ لترى الجواب على داسو، وكوشنير، والمعمّرين الفرنسيّينْ، وصَمَتُّ خائفاً، فأنا أعرف عن الإسرائيليّينْ وخداعهم لمَنْ يحاول الحياد في قضيتهم الكبرى، العودة المخادعة إلى أرض الأجداد، وطرد العرب من فلسطين للحلول محلّهم.

كان الظلام قد حلّ على المعسكر، والكهرباء أُضيئت فوق المعتقل، وعلى جدرانه، وفي المكتبة التي كان غيدو يتصرّف فيها تصرف السّيّد المعتاد عليها، وقمتُ أتمطّى وهو يتابعني بعينَيْه في فضول، ثمّ قلتُ: أيمكنني العودة إلى القاووش الآن، فقد قارب الفجر؟ وردّ في خيبة: ولكنكَ لم تجبْ على عرضي، فقلتُ في جفاء: عرضكَ يحتاج إلى تفكير قبل الإجابة، دعني أمضي الآن، وأنا موجود، وابتسمتُ مُكمِلاً "لا أستطيع الاختفاء"، قلتُ الجملة الأخيرة مازحاً.

نظر إلى ساعة رُسْغه، وقال متفاجِئاً: أووف، لقد تأخّر الوقت بنا، ثمّ تابع: طيّب، كما تشاء، في غد لنا متابعة للحديث. ثمّ قرع الجرس، فدخل جندي صارم الوجه، يحمل كيساً أسود، ونظر إلى غيدو الذي هزّ برأسه إشارة الموافقة، فقام الجندي بإلباسي الكيس الأسود، ليحتجب

كل شيء عن عينَيّ، ثمّ أحسستُ بيد قوية تمسك برُسْغي، وتضع القيد البلاستيكي، وتقودني إلى خارج المكتبة، وعند الباب، سمعت غيدو يقول: مع السلامة. أرجو أن يكون مزاجكَ أفضل غداً.

وصلتُ إلى القاووش، وأحسستُ بيَدَيْن تُبعدان الكيس الأسود عن وجهي وعن عينَيّ، ثمّ أحسستُ بيَدَيّ حرَّتَيْن، فلم يكن الإحساس قد عاد إليهما منذ القيد البلاستيكي الذي حاولتُ التّفلّت منه، وإذا به يميت الحسّ في إبهاميّ.

صعدتُ إلى السرير العلوي، فقد قام شريكي في السّريرَيْن السّوريَّيْن بالنوم في الأسفل منهما، لم أرد إيقاظه من أجل نومة في الأسفل المريح في قربه من الأرض، استلقيتُ أحاول النوم، ولا نوم، وبهدوء شدّني عن محاولة النوم صوت مترنّم بعيد، وتنبّه كلُّ شيء فيّ، وتكرّر الصوت، وكان يشبه أصواتاً أعرفها، كان أذاناً بعيداً دون مايكروفونات، وكان ما يتسرّب منه محمولاً على برد الشتاء المعزول عن الضّجّات والصرخات، كان أذاناً، وأخذتُ في التفكير الحثيث: كيف وصل الصوت؟ ومن أين؟ وتكرّر الأذان حنوناً رقيقاً، حناناً قريباً إلى القلب، آذاناً قادماً من مسجد ما قريب، سمح هدوء الفجر في وصوله إليّ، لم أكن أركّز في الكلمات بمقدار التركيز في المقام المغنّى، وقفز البيت إلى الحضور رغم إصراري على عدم التّذكّر، فأنا أعرف أن الحنين أوّل الطريق إلى الضعف، وأوّل المحاولة للحصول على مكان إلى جانب الزوجة والبنت التي كبرت ولا شكّ في هذه الشهور التي غابت عنّي فيها، كنتُ أسعى إلى طرد الحنين الممزّق عن الذاكرة، ولكن الأنين والحنين تكرّرا، هل كان أنيني؟ أم أنيناً قادماً من مكان آخر، أنيناً يعبر الظلمة والصمت، أنين الأرض نفسها التي تحنّ إلى مَنْ لعبوا على ظهرها، وماتوا على ظهرها، يتشهّون العودة؟ حاولتُ التشاغل عن

الحنين المائج في العمق، وأخذتُ أتخيّل الجامع، وأخذتُ أبحث له عن اسم حين شعرتُ بدفء يتسلّل إلى خَدَّيّ، رفعتُ كفِّي في استسلام إلى وجهي، كنتُ أعرف أن البكاء قد غمرني رغم تجلُّدي، وسمعتُ الشهيق المختنق يعلو منّي، ولم أحاول مسحه، بل استبدلت به اللمسة الضعيفة الحنون فقط،

كان نشيج قريب، فَصَمَتُّ، وسكنتُ أحاول التّأكّد من أن الصوت نشيج، ولكنْ، كان النشيج لا يحاول التّخفّي. كان السرير الملتصق بسريري، وكان ينشج مرتعشاً في حرقة لا تتخفّى، فلقد غلب الحنين على الصبر.

عرفتُ أنه نداء الجامع الذي وصل إلينا عبر صمت الصبح المبكّر. كنتُ أعرف أننا في مجدو، وأن الجامع بعيد، فمن أين وصل الأذان الموقِظ العابر للتاريخ والجغرافيا الظالمة.

بعد حوالي الأسبوع قضيتُهُ منعزلاً عن زملائي الضّبّاط، كانت الفكرة التي تغلي في دماغي المثقل بالبكاء والقهر على ما وصلتُ إليه، كنتُ منشغلاً بفكرة: ماذا يريدون منّي فعلاً؟ أتراهم يشكّون في أني أعمل مع المخابرات حقّاً؟ أم أنهم يرمون صنّارة فيها طعم إلى مياه هائجة، لعلّهم يخرجون بحوت، يُنقذهم، ويُورِّط السّوريّيْن فعلاً؟ كانت هذه الأفكار تنازعني، ولا أعرف منها مخرجاً، وإلا فلمَ أرسلوا إليّ البروفيسور جدعون، يريدون منه معرفة إن كنتُ أتكلّم العبرية، وهذا أمر لا يتقنه إلا العتيقون في المخابرات المضادّة لإسرائيل، وأساتذة الجامعة المتخصّصون باللغات الشرقية، أو أحد الفضوليّيْن المهتمّين بالعلوم والثقافة دون هاجس تحصيل الشهادات؟

واستيقظتُ من نوم ثقيل، ففوجئتُ بالنور يغمر القاووش، وبالضّبّاط

الآخرين يتوشوشون، وكأنهم لا يريدون إزعاجي بإفساد نومتي الطويلة، ونظرتُ إلى الباحة عبر الباب المغلق بقوّة، فرأيتُ الظلال صغيرة والشمس ساطعة، فأدركتُ مُشوَّشاً أنه الظهر، أو ما بعد الظهر، وقال الصديق: لقد أرسلوا في طلبكَ لاستكمال، وتردّد قليلاً، ثمّ أضاف: لم يقل التحقيق، بل قال: الحوار.

قمتُ من مرقدي متمايلاً كالسكران دون شراب، ومضيتُ إلى غرفة الحمّام الكبيرة التي تحوي تواليتات وحمّاماً له باب يرتفع من الأسفل حتّى منتصف الساق للتّأكّد من أنه مشغول، وكان الصابون المخصّص للحمّام مصنوعاً من مركّب كيماوي خشن، ويبدو أنه مصنوع من مركّب منظّف الثياب الكيماوي "تايد" مُعدّاً على هيئة صابون الحمّام، وكنّا نقاسي من خشونة التايد في أثناء غسيل اليَدَيْن، كان شَعْر رأس الضّبّاط قد بدأ بالتساقط بتأثير المسحوق الكيماوي على الشَّعْر. بدأتُ غسيل الوجه بالماء دون منظّف كيماوي، تَوَجَّسْنا منه الشّرّ، ورغم شكاوانا المتعدّدة لتغيير نوعه، إلا أنهم كانوا يتظاهرون بالجهل بتأثير الصابون على أبشارنا وشعورنا، كنتُ أبحث عن صحو بوضع رأسي تحت الحنفية يُوقِظني، وأخذ الصحو يستولي عليّ، وأخذ عالم الذكريات ينتصر على عالم الواقع الذي أسمع صوته في القاووش خارج الحمّام.

كانت نقرات على الباب الفاصل بين العالَمَيْن، وكان عليّ الاستجابة لعالم الضجيج خلف الباب، وفي أثناء تحرّكي لفتح الباب، سمعتُ صوتاً يقول: مستر جنيفا هم يريدونكَ، الآن. فتحتُ الباب، لأُفاجأ بالحارس واقفاً وسلاحه مُشهَر على الضّبّاط خارج الحمّام، وحين سمع حركتي بالباب، التفت إليّ، وقال: البروفيسور غيدو ينتظركَ. لاحظ عدم تحمّسي، فأضاف: يدعوكَ إلى الغداء. كانت الجملة الأخيرة بالعبرية، وكنتُ أتظاهر بعدم

الفَهْم بوجه ظاهر الجهل بما يقال. فاضطرّ إلى قولها بالعربية، فأبديتُ الفَهْم، فلقد بدأ الجوع يعلن عن نفسه في قرصات المعدة.

كانت الطاولة المُعدَّة للغداء على عجل تعجّ بأسماك لم نألف رؤيتها منذ حادث الاختطاف من المخفرالأُممي السّوريّ، وكان إلى جوارها في طبق خاصّ القريدس، والروبيان الضخم حتّى يصل حجم الواحدة منها إلى الشبر، كان كل شيء يدعو إلى عدم التّحفّظ في قبول الدعوة إلى الغداء، والاستجابة إلى إشارته بالتَّفضُّل بالجلوس إلى الطاولة، رأى جمودي، وظنّه ارتباكاً، أو رفضاً، فأضاف: اقترحتُ أن نتغدّى معاً. ثمّ قال مُتملِّقاً: كانت مجالستكَ بالأمس بهيّة. أتمنّى أن يكون انطباعكَ عنها مماثلاً. كانت الأفكار تتقلّب في مخّي تقلُّب فقاعات الماء في حالة الغليان، ما الذي يريدونه منّي؟ جرّ كرسيَّاً في تهذيب، ودون صوت يدعوني إلى الجلوس، فعل الرجل الشهم مع المرأة المحبوبة استطاع أخيراً دعوتها إلى العشاء للمرَّة الأولى خارج البيت، جلستُ وجلس، وكان خدم من كراسين لم أعرفهم قبل اليوم، تأمّلتُهم في عدم اكتراث، كان مخّي يعمل بسرعة: هل أنا في معتقل إسرائيلي؟ أم في فندق من مرتبة الخمسة نجوم؟ كانت الأفكار تتسارع في رأسي: ما الذي يريده منّي؟ ما الذي يريدون منّي؟

كنتُ واثقاً تمام الثقة أن مراقبين يراقبون كل حركة أقوم بها لدراستها. كما كنتُ واثقاً أنهم يتجادلون الآن في الانعكاسات على وجهي بعد كل سؤال يُوجِّهه إليّ، أو بعد كل حرج أقع به، قال: أعتذر عن عدم قراءتي لكتابكم "التصنيع الزّراعيّ في سوريا وتجربة مبروكة" مطبوعاً أو ربمّا كان العنوان الأوّل "مبروكة والكيبوتز" أم أني أخطأتُ ثانية في العنوان، هل نُشر أخيراً مطبوعاً؟

كان لكلامه وقع الصاعقة عليّ، فكيف عرف بالكتاب وقد ادّعت دار

النشر إرساله إليّ بالبريد المسجّل، ثمّ ضاع؟ كيف وصل إليه؟وجّهتُ السؤال إليه في غيظ مكبوت، فأجاب ببساطة: وجدتُ صورة عن المخطوطة في المكتبة مجلّدة تجليداً متواضعاً، وحين قرأتُ عناوين الفصول، طلبتُ إليهم تصويرها، فصوَّروها لي، وحملتُها إلى البيت، حيث قرأتُها، وأُعجبتُ بها، ثمّ قال في لطف المحاور: وتمنّيتُ التّعرّف على الكاتب، ثمّ صمتَ محرجاً، وأضاف: ولكنْ، في ظرف آخر. تابعتُ باللهجة نفسها والصدمة نفسها: ولكنْ، كيف وصل المخطوط إلى مكتبة الجامعة؟ وعبّر وجهه الحائرعن عدم معرفته بكيفية وصول المخطوط إلى الجامعة، فأضاف: ربّما اشترتْها المكتبة من معرض من معارض الكتاب، أو من مزاد ما، تفضَّل. تفضَّل. وحمل إلى صحني واحدة من ثمار البحر، ولكني لم أقربها.

تابع وهو يمضغ محرِّضاً لي على الأكل: منذ قرأتُ تحليلكَ لتاريخ الخراب الذي لحق ببلاد"، وتردّد قليلاً قبل إضافة، "الشام"، على يد المغول على مختلف تسمياتهم، هذا التاريخ المرتبط بالمنطقة السّوريّة مترجماً في جريدة التايمس، ثمّ قرأتُ تعليقكَ على الحروب الأوربية التي حملت اسم الصليبية، ورؤيتك المخيفة لمستقبل إسرائيل في بلادها، ولاحظ رمشة في وجهي الرافض، فأضاف: أعتذر، فأنا أقصد فلسطين، الاسم المقبول قبل الحروب والانتصارات والهزائم وتغيير الصفة، ثمّ قال في مجاملة قصد منها التّقرّب: أُعجبتُ بطريقة تحليْلكَ، ولو أني لا أتّفق معكَ في النتائج، ولاحظ جمودي، فقال في لطف يعتذر: هل نبدأ الطعام؟ ولاحظ قبولاً في وجهي عند هذا العرض، فتناول سمكة، ووضعها في صحني: أرجو ألا تمانع. وقبلتُها في سرور بعد أن أزحتُ الحلزونة جانباً في الصحن.

كان غداء غير متوقّع أبداً في معتقل كـ مجدو، وما إن تناولتُ اللقمة

الأولى من السمكة حتّى حمل إليّ صحن طرطور الطحينة بالليمون والبقدونس الشّاميّة، ثمّ صحن الحمّص بالطحينة، وصحوناً كثيرة كان يعرضها عليّ، فأتناول منها ملعقة أو تنفرني رائحة ما فيها، فأعتذر، وكان كثير من المشهّيات التي نسيتُها منذ "الاختطاف"، ومع الانشغال في كتابة البحوث الصامتة في المنطقة العربية، والفصيحة في الإنكليزية والفرنسية في المحاضرات التي كنتُ ألقيها، أو يلقيها مترجم محترف، فيلتقطها الحاضرون مترجمة عبر الهيدفون.

انتقلنا بعد الغداء - الذي لم أكن أتوقّعه أبداً في معتقل إسرائيلي - إلى ركن في الصالة الكبيرة معتم بعض الشيء، ولكن الكنبتَيْن المغطّاتَيْن بقماش جميل كان يديهما نافرتَيْن عن أثاث العسكريّيْن، أو المعتقلات، واسترخى فاسترخيتُ، وقال: كأس من البراندي لن يكون مرفوضاً الآن. وأحسستُ مع الاسترخاء أني لم أكن في المعتقل، وقام ليُحضر الزجاجة كما توقّعتُ، ولكنه عاد، ومع البراندي جاء بكتاب دون غلاف، فوضعه على الطاولة، ثمّ عاد إلى الفاترينة، فأحضر كأسَيْن من الكريستال التّشيكيّ، ليصبّ فيهما البراندي، وبينما كان مديراً ظهره لإحضار الكأسَيْن من الفاترينة المنخفضة، مددتُ يدي في فضول إلى الكتاب المرمي على الطاولة، وقرأتُ العنوان، وكان بالفرنسية، وصُدمت بقراءة عنوان لواحد من الكُتُب التي تعلن بصراحة تشاؤمها من استمرار دولة إسرائيل، ورميتُ الكتاب بسرعة المفاجأ بارتكاب معصية، جاء بالكأسَيْن، فوضعهما على الطاولة، وحمل الزجاجة ليصبّ، وقال: أمَا زلتَ على رأيكَ في عبثية إقامة إسرائيل وحتمية زوالها كحتمية زوال الجزائر الفرنسية، ومملكة بيت المقدس الصّليبيّة؟ فأضفتُ في مجاملة: وحتمية زوال الأندلس المسلمة، ولو بعد ثماني مئة عام.

كان كل ما حولي يُغريني بالمجاملة، فالغداء والشراب، والمجاملات بعد خشونة القاووش، والإضراب عن الطعام، وصعوبة استقبال الراديو، والتدافع من أجل التّحكّم فيه، ذلك كله كان يدفعني إلى مجاملة المضيف، والتغاضي عمّا أدليتُ به في الحوارات الصّحفيّة، ووجوب التعامل الواقعي مع قضية كقضية بناء وطن، واحتلال وطن، وتنحنح يستحثّني على الكلام، فقلتُ: التاريخ وبناء الدول يقولان: أن لا فائدة، فاحتجّ: ولكنْ، كل مَن استشهدتَ بهم من فرنجة صليبيّيْن ومعمّرين أوربيّيْن في الجزائر ارتكبوا الخطيئة القاتلة في رفضهم التّحوّل إلى فلّاحين والعمل في الأرض. أمّا نحن، فقد أنشأ جيل الآباء المزارع الاشتراكية الكيبوتزات، وأنشؤوا، وصمّموا على العمل العبري في الموشافات، والناحالات، وعملوا فيها، فأضفتُ بلهجة ميكانيكية: ولكنهم سرعان ما سئموها وسئموا التّقشّف الذي عاشوا به، والتضحية بالشباب، وإفقار الأبناء، والبنات، وكان في استطاعتهم استبدال كل هذا عيشاً في شقّة مؤثّثة بأثاث معقول، تحوي الماء الساخن عند الحاجة مع امرأة جميلة تُنجب أطفالاً سعداء، واستقدام عمّال من الفيليبين، وتايلاند، والصومال، يقبلون بالعيش في ظروف الشرق الأوسط الجهنّميّة، وألححتُ: البورجوازي الصغير سيظلّ يحنّ إلى تحوّله إلى بورجوازي كبير، لا إلى شهيد فلّاح، في سبيل قضية لا مستقبل لها.

قاطعني بالقول: أنتَ نسيتَ الآلاف من المتطوّعين، والمطوِّرين، والمخترعين، والعاملين من يهود العالم في سبيل إنجاح قضية إسرائيل.

وقلتُ في استهانة: ولكنهم يؤدّون ما يظنّون أن عليهم أداءه، ثمّ يعودون إلى الشّقّة، أو البيت المريح في بلدهم الأصلي، وإلى الزوجة، أو المساكنة اللطيفة، وإلى أصدقاء يوم السبت، حيث يشربون البيرة سعداء، يثرثرون في مجّانيّة، وهم يلعبون البوكر أو الكون كان.

نظر إليّ طويلاً في لوم، وقال في حزن: أنتَ تُقلِّل من أهمّيّة المخلصين والرّوّاد، وطالبي العدل. وهؤلاء هم مَنْ نعتمد عليهم لتجاوُز مأساة الصّليبيّيْن في فلسطين، والفرنسيّيْن في الجزائر. ثمّ قال في عزيمة: نحن الرّوّاد الأوربيّيْن الأوائل إلى أميركا، نحن الصّوفيّيْن المخلصين لأورشليم، والعاشقين لصهيون.

كانت العتمة تحلّ على النوافذ خارج المبنى، وأدركتُ دون نظر إلى ساعة لا أملكها، فلقد انتزعوها منّي في اليوم الأوّل الذي انتزعوا فيه ثيابي ورتبتي القماشية، فتحوّلتُ إلى مجهول، هم وحدهم مَنْ يعرف رتبتي، ويستقبلني باسمها، ويستدعي البروفيسيرات لمجادلتي وإقناعي بشرعية وجودهم في فلسطين.

أخذ يُحدِّثني في استرخاء عن بعض عائلته الذين ما يزالون في أوكرانيا، وأنه يتبادل معهم الهدايا والصور التي ما تزال تربطهم إلى الوطن الأمّ، وصمت قليلاً في حرج، ثمّ أضاف: روابط حنين كنتُ أتمنّى لو يملكها اليهود السّوريّون في إسرائيل، والعراقيون المهاجرون إلى إسرائيل دون اتّهام بالخيانة من قبَل المتشدّدين في إسرائيل، وفي، وفجأة غيّر نبرته من حنين إلى استكمال حديث، كنّا قد بدأناه: فرصة نادرة وجودكَ ضيفاً على إسرائيل. ورأى نظرات الدهشة على وجهي، فلم يكترث، بل تابع: نحن في حاجة إلى عقلاء، لا إلى مُهيِّجين سياسيّيْن، ثمّ حدَّق في وجهي في حماسة: ما رأيكَ في أن تكون ذلك الرسول؟

كانت المفاجأة كضربة غير متوقّعة على الرأس، فحاولتُ التّنصّل من مهمّة لن تسمّى بأقلّ من الخيانة. وتابع في حماسة: هذا العداء غير المسبوق بين اليهودية والإسلام يجب وضع حَدٍّ له، فلا تدرْ ظهركَ لفرصة تجعل الغد أفضل من الماضي، وصمت يبتلع ريقه، وقال: ألم يئن الأوان لتجاوُز الماضي والعيش جيراناً، يحبّون الخير لجيرانهم.

انتصبتُ في مجلسي، وبحثتُ في اهتمام عن الكيس الأسود أضعه وأعود إلى القاووش، ولكنه اعترض: أنا ما صدّقتُ حظّي حين عثرتُ على محاور مثلكَ، ولن تجد محاوراً خيراً منّي، فأنا وأنتَ مثقّفان قرآ التاريخ، وعرفا مآسيه، ويعرفان بكوارث الحروب ومآسيها. فدعنا نكن رُسُل السلام الذي يحتاجه الجيل على كلا الجانبَيْن. اتّجهتُ إلى الباب الذي أعرف أنه مقفل، وطرقتُ عليه بقوّة، ولكن الرّدّ كان في رنين الهاتف على مكتب البروفيسور غيدو الذي نظر إليّ متسائلاً، وقال: لا ترفسْ فرصة أن تكون رسول السلام إلى هذا العالم الغارق في الظلام، وكرّرتُ الضرب على الباب في إلحاح، فتنفّس في ألم، وقال: كما تريد. ثمّ رفع السَّمَّاعة، وقال: افتح الباب.

كان النوم صعباً عليّ جدًّاً عند وصولي إلى القاووش، ورُفع الكيس الأسود عن رأسي، لأرى بعض الزملاء ما يزالون مستيقظين، يلعبون لعبة مرسومة على الورق، كان أطفال المدارس يلعبونها منذ عقود، ولكن الحاجة تخلق الحيلة، فحيَّيتُهم في انكسار، ومضيتُ إلى سريري الذي صار الأعلى، فلقد انتهز شريكي في المكان الفرصةَ، وصار ينام في السرير الأسفل.

لم أستطع النوم، وتذكّرتُ بسطاء الجند من سرايا الدفاع وهم يتوسّلون إليّ في إنقاذهم من الورطة التي علقوا بها، وسمعتُ صوته يُلحّ: يا سيدي، عندي سبعة أولاد، قولك بيرجعونا؟

وسمعتُ البروفيسور غيدو يقول: "أنا وأنتَ مثقّفان، قرآ التاريخ، وعرفا مُؤْيِسِيْهِ على البسطاء، ويعرفان بكوارث الحروب ومُؤْيِسِيْهَا. دعْنا نكنْ رُسلَ السلام الذي يحتاجه الجيل على كلا الجانبَيْنْ".

اختفى البروفيسور غيدو، وبعد أيّام دعاني خلالها لشرب القهوة،

ومضيتُ ملاحَقاً بنظرات الحسد والاتّهام من قبَل الضّبّاط الزملاء الذين عرفوني لشهور.

شربتُ القهوة معه، وكنتُ في أشدّ الحاجة لشربها، ولم تكن قهوة سوقية، بل قهوة "محوّجة" على قول الإخوة المصريّيْن.

شربتُ القهوة مع البروفيسور لمرَّتَيْن، لم يحدّثْني خلالهما عن رُسُل السلام، أو عن إطفاء الحريق في الشرق، بل كان ينتظر منّي كلاماً جادّاً، لم أستطع قوله، وقد ضاءلنا الخلاف المتكرّر بيننا في تسمية شرقنا، فأنا أقول الشرق العربي، وهو يقول: الشرق الأوسط، وبعد عبوسَيْن، ورفض لشرب القهوة، اتّفقنا على تسميته بالشرق فقط، ولكنه اختفى في اليوم التالي، ولم أعرف بمصير الكُتُب الرائعة في مكتبته.

تفعيل اللعنة

بعد ١٠ شهور تقريباً من اعتقالي لدى الإسرائيليّيْن متَّهماً بأني الضابط المسؤول أمنيًّاً عن ضبّاط الارتباط السّوريّيْن، وأني مَنْ كنتُ أتلقّى تقاريرهم عن الضّبّاط الأُمميّيْن، ثمّ أرفعها إلى القيادة الأمنية في دمشق.

حين كنتُ في مطار بن غوريون على طريق العودة إلى سوريا في صفقة لتبادل السجناء بين السّوريّيْن والإسرائيليّيْن، كنتُ في طريقي إلى الطّيّارة التي ستقلّني إلى مطار دمشق في المزّة، برز أمامي فجأة "الرائد" غانوت، وتقدّم منّي مُحيّياً على الطريقة العسكرية، وهو يقول "ليفتنانت ذهبي: التفتُّ إلى حيث الصوت، وكان الميجور يُحيّيني التّحيّة العسكرية، ويقول: "شالوم"، وكدت أردّ على تحيّته بالتّحيّة العسكرية المألوفة، لولا أن كفَّيَّ كانتا مشغولَتَيْن بحَمْل حقيبة ملابسي الصغيرة، وحمل كيس كبير من البلاستيك، جمعتُ فيه كل المنح والهدايا التي أُرسلت إلينا من الصليب الأحمر، ومن الهلال الأحمر، ومن جمعية حماية الأسرى، من عدّة حلاقة، وزجاجات كولونيا، وفرشاة للملابس، وأخرى للحذاء، أمّا الحلويات، فقد أكلناها في حينها.

كان القانون العسكري العالمي ينصّ، حسب اتّفاقية جنيف، أن يُحيّي الرتبة الأدنى الرتبة الأعلى، وبغضّ النظر عن وضعهما القتالي حرباً كان أم سِلْماً، وأسيراً كان أم آسراً، كان من حسن حظّي أن كفَّيَّ كانتا مشغولَتَيْن بحمل متاعي الذي سأحمله معي إلى البيت، وكان من المفترَض حسب "غانوت" أن أحمل معي عبر الصحافة العالمية صوري التي أُحيّي فيها

إسرائيل على حسن ضيافتها، ولكنْ، كل ما فعلتُ أن أحنيتُ رأسي رادّاً على التّحيّة، ومضيتُ نحو الطّيّارة.

على الدرج الصاعد إلى الطّيّارة، تذكّرتُ لعنة الكولونيل نهاري الإغريقية: "نحنُ لن نعاقبكَ هنا في إسرائيل، ولكنهم حكّامكَ ورؤساؤكَ مَنْ سيحاكمونكَ ويعاقبونكَ بالنيابة عنّا".

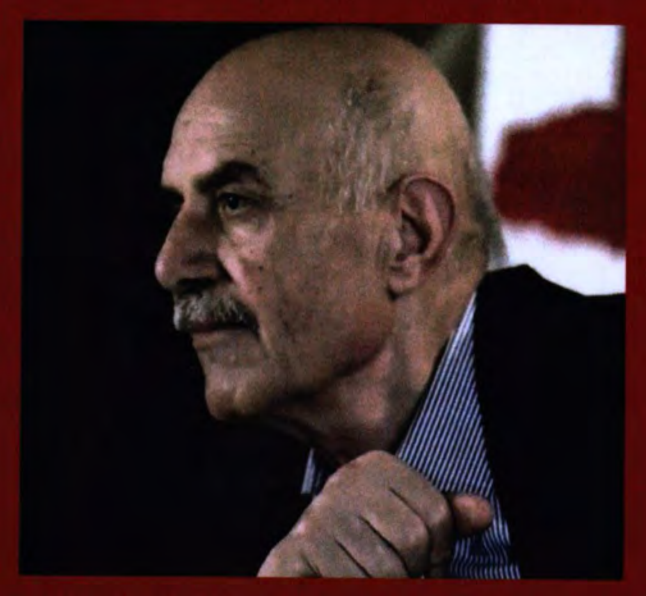
وأكمل قائلاً: ستعاني الكثير إن ظللتَ معادياً للإسرائيليّيْن، وستعاني ليس من إسرائيل، بل من حكّامكَ في سوريا.

كان الرائد غانوت في مطار بن غوريون يتوقّع منّي الإجابة على تحيته بتحية سيُصوّرها الصحفيون والمصوّرون في المطار، وسيراها السّوريّون في الجيش، ولن يقرؤوا فيها إلا أني أُحيّي الدولة الإسرائيلية التي أفرجت عنّي، وسأؤكّد الإشاعة التي أقنعوا بها قوّات الطوارئ الدّوليّة وهيئات الأُمم المتّحدة بأني ضابط مخابرات سوري، دُسّ في ضبّاط الارتباط، ليعمل على مراقبتهم ومراقبة الأُمميّيْن في قوّات الطوارئ.

دخلتُ إلى الطّيّارة، وكانت الأصوات المختلطة لرفاق عايشتُهم لشهور، ونحن جميعاً على الطريق إلى الحرّيّة، وبينما كنتُ أفتّش عن مقعد لي، فوجئت بربتة مهذّبة على كَتِفي، التفتُّ، كان مندوب الصليب الأحمر الذي طالما حاورني واستمع اليّ في صبر ومودّة، كان يقف في ممرّ الطائرة خلفه مصوّر، قال مندوب الصليب العالمي الأحمر بالفرنسية: "وصولاً سالماً" أو منطوقها بالفرنسية "بون أريفيه"، ثمّ قال: هل تسمح لي بإجراء مقابلة معكَ قبل الوصول إلى سوريا؟ وأحنيتُ رأسي في موافقة، وأنا أقول: بكل سرور.

قال، سؤالي الأوّل لكَ: حدِّثنا عن مشاعرك خلال الـ ٣٠٠ يوم تلك التي قضيتَها في إسرائيل.

فهرس اليوميات



خيري الذهبي: كاتب سوري مرموق من مواليد دمشق عام ١٩٤٦. سافر إلى مصر، في بداية الستينيات، حيث درس الأدب العربي في جامعة القاهرة، وتتلمذ أدبياً على يحيى حقي ونجيب محفوظ وطه حسين، قبل أن يعود إلى سوريا ويساهم بفعالية واقتدار في الحركة الثقافية السورية في الصحافة والإذاعة والتلفزيون والأدب بشكل خاص.

أصدر منذ روايته الأولى «ملكوت البسطاء» عام ١٩٧٥، أزيد من ١٥ عملاً أدبياً بين الرواية والقصة والمقالة الصحفية، بالإضافة إلى مساهماته في الدراما السورية وإعداد وتقديم عدة كتب ضمن سلسلة آفاق دمشقية.

منشورات المتوسط

يوميات فريدة من نوعها، تستعيد زمناً بات اليوم جزءا من ماض لا يريد أن يمضي. إنه زمن استيلاء حزب قومي تشبع بالأفكار الاشتراكية ذات نزعة قومية زائفة لم ينقصها شيء حتى تحولت إلى واجدة من أسوأ فاشيات العالم وأكثرها دموية. وعلى رغم الصوت المفرد لكاتب هذه اليوميات، إلا أنه يعبر من خلال حياة شخص واحد عن الآلام والمآسي والمساخر التي رافقت حياة السوريين منذ أن تحركت دبابات البعث لتسيطر على دمشق عاصمة المشرق العربي، وتقحم البلاد في بلاء مريع.

نلاحظ من خلال هذه اليوميات التي يدور جزء منها في الأرض السورية، والجزء الآخر في فلسطين المحتلة وفي فضاء عسكري عموماً، كيف يمكن للفرد أن يفقد صوته، ولا يعود له قيمة شخصية في ظل تحولات كابوسية قادت السوريين من دولة الاستقلال الوليدة والحلم بنموذج برلماني يستحقه مجتمع مدني متحضر، إلى دولة القطيع التي تهيمن عليها أجهزة الأمن السرية وتقودها عصبة مافيوية ورأس مريض بفكرة السيطرة الأقلوية على أكثرية مغدورة ومحطمة.

يوميات خريج جامعي دمشقي يقوده قدره الشخصي إلى الإقامة في أنحاء مختلفة من سوريا وينتهي به المطاف ضابط ارتباط مع القوة الدولية على خط الهدنة مع إسرائيل في منطقة الجولان المحتل وأسيراً لدى الجيش الإسرائيلي لـ ٢٠٠ يوم.

نال عنها صاحبها الكاتب الروائي المعروف خيري الذهبي جائزة ابن بطوطة لأدب اليوميات.

جائزة ابن بطوطة



ISBN 978-88-85771-31-4
9 788885 771314